القافلة

مجلة ثقافية تصدر
كل شهرين • يوليو - أغسطس 2004



الأولمبياد
تعود إلى أولمبيا

العدد 4
المجلد 53

معارض ومؤتمرات

يوليو 2004

- مهرجانات بعلبك الدولية
  لبنان: 9 - 21 أغسطس
  baalbeck@baalbeck.org.lb
  http://www.baalbeck.org.lb
- المهرجان الثاني للأطفال
  البحرين: 10 - 22
  فاكس: 722142 17 973+
- مهرجان جرش 2004
  الأردن: 15 - 14 أغسطس
  info@dubaisail.com
  http://www.dubaisail.com
- مؤتمر إدارة المشاريع
  دبي: 17 - 21
  info@glomacs.ae
  http://www.glomacs.ae
- مهرجان التسوق والسياحة
  القاهرة: 20 - 19 أغسطس
  artline@intouch.com
  http://www.artline.com
- مؤتمر معالجة الغاز الطبيعي
  دبي: 24 - 28
  dubai@euromatech.com
  http://www.euromatech.co.uk

أغسطس 2004

- ندوة العقود المتقدمة وإدارة المشاريع
  بيروت: 2 - 13
  exmac@emirates.net.ae
  http://www.exmac-intl.com
- ندوة التجهيز الكهربائي والصيانة
  دبي: 7 - 11
  dubai@euromatech.com
  http://www.euromatech.co.uk
- مؤتمر مواجهة الطوارئ في المصانع والمصافي
  قبرص: 9 - 13
  exmac@emirates.net.ae
  http://www.exmac-intl.com
- معرض المستلزمات المدرسية
  الكويت: 25 - 10 سبتمبر
  info@kif.net
  http://www.kif.net
- مهرجان التسوق العائلي
  عُمان: 29 - 6 سبتمبر
  trifoil@omantel.net.om

القافلة



ارامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية
(أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
عبدالله بن صالح بن جمعة

نائب الرئيس لشؤون أرامكو السعودية
مصطفى عبدالرحيم جلالي

مدير العلاقات العامة
ناصر بن عبدالرزاق النفيسي

رئيس التحرير
محمد عبدالعزيز العصيمي

مدير التحرير الفني
كميل حوّا

سكرتيرا التحرير
عبود عطية
خالد الطويلي

فريق التحرير
حبيب آل محمود
محمد أبو المكارم
مأمون محيي الدين
محمد الفوز
رولان قطّان (بيروت)
ماجد نعمة (باريس)
رياض ملك (لندن)

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع السروات، جدة

ردمد ISSN 1319-0547

- جميع المراسلات باسم رئيس التحرير
- ما ينشر في القافلة لا يعبر بالضرورة عن رأيها
- لا يجوز إعادة نشر أي من موضوعات أو صور «القافلة» إلا بإذن خطي من إدارة التحرير
- لا تقبل «القافلة» إلا أصول الموضوعات التي لم يسبق نشرها

محطات العدد

يوليو - أغسطس 2004
جمادى الأولى - جمادى الآخرة 1425

توزع مجاناً للمشتركين
- **العنوان:** أرامكو السعودية
  ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
  البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa
- **الهواتف:** رئيس التحرير 7321 874 3 966+
  فريق التحرير 0607 897 3 966+
  الاشتراكات 6948 874 3 966+
  فاكس 3336 873 3 966+

رسالة المحرر

1

في مجتمع اقتصادي تشتدّ فيه المنافسة لم تعد أية شركة تستطيع أن تبقى وتستمر من دون تطوير منتجاتها وخدماتها، بل وأنماط إدارتها للأعمال في أي مجال من المجالات.. ولا يمكنها التطوير ما لم تضع الابتكار خياراً استراتيجياً لها.. فإن تجاهلت هذه الحقيقة فلن يكون أمامها إلا.. الاندثار..!

هذا هو الموضوع الرئيس في مناخ الطاقة لهذا العدد.

الموضوع الثاني في مناخ الطاقة يتحدث عن النفط كمصدر منفعة.. لا أزمات.. وهذا ما أقرّ به لـ "القافلة" السيد "آرني وولتر" أمين عام منتدى الطاقة الدولي في حوار تناول العديد من قضايا النفط الدولية في الزمن الحاضر والمستقبل المنظور.. مؤكداً أن "الحوار سيستمر" من أجل المستقبل..!



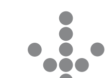
2

اكتشاف الموهوب ليس عملاً سهلاً، ورعايته ليست مهمة هينة.. الدكتور عبدالرحمن كلنتَن أحد الخبراء المعروفين في هذا المجال طرح هذه القضية في أمسية "القافلة" الأولى ليؤكد أن من الخطأ اعتبار الاختراعات والمبتكرات العلمية هي، وحدها، التي تمثل الموهبة.. مستعرضاً أبرز العوامل الأسرية المشجعة لتنمية الموهبة: الحرية، تضاؤل العقاب، والتحفيز المستمر..!

3

كرتنا الأرضية على موعد ليس طيباً مع المناخ.. فهناك توقعات تتنبأ بأن حرارتها سترتفع 4 أو 6 درجات مئوية عن الوضع الحالي.. ولهذا الارتفاع آثار بالغة الخطورة نتناولها في موضوع بيئي يساهم في التنبيه لخطورة هذا الوضع من خلال التوقعات المستقبلية لنهاية القرن الحالي..





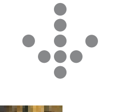
الكثير من الفضائح كشفت عن كيف يمكن للطب أن يستهين بالأخلاق ويعتدي عليها.. "ريتا بول" بريطانية فجّرت فضيحة أخلاقية طبية في المجتمع البريطاني، وكشفت عما يمارسه بعض الأطباء من استهانة بالمرضى كبار السن..! إن حياة بعضهم أرخص من السرير الذي يشغله في المستشفى.. وهناك العديد من الفضائح المؤلمة التي نناقشها ونستكشف أبعادها المختلفة.

الملف المصور



.. "ويبقى لك".. تشكيلة فنية للمصور السعودي الشاب زكي غواص.. مشاهد ضوئية تقدم الكثير من الحكايا التي اختزلتها عدسته في زاوية من الزوايا.. وعبّرت عنها بإحساس مرهف..





4

الألعاب الأولمبية تعود إلى مسقط رأسها للمرة الثانية خلال 3000 سنة..

و"القافلة"، تستكشف التاريخ وتبحث فيما فعلته البشرية بهذا التراث العريق.. التراث الذي كان إفلاطون أحد المشاركين فيه، ليس بإحساس التسويق والاتجار الذي نعاصره اليوم.. وإنما بحس الفيلسوف الذي يرى في الرياضة جزءاً من التكامل النفسي السليم..

5

حسن عبدالله القرشي أديب سعودي حمل حقيبتين: الأدب والدبلوماسية.. وقد رحل عن عالمنا قبل أسابيع. وفي هذا العدد نتناول هذه الشخصية الأدبية المعروفة عربياً على مائدة البحث والتحليل، لنكتشف شيئاً من أسرار التنوع والتعدد في حياة القرشي وإنتاجه الأدبي الذي حصد ثناء أسماء عربية كثيرة من طه حسين إلى سميح القاسم..!

6

في ملف "القافلة" لهذا العدد طرحٌ مختلف عن كل الأعداد السابقة.. إنه يغوص في تفصيلات عام واحد فقط من التاريخ العربي والإسلامي.. عام 659 هجرية الموافق لـ 1261 ميلادية.. ومثلما كانت الملفات السابقة تركز على موضوع واحد "القمر"، "النخلة"، "الجسر".. فإن هذا العدد ركز على عام واحد.. واحد فقط بكل ما فيه من واقع متداخل ومتناقض.. وبكل ما رافقه من أنماط حياة، من المأكل والملبس إلى الثقافة والعمارة والسياسة.. مروراً بأوضاع ذلك العصر الذي كانت يوميات الإنسان العربي تمرّ بين دهاليز متداخلة، وتحيط بها أخطار ومآزق انعكست على المستقبل لقرونٍ تالية..!

المحرر

الرحلة معاً

الجامعة واحة والجنادرية جامعة

تتوقف "القافلة" بين وقت وآخر لتستضيف قلماً عربياً مرموقاً، لرؤيته عمق مهم، خاصة في هذا الزمن العربي الحرج، الذي يتطلب المزيد من وقفات التفكير والمراجعة. في هذا العدد نستضيف المفكر العربي **مُنح الصلح** في هذه المقالة..

حين أتصفح مجلة كالقافلة يستيقظ في نفسي الشعور بحاجتنا اليوم إلى واحات جديدة للثقافة العربية، واحات يتبادل فيها المثقفون العربُ الفكرَ والعلم، ويطلعون من خلالها على تراثهم وعلوم العصر، ويمتحنون فيها قيماً يحملونها وأفكاراً جديدة متضاربة تطرح عليهم بلا هوادة.

كنا هكذا أيام الجامعة. كانت الجامعة الأميركية في بيروت واحة للشباب العربي، وكان الشباب العربي يتعرف فيها بعضهم إلى بعض ويتبادلون المعارف والشعر والأدب. كانت واحة للعربية والعروبة معاً، للفكر والعلم والأحلام القومية أيضاً. وكانت هناك جمعيات أدبية تجمع هؤلاء الشباب وتقدم للموهوبين منهم المنابر والمجلات يكتبون فيها، فتتكون منهم نخب تعرف القديم أكثر مما يعرفه الآباء، وتساهم في الجديد أيضاً. كان هناك الشوام والعراقيون وشبان من الجزيرة العربية أذكر منهم - والذاكرة تخونني - عبد الله بلخير وعمر السقاف وزياد الشوّاف وغيرهم. وبرز العديد من هؤلاء الشباب السعوديين في تلك الجمعيات الثقافية كالعروة الوثقى إما كشعراء أو ككتاب في مجلة الجمعية.

من جملة ما أذكر ما كان لكتاب أمين الريحاني من أثر في الشباب العربي في تلك الفترة. فقد نجح الريحاني بأجمل "تحقيق صحفي" كُتب باللغة العربية "ملوك العرب"، في بث رومنطيقية عن الأجيال العربية الوافدة إلى الجامعة، تشدهم نحو الجذور.. نحو الجزيرة. فالشبان كانوا يقرأون بشوق الكتاب الذي جاء في زمانه ملحمة أدبية وسيرة تاريخية في آن واحد. وأثمر معرفة ومودة وولاء عند الشباب العربي لمهد الحضارة العربية.

لقد استعدت كثيراً من هذه الذكريات عندما دعيت للمشاركة في الجنادرية لسنوات عديدة، لأشهد أهم مهرجان ثقافي يجمع المثقفين العرب من داخل البلاد العربية ومن المنتشرين في العالم، كما يجمع الكثير من المهتمين بالثقافة العربية والمحبين لها، فله دور تجاه هؤلاء ودور تجاه أولئك. يتعرف المثقفون فيه بعضهم إلى بعض فوق أرض الجزيرة، يتعرفون على سعودية أخرى غير التي كنا نراها من الخارج. كان المهرجان يقدم للناس الجزيرة العربية الحقيقية القديمة والجديدة أيضاً.

ربما لواحدنا أن يقول اليوم إن الفكرة في تنظيم هذا المهرجان قبل أكثر من عقدين حملت شعوراً ما بوجود خطر آتٍ من بعيد، وأن في أمكنة من العالم تتجمع رياحٌ معادية يعود بعضها إلى عدم فهم أوضاع العرب بشكل عام، والمملكة بشكل خاص. كأن هذا المهرجان أقيم - من جملة ما أقيم من أجله - للمساهمة في تدارك أخطار والاستعداد لمواجهة الرياح. وكان الذين يحضرون الجنادرية يسمعون منها ما لم يكونوا يسمعونه في سواها، كانت لنا فرصة للتعرف بالسعودية النامية بالبشر قبل الحجر كما يقال. أدباء وعلماء وأصحاب رأي من المملكة ينتشرون بين المثقفين العرب يناقشون الزوّار من الشخصيات الأجنبية وقادة الفكر والأساتذة الجامعين والخبراء بكفاءة كبيرة. فكان هؤلاء يرجعون إلى بلادهم يحملون زاداً من المعرفة مختلفاً عما أتوا به، عن المملكة والمنطلقات التي ينطلق منها عرب الجزيرة وكل العرب. فإذا كانوا في الغرب يتحدثون كما نسمع اليوم عن الإصلاح الضروري للمجتمعات العربية فان مثقفيهم الذين زاروا الجنادرية كانوا قد سمعوا قبل ذلك دعوات الاصلاح من مثقفي الجزيرة وقادتها.

عرفت الجنادرية المثقفين العرب مع غيرهم بالانتاج الثقافي السعودي في الماضي والحاضر، ودفعتنا جميعاً على مختلف ديارنا إلى النظر في صحة الكثير من انطباعاتنا السابقة، بل إلى الفخر بالانسان العربي السعودي وما يمتاز به من نظرة ثاقبة ومقدرة على المواجهة الفكرية في الداخل والخارج. يضاف إلى كل هذا من روح الجنادرية مواسم جائزة الملك فيصل. هذه الجائزة التي لم تمنح منذ بداية نشوئها حتى اليوم إلا لمستحق، بقطع النظر عن الجنسية والدين، إذ تُعطى لمن يُسهم إسهاماً قيماً في أي مجال يقف فيه العربي وغير العربي، المسلم وغير المسلم على قدم المساواة لمحض جدارته. وقد حضرت احتفال منح هذه الجائزة لشخصيات مهمة مثل الباحث الأردني فهمي الجدعان والرئيس البوسني علي عزت بيغوفيتش، كان لكل ذلك أثر بالغ في الإفساح عربياً وعالمياً لإيجاد مناخ مستقبلي تمضي المملكة فيه بروحية واثقة معاصرة. ومن يستمع إلى العديد من البرامج التلفزيونية اليوم يشعر بيقظة ما يعيشها العربي الجديد، لا بالتطرف المشبَع بالذات، بل بهذا الانفتاح والتواضع والثقة في النفس وتقدير خطورة الزمن وخطره.

طبعاً نحن نسأل أنفسنا قبل أن يسأل الناس كيف يجوز أن يترك عربي لغير عربي حق الإدعاء بالغيرة على الإصلاح أكثر منه، وهو صاحبه وموضوعه وأساسه. إن الاصلاح ليس زينة بل هو ضرورة وأساس للغد. مع فارق أن الإصلاح الذي كثيراً ما نُدعى إليه اليوم يكاد لا يكون الاصلاح نفسه الذي كان المثقف العربي يسمع به في الماضي.

كنا أيام الجامعة نستمع إلى أساتذة غربيين يسردون أخباراً ووقائع عن الإصلاحات في بلدانهم، وكنا نشعر أنهم صادقون ومفيدون لنا، وهو شعور كثيراً ما يفتقده اليوم المثقف العربي أو غير المثقف عندما يسمع طروحات الإصلاح. وكأن المصالح السياسية النافرة اليوم تضر بنزاهة الكلام عن الإصلاح الذي كان ولا يزال بنظرنا ليس منه بديل..!



ترحب القافلة برسائل قرائها وتعقيباتهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

إلى..
رئيس التحرير

الأعداد السابقة

وصلني عن طريق الصدفة العدد الأول من المجلد 53 الذي حوى العديد من الموضوعات، ويؤسفني أنني لم أطّلع إلا على هذا العدد واطلاعي عليه كان متأخراً جداً، لكن أتمنى أن تصلني المجلة بانتظام وإذا لم يكن هناك إحراج أتمنى أن أطلّع على أعداد سابقة على العنوان الموضح في هذه الرسالة.

فاطمة عبدالله
محررة بالمجلة العربية

القافلة: سيسرنا أن نوفر لك الأعداد السابقة من عام 2003م، كما أن المجلة ستصلك إن شاء الله بانتظام ابتداء من هذا العدد.

مبادرة من شقراء

من خلال متابعة مجلتكم وحرصاً منّا على تقديم كل ما هو جديد فيها، نبعث لكم بمجموعة من الصور الفوتوغرافية التي التقطت خلال زيارة مكتبتكم المتنقلة لمدارس محافظة شقراء ومنها مدرسة عمر بن الخطاب المرفقة صورها. نأمل بعد اطلاعكم أن تنال إعجابكم وتحوز رضاكم واختيار المناسب منها لنشرها ضمن مواضيع مجلتكم.

إبراهيم بن محمد الجبر
مندوب جريدة الرياض بشرمداء

القافلة: نشكر لك هذه المبادرة، وقد أحيلت صور زيارة المكتبة المتنقلة لشقراء إلى نشرة (القافلة الأسبوعية) المتخصصة في نشر أخبار ونشاطات الشركة.

الرياضة

أتوجه بأطيب تحية إلى مجلتكم الجميلة التي أقرأ كل ما فيها من الغلاف إلى الغلاف، وأرجو منكم مزيداً من الاهتمام بالرياضة وأخبارها، فهي تكاد تكون غائبة عن صفحات القافلة لولا بعض المقالات العامة عن الرياضة القديمة.

نعمة إلياس
النبك - سوريا

القافلة: يسرنا أن تقرأ القافلة من الغلاف إلى الغلاف. أما الرياضة فلا يمكن لأية مجلة تصدر مرة كل شهرين أن تتناول أخبارها وأحداثها، فنحن نعالج مواضيع عامة تهم الرياضيين والمتابعين، ولا يمكنك أن تجدها في مجلات أخرى. وسيطالعك في هذا العدد موضوع رياضي نرجو أن يعجبك رغم أنه قديم جداً.. جداً..

الأعداد القديمة

حيث إن لي إلى جانب تخصصي الشرعي، اهتمامات أخرى أهمها التاريخ المعاصر للجزيرة والخليج، الذي أقوم لأجله ببناء مكتبة تهتم بهذا الموضوع، فقد غمرتموني بكرمكم من خلال تزويدي بالمجلة منذ العودة إلى إصدارها، ولكم مني كل الشكر والتقدير.

وأود أن أطلب منكم في رسالتي هذه التركيز على الجوانب الشرعية التي تهم المسلم، واستكتاب متخصصين لهم شهرتهم على الساحة، وأيضاً التركيز على الموضوعات التاريخية، خاصة المتعلق منها ببلدنا الحبيب والبلاد الإسلامية بصفة عامة.

إلى ذلك سبق أن طلبت منكم الحصول على عدد قديم من القافلة، وقد بحثت عنه في عدد من مكتبات الكتب المستعملة ولم أجده. حتى أني ذهبت إلى مكاتب أرامكو السعودية في الرياض، حيث قيل إنه لا بد من مخاطبة مقر المجلة في الظهران. وفقنا الله وإياكم لما يحب ويرضى.

عبدالحميد بن عبدالعزيز المنصور
الرياض

القافلة: نرجو أن تحدد العدد المطلوب فإذا كان متوفراً يسرنا أن نرسله إليك، لأن بعض الأعداد القديمة أصبح نادراً.

بعد توالي الأعداد

رافقتنا مجلة (قافلة الزيت) القافلة منذ صدورها عام 1373هـ إلى أن احتفلنا بمرور نصف قرن من عمرها المديد وكنّا خلال تلك الفترة نحتفل شهرياً بتصفح كل عدد يصدر منها لتصبح إحدى المواد الشهرية على مائدة الثقافة.

لكن عندما صدر الجزء الأول من المجلد الـ 51 وألقيت نظرة عجلى على محتوياته ظننت "وبعض الظن إثم" أن ذلك العدد يحمل توجهاً مستقبلياً بالانصراف عن الإبداع الأدبي إلى تكريس الثقافة العلمية. لكن بعد توالي الأعداد والسباحة في محتوياتها المتنوعة نوعاً ومادة، وجدت فيها قفزة حقيقية نحو المستقبل لتتحول القافلة من مجرد دورية شهرية إلى مجلة ثقافية متنوعة العطاء تؤسس لثقافة تمتزج فيها الرؤية الواضحة لكل متطلبات المثقف علماً وفناً وإبداعاً إلى جانب الدراسات الاقتصادية والصحيّة والاجتماعية، بما يعطي القارئ مادة سريعة التناول سهلة الهضم تجتذب القارئ لمتابعة محتوياتها.. واستعادة مطالعتها كلما عنت له السباحة مع ذلك الفكر الذي جمع إلى جمال المظهر روعة المخبر والمحتوى. وفقكم الله إلى مزيد من التطور والتطوير.

عبدالله بن أحمد الشباط
الخبر

الهوايات الجميلة

لاحظت وفرة ما تتلقونه من رسائل تمتدح القافلة على كل الصعد، ولهذا فأنا أكتفي بضم صوتي إلى أصوات المعجبين وأقول إن مجلتنا الحبيبة تستحق فعلاً هذا التقدير. ولكني أود التعبير عن رأي أرجو أن يتسع له صدركم.

لقد قرأت موضوع الهوايات الجميلة الذي نشرتموه في العدد الأخير. ورغم إعجابي به بشكل عام، فقد لاحظت أنه كان مختصراً. إذ إنه تطرق إلى عدد كبير من الهوايات كان يمكن أن يخصص مقال كامل لكل منها، فلماذا لا تتناولون كل هواية على حدة؟ خاصة ان الموضوع الذي نشرتموه تضمّن اعترافاً بالقيمة الثقافية والتربوية للهواية الجميلة. وعليه أزيد أن بعض الهوايات مثل جمع الطوابع لا تقل أهمية وتأثيراً عن التربية والتعليم على صعيد التأثير في ثقافة الفرد. إن الهوايات ليست ترفاً أو مضيعة للوقت، وهي ليست مجرد استثمارات، وإن كان بعضها قد تحوّل إلى استثمارات في بعض جوانبه. وعليه أعتقد أنه يحق لي أن أتمنى عليكم مزيداً من الاهتمام بمواضيع الهوايات وتكريس صفحات ثابتة لها. ويمكنني أن أعرض عليكم إذا شئتم مجموعة أفكار حول مواضيع تتعلق بالهوايات المختلفة والجوانب التي يجب تناولها في كل هواية على حدة.

مع تمنياتي لكم بالتوفيق وأطيب التحيات لكافة العاملين في المجلة.

إسماعيل بهجت فؤاد
الاسكندرية - مصر

القافلة: نوافقك الرأي على أن الهوايات يمكن أن تكون محور أكثر من موضوع. ولكن الموضوع الذي نشرته القافلة كان مخصصاً لجانب واحد منها وهو بروز عامل الاستثمار الاقتصادي الذي يزداد تضخماً على حساب بعض الجوانب الثقافية.

اللحن الجليّ واللحن الخفيّ

- **المشاهد:** ألم تقل في نشرة الأخبار: السفير البحريني يعلن أمسِ عن رغبته دعوة الصحفيين إلى محاورته؟
- **المذيع:** نعم، قلت. فما مأخذك على قولي؟ أفيه لحن، أم تودّ أن تفتري عليّ؟
- **المشاهد:** لا أفتري عليك ولا على غيرك، فقد لحنتَ قبلُ كما تلحن الآن.
- **المذيع:** ويلي، وويل اللغة منك، إني أحتار كيف أحرّك لساني، فكيفما حركته اتهمتني بلحن.
- **المشاهد:** نهضت من لحن وسقطت في آخر. قلت: أحتار، والصواب (أحار)، وقلت في الجواب عن سؤالي نعم، والصواب (بلى)، لأن السؤال منفيّ، وأداة النفي: لم. قلتُ لك: ألم تقل؟ فقل (بلى).
- **المذيع:** سأقول: بلى، على أن تكفّ عني هذا البلاء.
- **المشاهد:** لا أكف حتى تكف عن نشر اللحن بين ألوف الألوف من المشاهدين والسامعين.
- **المذيع:** أحمد الله، إذ أخذتني بلحن خفّي لا بلحن جلّي.
- **المشاهد:** وهل في اللحن ما هو خفيّ، وما هو جليّ؟
- **المذيع:** الخفي ما سمعته وحدك، والجليّ ما سمعه المشاهدون.
- **المشاهد:** لنعد إلى الجليّ الذي تقوّلته على السفير. أتسمح لي بإقالتك من عثراتك؟
- **المذيع:** أأنت جابر عثرات الكرام؟
- **المشاهد:** أنا جابر عثرات الكلام. أبدأ باللحن الأول، قلت (بحريني) والصواب (بحراني). وهي نسبة على غير قياس، نصّ عليها اليزيدي من البصريين، والكسائي من الكوفيين. واللحن الثاني: الصُّحفيين بضم الصاد، والصواب فتحها.
- **المذيع:** نسبتهم إلى الصُّحف.
- **المشاهد:** الصحيح نسبتهم إلى صَحيفة بالإفراد. واللحن الثالث: قولك يُعلن أمسِ.
- **المذيع:** هذا ما حدث، والسفير أعلن، والإعلان وقع أمس.
- **المشاهد:** إذا كان قد وقع فقل: أعلن أمسِ، ولا تقل يعلن أمس، لئلا يناقض زمنُ الفعل المضارع (يعلن) زمنَ الظرف الماضي (أَمسِ). والرابع قولك عن رغبته دعوة الصحفيين.
- **المذيع:** أبقي رابع وخامس؟ قلت ما يقوله الناس.
- **المشاهد:** لو أنصفت لقلت: غلطت كما يغلطون، وما أصبت إلا في قولك: أبقي رابع وخامس؟ لأن لحنك هاهنا مضاعف، إذْ أثبتَّ حرفاً حقُّه الحذف، وحذفت حرفاً حقُّه الذكر. عليك أن تقول: أعلن رغبته في دعوة.
- **المذيع:** أَمْضُغ ما يوضع في فمي، فلا تأخذني بجريرة غيري.
- **المشاهد:** إما أن تكون هفواتك عن ابتداع، وإما أن تكون عن اتّباع. فإن ابتدعت فعليك وِزْر البدعة إلى يوم القيامة، وإن اتّبعت فعليك إثم الغَفْلة عن الزلة، والعربيّةُ لا تعفو عن وزر وازرٍ مبتدع، ولا عن غفلة غافلٍ متبّع.

د. غازي مختار طليمات
الشارقة

موطني

موطني... يا... هبةَ الله الجميلةْ
نسمةٌ تبدو عليلةْ
موطني...
من هواك المنعشِ المنسابِ يأتيني النشاط حين أتعبْ
حين يغدو خافقي المسكين نهباً للصعابْ
حين تجري من عيوني دمعةٌ حرى بها كلُّ المصابْ
كم أزال الهمَّ عصفورٌ يغني!!
منشداً عند المساءْ
مرسلاً حلو الدواءْ
لفؤادي واهباً ذاك الصفاءْ
من سواك... بعد ربي
علّمَ العصفور لحناً... من سواكْ؟
من سواكْ؟؟ أسعد العصفور حتى أرسل اللحن الشجيَ من سواك؟؟ من سواك؟
حضن العصفور في عشٍّ هنيٍّ
من سواك؟
بعد هذا... لست أرضى...
أيَّ باغٍ... أيَّ غاز
أن يزيل الصفو عن أرض الوطنْ
سوف أبقى في المحنْ
درع أرضي
ولأرضي كلُّ حبي

ياسين عبدالرحمن مرزا
الأحساء

قافلة القرّاء

محب الشعر

أود أن أعبر لكم عن إعجابي الكبير بهذه المجلة وشعوري بالسعادة وأنا أقلب صفحاتها الغنية في جوانبها الأدبية والعلمية، غير أني أكثر التصاقاً بالشعر من غيره. ولطالما حاولت كتابة الشعر ولكم من دون جدوى.

لقد وجدت على صفحات القافلة ثلّة رائعة من الشعراء أعجبت بهم. ولكني شديد الإعجاب بالشاعر أبي العتاهية، وقد اخترت واحدة من قصائده يسرني أن أهديكم إياها.

عبدالله جواد علي المهنا
البحرين

القافلة: نشكرك على عاطفتك وعلى الهدية الجميلة، ويؤسفنا أن لا نتمكن من نشرها لضيق المجال.

المشتركون الجدد

الأخوة: فتحي محمد صادق علي، الدمام - أحمد عبدالله الفضالة، الرياض - ابتسام فريد، بغداد - مكتبة الدعوة الإسلامية، سري لانكا - الجامعة السلفية، بنارس، الهند - محمد بن حمد العامري، سلطنة عُمان - عبدالله يحيى اليحيى، الرياض - مصطفى عبدالهادي المهنا، الأحساء - هاشم جعفر الياسين، الأحساء - إبراهيم حافظ غريب، مكة المكرمة - راشد بن سعد المبدل، محافظة ضرماء - عروي إلياس عبدالحميد، الجزائر - عبدالله محمد النفيذ، الدمام - حسين الشيخ، القطيف - حمود عواض العصيمي، الطائف - مهدي بن حسن أخميري، الدمام - عبدالمحسن الحجيلي، المدينة المنورة - إبراهيم عبدالله الدلقان، الرياض - حسين بن علي لاجامي، سيهات - محمد سالمين بن مخاشن، الدمام - خالد النواد، الظهران - خليفة با يزيد، الجزائر - أحمد بن عبدالمحسن العسّاف، الرياض - مدرسة الفاروق المتوسطة في الجبيل - ياسر الزهراني، الرياض - مأمون سليمان العوضي، الجبيل الصناعية - محمد سليمان النصّار، الرياض - فاضل حسين القصيب، الهفوف - مدرسة الأوجام الثانوية، صفوى - أحمد جمعان علي السليمان، بلجرشي - منصور بن ناصر الرشيد، الرياض - محمد بن عبدالله الشبل، القصيم - أحمد محمد الهاشم، الخبر - يوسف بن علي الحمدان، الأحساء - محمد بن سعد المزن، الثقبة - عيسى علي آل أحمد، أبها - عماد دعيج الدوسري وزهير محمد عبدالله المرهون وعبدالعزيز طاهر، جامعة الملك فهد للبترول والمعادن - محمد رشيد الجويعدة وصالح بن عمر آل نزهان، بلدية محافظة الأفلاج - عبدالله بن حسين العبدالعزيز، الظهران - عادل عبدالرزاق البريكان، الجوف - فوّاز حماد النمري وثامر عبدالعزيز جمبي، الطائف - عبدالرحمن بن عبدالعزيز المسلم، مرات - علي عبدالله شمح، مكة المكرمة.

القافلة: وصلتنا رسائلكم، وأحلنا عناوينكم إلى قسم الاشتراكات، وستصلكم القافلة بانتظام إن شاء الله.

نعمل لغدنا

الحقائق أمام المحقق!

تُبنى القرارات على حقائق. ولكي تكون القرارات صحيحة لا بد من أن تكون موثوقة. والقرار الذي يُتخذ من دون التأكد من الحقائق التي بني على أساسها، كفيل بأن يقضّ مضجع المسؤول عنه مهما كانت مرتبته. فكم من قرار بني على معلومات غير مؤكدة أو ناقصة أودى بأصحابه إلى مهاو بعضها سحيق.

ومن المعروف أن صياغة الحقائق وأسلوب تقديمها يستطيع أن يكون مقنعاً من دون أن يكون قد بني بناءً سليماً. فللأرقام والإحصاءات والاستقصاءات قدرة لا يستهان بها على الخداع عن قصد أو من دون قصد.

وما يتم وضعه على طاولة الاجتماع على أنه حقائق مؤكدة يمر قبل وصوله إلى هذه الطاولة بمراحل عديدة، وقد تدخله خلال ذلك مغالطات في غفلة حتى من الذين جمعوا الحقائق أو أعدوها. فكل حقيقة مهما بدت مؤكدة يجب أن تراجع وتفنَد وتختبر. فنادراً ما توضع حقيقة أو معلومة أمام الامتحان فتجتازه بجداره وتبقى كما هي.

وقد علمتنا التجارب أن أهم ما يقوم به المدير في عمله هو وضع الحقائق المقدمة له في قفص الاتهام حتى تثبت براءتها.

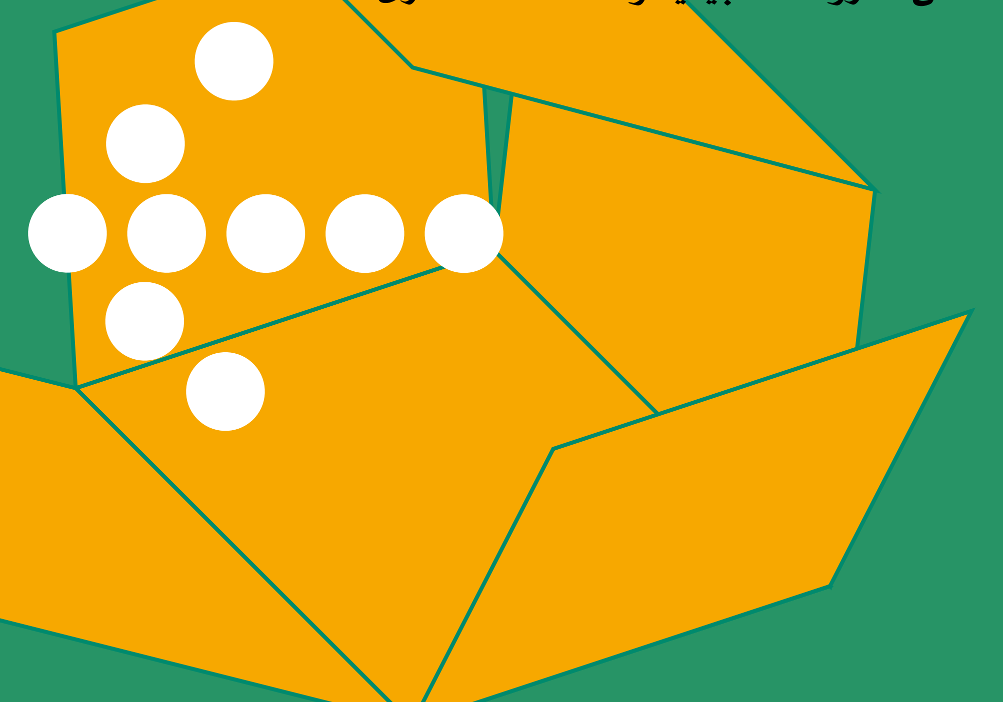
هل هذه حقيقة مؤكدة؟ إذن خذها واختبرها من جديد.
هزها جيداً لكي تتأكد أنها خالية من الشوائب.
القرار يعود لصاحب القرار..إذا أراد أن ينام قرير العين.

موجة ابتكار في أرامكو السعودية..

الفكرة نصف الابتكار.. والابتكار نصف.. كل شيء

رغم إقرار الجميع بأهمية الابتكار في تطوير وسائل العمل وأدواته وحتى في تطوير الحياة ككل، هناك شيء من الضبابية لا يزال يكتنف هذا المفهوم عند الكثيرين. وغالباً ما نربطه في أذهاننا بجوانب محددة منه دون أخرى، وكثيراً ما نتعاطى معه وكأنه شأن يخص مجموعة من المتفوقين، هم وحدهم المستفيدون منه.

فريق القافلة يعرض لنا هنا صورة شاملة عمّا آل إليه مفهوم الابتكار في العصر الحديث. ويكشف حجم التحولات الهائلة التي طرأت عليه، بحيث أصبح قوة دفع اقتصادية للأفراد والشركات والأوطان ككل، وصناعة بحد ذاتها لا تقل شأناً عن الثروات الطبيعية والصناعات الأخرى.



أنا أبتكر إذن أنا موجود..

طبعت الابتكارات عصرنا الحاضر، وتعززت مكانتها بوصفها من أهم مصادر الثروة، ويعتبر البعض الابتكار مصدرها المضمون الوحيد. وقد أخذت الشركات الحيّة تبذل جهوداً كبيرة لتشجيع الأفكار الجديدة والجريئة، وتؤمِّن المناخ الملائم الذي يضمن لها أسباب النجاح، حتى أصبح الأمر شرطاً لا غنى عنه في الصمود أمام المنافسة.

وقد أصبح للابتكار بند رئيسي في ميزانيات الشركات، ورصدت للجهود الابتكارية المخصصات اللازمة التي تتوزع بين نشر "ثقافة الابتكار" داخل الشركة وتأمين المستلزمات الضرورية التي تسمح للمبتكرين بتحقيق أحلامهم. وعلى عكس ما كان عليه الحال في الماضي، عندما كان المبتكر يبحث جاهداً عن جهة تموّل أبحاثه وتوفر له الإمكانات التي يحتاجها، أصبحت الإمكانات في يومنا هذا هي الساعية وراء الابتكار أكثر مما هو ساعٍ وراءها. فقد مضى الزمن الذي ترفض فيه شركة تمويل ابتكار لمجرد بعض النواقص فيه. وكم سمعنا من نوادر قديمة في هذا السياق رفضت فيها شركة ما تمويل مبتكر، وندمت لاحقاً على ذلك مُرّ الندم. ومنها على سبيل المثال - والأمثلة كثيرة - ما ورد في مذكرة لشركة "وسترن يونيون" تعليقاً على مشروع تمويل جهاز الهاتف، وجاء فيها: "هذا الهاتف مليء بالنواقص كوسيلة اتصال. إنه جهاز لا قيمة له عندنا..".

لقد أعطت التحولات التي شهدها عصرنا أصحاب الأفكار قوة ومكانة لم تكن لهم من قبل. فليس في دنيا الابتكار صغير، فرداً كان أم شركة. وللشركات الصغيرة التي تنجح في تحقيق أفكار ابتكارية مكانة تحسدها عليها الشركات الكبيرة أحياناً. فهي تستطيع أن تختار بين التحوّل إلى شركة كبرى بسرعة مذهلة كما حصل فعلاً في حالات عديدة معروفة، وبين بيع أفكارها ومبتكراتها للشركات الكبرى والعيش في رغد المداخيل المريحة ضمن حجمها الصغير.

الابتكار ووسائله

طغت الابتكارات الإلكترونية على الحياة الاقتصادية في العقدين الأخيرين، وتسارعت وتيرة ظهور الجديد فيها بشكل مذهل، وأهم أسباب ذلك أنها هي نفسها تحولت إلى أكثر أدوات إنجاز الابتكار فاعلية... الابتكار في جميع المجالات الأخرى.

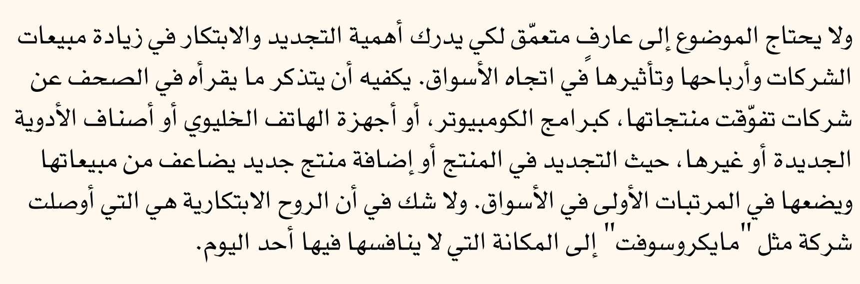
فالكومبيوتر ابتكار للعصر ولكل ابتكار فيه، وذلك لما يوفره من مساعدة على البحث، وفي تسريع العمليات المطلوبة للوصول إلى النتائج. وغدت السرعة في إنجاز الابتكار الشغل الشاغل للشركات المتفوقة في العالم، لما لذلك من دور في السباق التنافسي. حتى قيل إنه في هذه الأيام لم يعد الكبير يطغى على الصغير، بل السريع على البطيء!

الابتكار أو الاندثار

في مجتمع اقتصادي تشتد فيه المنافسة على الأسواق، لم تعد الشركة، أية شركة، تستطيع أن تبقى وتستمر من دون تطوير منتجاتها وخدماتها، بل وأنماط إدارتها لأعمالها في أي مجال من المجالات. وكلما وجدت شركة من الشركات نفسها في وضع تراجعي يصبح الابتكار ملاذها الوحيد: الابتكار أو الاندثار.



قد يكون الابتكار منتجاً جديداً، أو تطويراً في صُلب المنتج، وقد يأتي التجديد في مظهر المُنتَج الخارجي فقط، لا يضيف عليه سوى جاذبية الشكل. ومن الأمثلة المعروفة على هذا ما قامت به شركة "أبل" حين وجدت مبيعاتها تتراجع، وحصتها في السوق تضمر، فجاء إنقاذها عن طريق ثورة قادها رئيس جديد للشركة، وطالت تصميم الجهاز، فغيّره من جهاز رمادي رتيب إلى جهاز عصري جذّاب المظهر لافت في شكله وألوانه. فصنع بذلك التحول الذي أنقذ "أبل" من مصير محتوم. والحقيقة أن جمال المُنتَج لم يعد يؤخذ بالخفة نفسها التي كانت تميّز النظرة إليه من قبل. ذلك أن التجديد أصبح شبه حاجة يتطلبها الإنسان، وسبباً لشحذ الرغبة في الاستخدام، أو الحماسة للاستخدام، وقيمة مضافة إلى المنتجات، بما في ذلك أكثرها تخصصاً وتقنية.



ولا يحتاج الموضوع إلى عارف متعمّق لكي يدرك أهمية التجديد والابتكار في زيادة مبيعات الشركات وأرباحها وتأثيرها في اتجاه الأسواق. يكفيه أن يتذكر ما يقرأه في الصحف عن شركات تفوّقت منتجاتها، كبرامج الكومبيوتر، أو أجهزة الهاتف الخليوي أو أصناف الأدوية الجديدة أو غيرها، حيث التجديد في المنتج أو إضافة منتج جديد يضاعف من مبيعاتها ويضعها في المرتبات الأولى في الأسواق. ولا شك في أن الروح الابتكارية هي التي أوصلت شركة مثل "مايكروسوفت" إلى المكانة التي لا ينافسها فيها أحد اليوم.

يقول مؤسسها "بيل غيتس"، الذي غدا رمزاً لنجاح الأفكار الجريئة، "لم يقدم الابتكار في أي وقت مضى من تاريخ الإنسانية هذا القدْر لهذا العدد من الناس، وفي هذا الوقت القصير".

وتساهم الابتكارات الجديدة، في الوقت الذي تُضاعف فيه أرباح الشركات، في إعطاء الاقتصاد الوطني نفسه شحنات جديدة من الحيوية والقدرة من خلال تعزيز الشركات الوطنية وقدراتها على التنافس مع شركات من بلدان أخرى. وقد جاء في دراسة لمجلة "الإيكونومست" أن الابتكار يقف وراء نصف حجم النمو في الدخل القومي في الولايات المتحدة وبريطانيا. كما تبيّن هذه الدراسة نفسها أن الشركات التي تنجح في تحقيق ابتكار تجني ضعفي أرباح الشركات الأخرى، وتتمتع دائماً بمؤشر نمو عالٍ. والمتفوقة منها تحقق أربعة أضعاف المردود للمساهمين. باختصار، لقد غدا الابتكار الفَرس الذي يضع أي شركة في الطليعة، ويقول هارولد ماك ألندون في هذا السياق: "قادة العالم في الابتكار والإبداع هم قادة العالم في كل شيء آخر".

هل أنت خِلوٌ من الأفكار؟

فكرة واحدة.. بداية طيبة ودليل حياة!

الابتكار يولّد الابتكار

والابتكار يعطي ثماراً!

الحاجة أُمّ ... الاثنين

غالباً ما يطلق الابتكار - بمعناه المحدد - على تطوير في المنتج، أو تجديد في أسلوب الخدمة أو إنجاز الأعمال. وبذلك يتميّز عن الاختراع الذي يكون ثمرة جهد طويل ويكون اكتشافاً محدداً بالمعنى الكامل للكلمة. ولكن الابتكار، مثل الاختراع، ينتج عن حاجة في أغلب الأحيان. ولذا تبقى الحاجة هي نفسها أمّ الاختراع والابتكار معاً. والصورة الأدق في وصف الابتكار تقول إنه غالباً ما يخطر على البال خلال السعي إلى التغلب على صعوبة ما في خضم العمل. والمبتكر قد يكون أي إنسان تخطر له فكرة ما تجعل أداءه أكثر فاعلية، أو سرعة، أو سهولة، أو أقل تكلفة، فيبحث عن تفصيل يطوّره ليحقق هذا الهدف الذي لا يتجاوز مجرد تحسين في المُنتَج. ولكن قد يكون لهذا التحسين فوائد كبيرة في الاستخدام. فليست الأفكار الابتكارية كلها من النوع الذي يحصل على براءة اختراع أو ما شابه ذلك. قد تكون أحياناً فكرة عابرة نجحت في تحقيق شيء بسيط بشكل أفضل، لن يتذكرها أحد ولا حتى صاحبها. لكن هناك أيضاً ابتكارات تقف جنباً إلى جنب مع أعظم الاختراعات مكانة وقيمة وفائدة.

والاثنان على أي حال: المبتكر مهما صغر حجم ابتكاره، والمخترع مهما عظمت مكانة اختراعه، يتمتعان بالروح الابتكارية نفسها... روح التجديد والبحث والإصرار على إنجاز الفكرة مهما كلف الأمر.

والشركة التي تنتشر فيها الروح الابتكارية قد تشهد خلال يوم واحد آلاف الأفكار "المبتكرة" الصغيرة، وذلك من دون أن تسجل براءة اختراع أو شهادة ابتكار واحدة لأي من منتسبيها. فالتجديد والتحسين في أساليب العمل يبدأ بأبسط التفاصيل وصولاً إلى أكبر الأهداف. إنه مناخ كامل لا تجزئة فيه. ونشر الروح التجديدية الابتكارية هو الهدف العام من نشر "ثقافة الابتكار" في الشركة... إنه ليس إدخال الابتكار في هيكل الشركة بل إدخال الشركة في هيكل الابتكار..!

روح عصرية ... وشبابية

النزوع إلى الابتكار والتجديد لازم جميع الحضارات الحية، وكان عاملاً رئيساً من عوامل نهضتها وعمرانها. إلا أن هذا المدّ الابتكاري، الذي نراه اليوم، له خصوصية معينة تكمن في أنه يعود في بعض مقوماته إلى التيارات الشبابية التي اجتاحت العالم خلال العقود الثلاثة الأخيرة.


المحترف السعودي

فقد شهدت الستينيات والسبعينيات تمردات شبابية أرادت أن تغيّر كل شيء. ولا غرابة في أن نجد بدايات الموجة الابتكارية في حركات الشباب التغييرية هذه. وكانت أولى مظاهر هذا التغيير في الملبس والفنون، ولكن جوهره كان في تلك الدعوات إلى الخروج عن التقليد، والتحرر من سطوة الأفكار السائدة. ورغم أن أبعد آثارها المباشرة كانت في الثقافة والقيم الاجتماعية إلا أن تداعياتها وصلت إلى دنيا العلوم على أشكالها. وفي عالم الكومبيوتر بالذات وامتداداته اللاحقة في الإنترنت وألعاب الفيديو وغيرها، يمكننا أن نجد أسماء مبتكرين حققوا إنجازاتهم وهم في سن مبكرة جداً معتمدين على وسائل وأدوات صنعوها بأقل قدر ممكن من الإمكانات. ومع انتشار الكومبيوتر الشخصي الذي يسهل امتلاكه، تعزز الدور الشبابي في مجال الابتكار وأصبح لدى الشبّان وسيلة ابتكارية يستخدمونها بمهارة أعطتهم هامش تفوّق كبير على "أصحاب الخبرة".

وأصبح مشهد الأب الذي يقف إلى جانب ابنه يراقبه يتعامل مع الكومبيوتر بهذه المهارة والكفاءة والتحكم، ويصنع من خلاله أشياء لا تعد ولا تحصى، منظراً اجتماعياً مألوفاً، حزيناً ومفرحاً في آن معاً. لقد امتلك الشبّان المبادرة، وطبعوا الابتكارات الحديثة بطابعهم وجعلوها تتجاوب مع رغباتهم وأذواقهم وحاجاتهم الحياتية التي اختلفت عن أنماط المجتمع التقليدي المتوارث. وقد جارى العصر المبتكرين الشبّان وقبل راضخاً بحقهم في الاختلاف، وفتحت لهم أبواب التقدم ونصبت لهم الشركات أقواس المجد!

الجنون ... ابتكار

إذا استعرضنا مصطلحات النهج الابتكاري الرائج اليوم فإننا نتلمس أوجه التشابه بينها وبين الدعوات التي كانت تطرحها الحركات الشبابية بدءاً بتجربة أية فكرة قد تخطر على البال على أساس مبدأ "لمَ لا؟"، والتفكير خارج الصندوق كما يقال، والتأكيد على أن "أياً كان" يستطيع أن يبتكر. وفي كل هذه التعابير نستطيع أن نتلمّس أسلوب الشباب في الطرح الجريء الذي لا يرضخ ولا يبالي بشيء إلا تحقيق أحلام لا تحدها حدود.

ولا شك في أن هذه الموجة الابتكارية الشبابية كانت على أشدها في الجامعات، وظهرت أولى ثمارها في الجامعات الأوروبية والأمريكية. وراجت في تلك الفترة صورة الشاب الفذ في أفكاره، بثيابه الرثّة وشعره الطويل ونظاراته السميكة، يقوم بأبحاث وتجارب مجنونة!

و"الفكرة المجنونة" هي من التعابير المعروفة في قاموس الابتكار، ألم يقل أينشتاين يوماً "إذا لم تبدُ الفكرة مستهجنة للوهلة الأولى، لن يكون لها أي أمل في النجاح". وكم من فكرة بدت كذلك في البدء ثم تحولت إلى ابتكار هائل؟ وأصبح التقاط هؤلاء الشباب من الجامعات من أهم ما يشغل الشركات الرائدة، فتبحث عنهم لتضمهم إلى صفوفها وتفتح لهم أبواب الابتكار واسعة.

المحترف السعودي

أرامكو السعودية الابتكارية

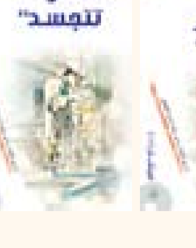
قيل إن أرامكو السعودية ليست أكبر شركات المملكة فقط بل إحدى أكبر جامعاتها أيضاً. فعشرات الآلاف من الموظفين الذين عملوا في الشركة اختبروا وعاشوا طبيعتها "الجامعية" هذه. ومن جوانب هذا الطابع التثقيفي دورات التدريب الكثيرة في مجالات تبدأ بالتنقيب والإنتاج مروراً باللغة والإدارة انتهاءً بالصحة والسلامة وغيرهما. لكنها في الحقيقة تصل إلى أبعد من ذلك، إلى محيط العمل نفسه وعلى جميع المستويات.

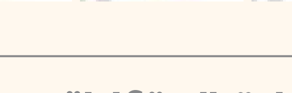
ويجمع الذين عملوا في أرامكو السعودية على أنهم حين غادروا الشركة إنما غادروا وظيفةً ومعهداً في آن واحد.

راجت روح الابتكار في صفوف موظفي الشركة منذ أيامها الأولى. وكانت الابتكارات الصغيرة والكبيرة تساعدهم في التغلب على الصعاب الكثيرة التي كانت تعترضهم خلال العمليات المبكرة في التنقيب واستخراج النفط وتوزيعه في ظروف مناخية قاسية. غير أن الابتكارات التي سجلت كانت في نهاية المطاف ابتكارات ظرفية ولا تشكل أمراً محورياً بالنسبة لشركة يعتبر إنتاجها "تحصيل حاصل"، كما يقال. نفط يستخرج ويباع.. والسلام.







أرامكو السعودية

ومنذ سنوات التفتت إدارة الشركة إلى أهمية "الابتكار" بمفهومه المعاصر الشامل كشرط أساس لرفع مستوى إنتاجية الشركة وأدائها ودخلها. وقد تم الإعداد لحملة الابتكار الأخيرة إعداداً كاملاً قبل إطلاقها من قبل رئيس الشركة في مطلع عام 2002م. وكان الهدف منها أن تطال كل موظف من موظفي أرامكو السعودية، في مختلف القطاعات وعلى المستويات كافة . وتركزت أهم الاستعدادات في إنشاء "مركز إدارة الأفكار" على الإنترنت، ولجان لمراجعة الأفكار التي يقدمها موظفو الشركة وتقييمها، والمساعدة على تحقيق الجدير منها على أرض الواقع.

واشتملت الحملة على ملصقات ومنشورات وزعت في أرجاء الشركة كافة. وحتى نهاية عام 2003م قدم موظفو أرامكو السعودية نحو ألف فكرة مبتكرة لنظام إدارة الأفكار الإلكتروني التابع للشركة، وهو نظام يسمح لأصحاب الأفكار المبتكرة بمتابعة أفكارهم التي تخضع للتقييم المنهجي. وقد تم تقديم مايزيد على 60 طلبا إلى مكاتب الاختراع الدولية للحصول على براءات الاختراع. وحتى اليوم حصلت الشركة على 29 براءة اختراع مسجلة في العديد من دول العالم، وخلال العام الجاري فقط ؛ سُجلت لأرامكو السعودية أربعة اختراعات، من بينها براءة اختراع في تقنية إدارة أنظمة التصنيع. إذ تمكن كل من المهندسين يوسف مهرا وعلي حسن العبد العال الموظفين في إدارة أنظمة التصنيع والتحكّم من ابتكار تقنية جديدة لتنقية الهيدروجين المستخدم في معامل التكسير والمعالجة الهيدروجينية. وقد نجح هذا الابتكار في حل مشكلة مزمنة تحد من قدرة معامل التكسير والمعالجة الهدروجينية على رفع طاقتها الإنتاجية، وتحسين مواصفات المنتجات البترولية، مما يعد قفزة نوعية في مجال تطوير وتشغيل المصافي البترولية وزيادة أرباحها.

حماية الابتكارات

في رأي الدكتور محمد الأنصاري، رئيس فريق حماية الملكية الفكرية بأرامكو السعودية، فإن من أخطر المشاكل التي تهدد الابتكار في بلادنا العربية هي عدم معرفة الأساسيات في حمايته. فهناك الكثير من الأساسيات الواجب الانتباه لها، ومنها:

- البحث والتأكد من عدم وجود الفكرة نفسها عالمياً.
- تقويم الفكرة الإبداعية والتأكد من وجود قيمة تسويقية لها.
- عدم نشر الفكرة بأي حال من الأحوال قبل حمايتها.
- التأكد من عدم إضافة أسماء مخترعين لم يشاركوا في تنفيذ الفكرة.
- استخدام أبسط أنواع الحماية عند الحاجة الماسة لنشرها.
- التسجيل محلياً ثم عالمياً حسب الحاجة للحماية.
- توقيع عقد "ضمان الحقوق - اتفاقية" عند شرح الفكرة لأي جهة.
- اتخاذ الإجراءات اللازمة عند التأكد من سرقة الفكرة.

وسبقت ذلك لائحة طويلة من الابتكارات التي حصل بعضها على براءة اختراع في السنوات السابقة، وبعضها الآخر اقتصر على كونه فكرة مبتكرة تعني نشاط الشركة الداخلي. وأهم ما تعكسه كل هذه الابتكارات هو نجاح الشركة بنقل مناخ العمل فيها إلى مناخ "ابتكاري" إذا جاز التعبير. ويتصف هذا المناخ بالحيوية وبتوفير فسحة للتفكير الجريء ووجود حوافز شخصية مشجعة بالإضافة إلى الوسائل والأجهزة الحديثة التي تساعد المبتكر على إنجاز ابتكاره.

وبكلمات رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين، الأستاذ عبدالله جمعة: "فإن الابتكار في أرامكو السعودية هو ثمرة عقول مبدعة، وهو عملية لا تحدها المواعيد، ولا الرتب ولا الأنظمة. الابتكار شغف ذاتي حيوي لا يتوقف لدى موظفين يبحثون عن سبل أفضل لتأدية عملهم. الابتكار ببساطة هو إلهام فردي يبحث عن فرصة لتحقيقه. والقدرة على الابتكار موجودة في كل واحد منا". ومن يراقب هذه الموجة "الابتكارية" داخل الشركة يلفت انتباهه الانخراط الواسع للشباب السعودي فيها. إن الشاب السعودي الذي يلتحق بأرامكو يشعر بتحدٍّ قد لا يشعر بمثله لو التحق بأية شركة أخرى. "أنا في أرامكو السعودية" يقول لنفسه، ويتيقن منذ ساعات عمله الأولى من أن عليه الارتقاء بكفاءته وأدائه لمجاراة رفاقه العاملين في الشركة العملاقة. وهذه الانطلاقة نفسها تضعه على الطريق ذاتها تقريباً التي تتطلبها طريق الابتكار. الحماسة في العمل، والاستعداد للتغلّب على المصاعب، والتفكير في الحلول، والتداول بشأنها مع رؤسائه، وتقديم المقترحات التي تثبت جدارته الوظيفية...

وفي هذا المناخ، فهو لا يحتاج إلى أكثر من إيجاد فكرة ابتكارية ليصبح مبتكرا بالفعل، خاصة أن هذا الشباب يمتلك أسوة بجميع شباب العالم، علوم الكومبيوتر وفنونه. ومن يراجع لوائح المبتكرين يجد أن نسبة عالية منهم هم من الشبّان السعوديين. ومما يعزز هذا المنحى، من دون شك، هو هذا التحدي العام المطروح اليوم أمام الشباب ليثبتوا كفاءتهم وجدارتهم في مجال العمل. ويكفي أن ترى مجموعة من هؤلاء يعملون في أحد مصانع الغاز الجديدة مثلاً، كي تظهر أمامك هذه الصورة كاملة.



المحترف السعودي

ابتكر ... وأنت حر!

رحلة الابتكار رحلة شاقة لا تخلو من سجال. وفيها كر وفرّ. تبدأ بمواجهة المعضلة أو تمييز الحاجة، ثم تعريفها بشكل محدد، ومن ثم تخطر فكرة حل أو علاج أو بديل.. ثم يتم عزل المعضلة والتأمل فيها من جديد والدرس والبحث والمراجعة، ثم الاقتراب من الحل ثم الفشل والإحباط واليأس ثم العودة للمحاولة مرّة تلو الأخرى إلى أن.. تظهر أولى بوادر الأمل، ثم يكون الاختراق الفاصل الذي يحقق الوثبة الكبيرة والنتيجة المأمولة. ويكون الابتكار قد تحقق ولو بقيت فيه بعض الشوائب.. فتكون هناك خطوات أخيرة تشمل التهذيب والتشذيب إلى أن يصل الابتكار إلى شكله النهائي القابل للعرض على الملأ.

ولا تخلو هذه الرحلة من معارك جانبية: صبر المديرين وتعاون الزملاء وتوفر الأدوات والمعدات والمخصصات الإضافية ثم المراوحة التي لا تتوقف بين اليأس والأمل... ولا ينتهي المبتكر من ابتكاره إلا ويشعر كما يشعر الفارس الذي خاض معركة وخرج منها مظفراً مرفوع الجبين. فليس المبتكر إنساناً

حالماً فحسب، فالحالم إنسان تخطر له الأفكار، أمّا المبتكر فيصنعها. المبتكر يحلم، ثم يتأمّل، ثم يقاوم الشكوك، ثم يجرب ثم يطور إلى أن يصل إلى غايته. لقد قال مرة توماس أديسون: "إن من يأتِ بفكرة ويبدأ بتجربتها وتطويرها يصل إلى مكان يرى فيه أنها مستحيلة التحقيق فيشعر باليأس. ولكن هذه هي بالذات المحطة التي لا يجوز فيها للمبتكر أن ييأس". فالقدرة على الصبر والمواظبة وتحدّي اليأس من صفات المبتكر، وهي الصفات ذاتها التي تعطيه الحق بدور أكبر في عمله وفي المجتمع بشكل عام.

والابتكار مُعْدٍ. إنه كأي شكل آخر من أشكال النجاح إذا انتقل إلى مكان، أثار في الجميع الرغبة في رفع التحدي نفسه. والموظّف المبتكر يحصل في النهاية على ما لا يحصل عليه غيره من المكافآت. وقد كتبت "القافلة" عند بداية حملة الابتكار: "من جدّ جدّد... ومن جدّد وجد!" لكن ما يناله في النهاية يفوق المكافآت: إنّه ينال درجة رفيعة من الثقة تعطيه حرية استثنائية في مجال عمله. إنجازه يضعه في مصاف قيادية ليس بسبب مردود الابتكار المالي وحسب، بل بسبب الصفات الشخصية التي أثبت المبتكر امتلاكه لها.

من خارج الصندوق إلى خارج الأسوار

لا تبقى فوائد الابتكار محصورة في الدائرة الصغيرة التي شهدت ولادته. إذ لا بدّ له من أن ينتشر لتصل إشعاعاته إلى ما هو أبعد من دائرته الأولى. ومن يصدّر الروح الابتكارية لا ينفع محيطه فقط، بل إن هذه المنفعة سوف تعود إليه أيضاً. ففي عودتها إذكاء للروح الابتكارية لديه..

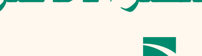
ولا شك أن نشر هذه الروح في الغرب من خلال النجاحات الابتكارية ومن خلال مئات المقالات والكتب التي كتبت حول الابتكار، كان له أعظم مردود على إبقاء جذوة الابتكار على أشدها وتغذيتها باستمرار. وإدارة أرامكو السعودية التي كانت دائماً تسعى إلى التأثير في محيطها، كان في ذهنها نشر قيم الابتكار في هذا المحيط بشتى الوسائل، وأهمها من خلال ما يحمله عشرات الآلاف من موظفي الشركة إلى بيوتهم وإلى أولادهم من أفكار وقيم ودعوات للتفكير "خارج الصندوق".. أحد شعارات الحملة الابتكارية البارزة. ولا شك في أن ما يروّج من أخبار حول ابتكارات مهمة حققها موظفو الشركة يحث الشباب على التطلع إلى أدوار ومسارات مستقبلية أفضل. وغداً، حين تتضاعف الابتكارات الناجحة لا بد أن تتحول إلى سجل مشرّف يطلع عليه أبناء الشركة وذووهم، وتصبح هذه المنجزات الابتكارية مثالاً يحتذى في أرجاء البلاد كافة.

المحترف السعودي

إن الابتكار يؤدي إلى التغيير، والتغيير يعود فيصنع ابتكارات جديدة تحدث بدورها تغييراً جديداً. هذه هي الدورة التي يعيشها المجتمع البشري اليوم. ومن يبقَ خارج الدورة يخسر الموقع تلو الموقع سواء أكان فرداً أم شركة. هذا هو التحوّل الذي أحدثته العقود الأخيرة من العصر الحديث، ولقد تبين من خلال هذا التحول أن القدرة على الإبداع أثمن ما يمتلكه الانسان. وكان لهذا التحوّل نتائج اقتصادية كبيرة، لكنه في نهاية المطاف سمة لحضارة جديدة.

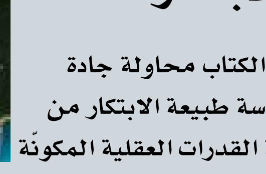
فنحن بحاجة إلى أن نبحث في أنفسنا اليوم عن حلم جديد. حلم يَنْفُذُ عبر العصر الحاضر، لتحقيق ابتكارات تعيدنا إلى درب المستقبل.

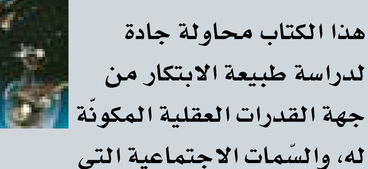




اقرأ للابتكار

الأسس النفسية للابتكار





هذا الكتاب محاولة جادة لدراسة طبيعة الابتكار من جهة القدرات العقلية المكونّة له، والسّمات الاجتماعية التي يتميز بها الشخص المبتكر، والدوافع المختلفة الكامنة خلف الناتج الابتكاري. ويساعد هذا الكتاب الذي وضعه الدكتور ممدوح عبدالمنعم الكناني الآباء والمعلمين على فهم العملية الابتكارية والحالات النفسية أو الاجتماعية التي تميّز المبتكر، وقد تكون في بعض الأحيان مضطربة ومشتتة، بحيث يصعب على البعض التعامل معها.

ويشير المؤلف إلى التمايز بين الذكاء والابتكار والتحصيل العلمي، ويعرض لدراسة تناولت سمات الأذكياء والمبدعين مقارنة بسمات العاديين، والمقاييس التي يجب العناية بها عند استكشاف المبدع في المراحل العمرية الأولى التي تستقطب أنظار العلماء ومكتشفي الموهوبين.

ويتضمن الكتاب الذي يقع في 143 صفحة ستة فصول، خصص المؤلف منها فصلاً للتوسع في دراسة المناخ الابتكاري في الأسرة، ومن عناوينه الفرعية: الممارسات والاتجاهات الوالدية التي تشجع الابتكارية لدى الأبناء، والمستوى الثقافي والاقتصادي وعلاقته بابتكارية الأبناء. كما يتوسع الكتاب في دراسة المناخ الابتكاري داخل الفصل المدرسي، ويتطرق إلى جميع جوانبه والمؤثرات فيه مثل المناخ الابتكاري والمناخ التسلطي، ومرونة شخصية المدرس ومنح الأمان للتلاميذ المبدعين.

مستقبل الابتكارات

يقول الدكتور فرج موسى رئيس الاتحاد الدولي لجمعيات المخترعين (أفيا): إن براءة الاختراع لا تحمي المنتج العلمي إلا في البلد الذي أصدر البراءة" و هذا يعني أن تسويق الابتكارات يبقى مشكلة فردية، على المنظمات الدولية أن ترعاها وتدعم المخترعين مادياً و معنوياً.

وساعد قيام الاتحادات والمنظمات العالمية ونشاطاتها وتبنيها للمعارض العلمية على ظهور جيل مختلف يسعى إلى التطوير التكنولوجي.

وتعددت المنظمات الفاعلة التي ترعى الابتكارات والمبتكرين مثل الاتحاد الدولي لبراءات الاختراع (أفيا) والمنظمة العالمية للملكية الفكرية (الويبو) التي أنشأت عام 1970م، كما قام المجمع العربي للملكية الفكرية عام 1987م الذي شاركت المملكة العربية السعودية في مجلس إدارته التأسيسي مع عشر دول أخرى، وكلها تساهم مباشرة في تنمية المجال العلمي وزيادة عدد الاختراعات وتسهيل منح الرخص العلمية. كما انضمت السعودية إلى اتفاقية باريس لحماية الملكية الصناعية واتفاقية بيرن لحماية المصنفات الأدبية والفنية.

وللمملكة جهود واثقة في تشجيع الاختراعات وحماية حقوق الملكية الفكرية وتوطيد العلاقة بين الموهوبين ومؤسسات الدولة التي تعنى بالرعاية وتنظيم البرامج الإثرائية. تؤكد ذلك أنشطة مؤسسة الملك عبدالعزيز ورجاله لرعاية الموهوبين في نشاطها الأخير المتمثل في اللقاء الثالث للمخترعين السعوديين المنعقد في 3/21/1425هـ، وهناك نشرة براءات الاختراع التي تصدرها مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية بإشراف الإدارة العامة لبراءات الاختراع. وأول نظام لبراءات الاختراع بالمملكة صدر عام 1409هـ، كما صدر أول نظام لحماية حقوق المؤلف عام 1410هـ، وجرى تعديله عام 1424هـ، وصدر أول نظام للعلامات التجارية عام 1358هـ. وهناك العديد من المشاريع التخطيطية التي تُدرس للنهوض بالاختراعات وإحداث حركة علمية من شأنها الرقي بالمستوى العلمي والابتكاري في المملكة بشكل عام.

أمين عام منتدى الطاقة الدولي

النفط مصدر منفعة.. لا أزمات..!

الأمانة العامة لمنتدى الطاقة الدولي هي المولود الأخير في سلسلة الهيئات والمنظمات العالمية المختصة بشؤون الطاقة. فما هي مهمتها؟ وبماذا تختلف عن غيرها؟ الزميل خالد الطويلي التقى أمينها العام السفير النرويجي آرني ولتر لاستيضاح طبيعة هذه الهيئة التي مضى على إنشائها ثلاث سنوات.

من المتوقع أن يصل حجم الاستثمار العالمي في الطاقة بحلول عام 2030م إلى 16 تريليون دولار، لمواجهة الطلب الذي تشير الدراسات إلى أنه سيزيد خلال الفترة نفسها بنحو 60% عمّا هو عليه الآن. والطاقة كما نعرف تحرك الاقتصاد العالمي الذي بدوره يكاد يدير كل شيء آخر، وفي ذلك تكمن أهمية الحوار بين مستهلكي الطاقة ومنتجيها، ومن خلال اجتماعات منتدى الطاقة الدولي التي تعقد على مستوى وزراء الدول المنتسبة للمنتدى كل عامين وتسهم في استقرار الأسواق ونمو الاقتصادات، من منطلق أن التاريخ علّمنا أن الطاقة يمكن أن تكون مركز مصالح مشتركة، كما يمكن أن تتحول إلى بؤرة أزمات وتسبب التوترات السياسية بين الدول، وهذا ما يهدف منتدى الطاقة إلى تفاديه عبر الحوار المستمر.

المنتدى والأمانة

من المهم التمييز بين منتدى الطاقة الدولي الذي يعمل منذ سنين طويلة، والأمانة العامة لمنتدى الطاقة الدولي التي تم إنشاؤها مؤخراً بدعوة من صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز، فالأمانة هي الجهة التي تم تكليفها بمساندة وتوفير ما يلزم لإنجاح أعمال المنتدى ولخدمة الوزراء الذين يلتقون فيه بشكل غير رسمي. السيد آرني ولتر خريج العلوم السياسية والاقتصاد الذي عمل مستشاراً للطاقة وسفيراً للنرويج لدى منظمة الطاقة الدولية، وسفيراً لبلاده في الهند وسري لانكا وبنجلادش والنمسا، كان عضواً في الوفد النرويجي للمنتدى عندما طرح إنشاء الأمانة، وهو اليوم أول موظفيها، فقد تسلم منصبه أميناً عاماً لها بداية شهر ديسمبر عام 2003م.

يقول السيد ولتر: الأمانة العامة لم تواجه أية عقبات منذ إنشائها، ويضيف أنه وجد "ترحيباً ومؤشرات إيجابية من جميع الدول المشاركة، ونحن على كل حال مازلنا في طور التكوين والتوظيف". وقد انطلق فعلاً أول نشاط للأمانة بدفع عجلة الحوار الأوروبي الخليجي في مجال الطاقة عبر عقد ورشة عمل بين الطرفين طرحت في حلقتها الأولى بالرياض هاجس إمدادات النفط في فترات الاضطراب السياسي. وستعقد ورشة عمل أخرى في وقت لاحق من هذا العام بإيطاليا قبل أن تختتم في الرياض عام 2005م.

ليس للأمانة العامة لمنتدى الطاقة الدولي صلاحية إصدار أو اتخاذ أية قرارات نتيجة الحوار الذي تشرف عليه، وليس هذا هو الدور المطلوب منها.

فدورها باختصار هو تنظيم وإدارة آلية الحوار وخدمة وزراء البترول في الدول المشاركة وتوفير المساندة لهم. يقول السيد ولتر "لفهم الدور الذي تلعبه الأمانة بشكل أفضل، فإنه يجب أن ننظر إلى تكوينها كهيئة ذات خصوصية مميزة في العلاقات الدولية، كونها آلية للحوار لا تقوم باتخاذ قرارات، بل تدير الحوار لتبادل الرؤى السياسية والمعلومات عندما يلتقي الوزراء. ثم يعود كل وزير إلى عاصمته حيث يتخذ القرار، أو إلى المنظمات المفوضة باتخاذ القرار مثل أوبك ومنظمة الطاقة الدولية وغيرهما. وعندما يتوفر قدر أكبر من التفاهم المشترك يمكن للطاقة أن تكون مصدر منفعة لا مصدر أزمات".

مكان متميز للحوار

التنبؤ بالمستقبل أمر عسير، ولكن السيد ولتر يرى أن "عملية الحوار ستستمر في المستقبل حول الخطوط المرسومة حالياً لأن هناك حاجة في العلاقات الدولية لوجود مكان يمكن أن يجتمع فيه الوزراء دون إحساس بالحاجة لاتخاذ قرارات. مكان يجتمعون فيه بشكل غير رسمي لمناقشة تحديات المستقبل. فمن شأن ذلك أن يحل المشكلات قبل ظهورها بدلاً من حلها حينما تظهر. وهو مكان يستطيع أن يتحدث فيه الوزراء في مجموعات أو في شكل ثنائي، الأمر الذي قد يكون أكثر فاعلية في مثل هذه الظروف".



والاجتماع الوزاري للمنتدى الذي يعقد كل سنتين لن يكون الآلية الوحيدة للحوار، حسب السيد ولتر الذي يقول: "بإمكاننا الآن بعد إنشاء الأمانة العامة عقد اجتماعات أخرى بين فترات انعقاد الاجتماعات الوزارية على مستوى الخبراء والسياسيين والشركات، أو بين مجموعات أصغر من الوزراء لمناقشة مواضيع إقليمية داخل إقليم واحد أو بين الأقاليم كورشة العمل الأوروبية الخليجية".

ليس من صلاحيتها اتخاذ القرارات، بل توفير أجواء الحوار للمنتجين والمستهلكين على كافة المستويات، وحتى للدول غير الأعضاء في منظمات المنتدى

خصوصية المنتدى

ويشدد السيد ولتر على أن المنتدى يتمتع بخصوصية فريدة بين التجمعات الأخرى كون "منتدى الطاقة الدولي يضم منظمات تمثل دولاً مهمة من المنتجين والمستهلكين، لكن هناك بعض الدول لا تقل أهمية خارج تلك المنظمات؛ دول من وزن الصين والهند وروسيا والبرازيل وجنوب إفريقيا، فمن مميزات المنتدى أنه يوفر فرصة لهذه الدول للحضور بشكل فردي واللقاء والحوار المباشر مع المنظمات الدولية والأعضاء المنتمين إليها بشكل ثنائي أو متعدد الأطراف".

ويُزاول الحوار في المنتدى على المستويات كافة، وكل طرف فيه يهتم بما يحقق مصالحه الوطنية، ومن أهم ما يحاول المنتدى القيام به هو طرح مواضيع للنقاش بين المنتجين والمستهلكين في إطار تحقيق مصالح مشتركة بعيدة المدى وتوفير الطرق للتعاون حتى يمكن لهذه المصالح أن تتحقق ويستفيد منها كل من المستهلكين والمنتجين.

ولكن شفافية المعلومات التي تقدمها الدول للأمانة بالغة الأهمية. ولا يرى السيد ولتر أنه بحاجة "لإقناع أي من الحكومات المشاركة بالشفافية عند تزويدنا بالمعلومات. لأنني أعتقد بأننا نتفق على أن الشفافية في مصلحة الجميع". ولكن الدور الذي تأمل الأمانة العامة القيام به الآن هو محاولة تنظيم هذه المعلومات من خلال ما يسمى "مبادرة معلومات الزيت المشتركة" التي تضم ست منظمات دولية هي منظمة أوبك، ومنظمة الطاقة الدولية، والأمم المتحدة، والاتحاد الأوروبي، وآبك، و"أولادا" وهذه الأخيرة منظمة طاقة في أمريكا الجنوبية.

ولكل من هذه المنظمات إحصاءاتها الخاصة بها، والدور الذي سوف تقوم به الأمانة هو إدارة الإحصاءات المقدمة ومعالجتها، ومن ضمن ذلك محاولة إيجاد قواعد موحدة للقياس. فعلى سبيل المثال، تختلف وحدة قياس الزيت من جهة إلى أخرى حيث يقاس الزيت في مناطق بالطن، فيما يقاس في مناطق أخرى بالبرميل أو المتر المكعب، مما يفرض إيجاد قاعدة تعريف يمكن من خلالها المقارنة بين هذه المعلومات.

تحديات المستقبل

لا يمكن الحديث عن نوع من الطاقة من دون الحديث عن الأنواع الأخرى، ولكن الزيت كان نقطة الانطلاق للحوار في نهاية الثمانينيات وأوائل التسعينيات، تلا ذلك توسيع أفق الحوار ليضم الغاز الطبيعي وأشكالاً أخرى من الطاقة. ولكن بخلاف اهتمام المنتدى بالأنواع المختلفة للطاقة فإنه يهتم أيضاً بجوانب أخرى مثل علاقة الطاقة بالبيئة، والتبادل التجاري والتطور الاقتصادي، "خاصة في عالم فيه أكثر من بليوني شخص لا يستطيعون الوصول إلى مصادر الكهرباء، فهذا أحد أهم التحديات المستقبلية. فالمجال الذي نعمل به متسع جداً ويضم نواحي سياسية واقتصادية واجتماعية على المستوى الدولي لأن الطاقة شديدة الأهمية لكافة المجالات ولا تنحصر في سوق الزيت فقط".

وعن نفط الشرق الأوسط يضيف السيد ولتر قائلاً: "إنه شديد الأهمية في يومنا الحاضر للاقتصاد الدولي كما هو مهم للتطور الاجتماعي في الدول المنتجة، والدراسات تشير إلى أن الطلب على النفط سوف يزداد عالمياً بشكل كبير خلال العقود المقبلة، وأن النسبة الأكبر من هذا النفط الإضافي سوف تأتي من دول الشرق الأوسط وأعضاء منظمة أوبك، وبالتالي لا يوجد شك في أن نفط الشرق الأوسط سيكون أكثر أهمية في المستقبل مما هو عليه الآن".

فيم يتحاورون؟

ولكن من الذي يحدد مواضيع الحوار؟ وهل مواضيع من قبيل قيمة الدولار مقابل اليورو وأثر ذلك في استقرار السوق أو خفض أوبك للإنتاج في الوقت الذي ينادي فيه أحد أهم المستهلكين بزيادته ضمن مواضيع الحوار التي تطرح من قبل الأمانة؟

يقول السيد ولتر "إن الأمانة العامة لمنتدى الطاقة الدولي ليس لديها رؤية بخصوص تسعير الزيت، فهذا أمر خلافي بين بعض المستهلكين وبعض المنتجين، وكبقية المسائل الخلافية الأخرى، تكمن مهمتنا في توفير آلية الحوار التي تصنع جسراً يمكن عبره حل هذه الخلافات. ولكننا لا نستطيع تحديد المسائل الخلافية التي يختار المشاركون الحوار فيها، فكل هذا يعد من الأمور التي يمكن مناقشتها على المستوى الوزاري، ويمكن للوزراء إن شاءوا بعد ذلك تكليف الأمانة العامة، ضمن دورها، بدراسة الموضوع وتوفير نصائح وآراء أصحاب الخبرة. كما تستطيع الأمانة تنظيم اجتماعات وتوفير ما يطلبه الوزراء من الأمانة العامة للمنتدى".

اقرأ للإدارة

من فن الحرب.. إلى فن الإدارة



كيف يمكن أن نطبّق فنون الحرب على إدارة المؤسسات؟ هذا هو السؤال الذي يجيب عنه كتاب غاري غاغلياردي (Gary Gagliardi) "فن الحرب وفن الإدارة". إنه كتاب جديد اشتقّ من الكتاب الصيني الشهير "فن الحرب" الذي كتبه صن تسو (Sun Tzu) منذ حوالي ألفين وخمسمائة سنة. أما الترجمة الدقيقة لعنوان الكتاب بالصينية فهي "الاستراتيجية". وبمجرد كونه كتاباً يتحدث عن الاستراتيجيات يمكننا أن نفسّر لماذا يمكن أن نطبق أساليبه على إدارة المؤسسات وعلى كل عمل يتطلب بُعد نظر وقدرة تحليلية لوضع خطة عمل متكاملة وبعيدة المدى.

يبسّط هذا الكتاب الفكرة المبهمة عن الاستراتيجية إلى مجموعة قوانين واضحة التعريف. وعندما نتمكن من فهم هذا النظام يمكننا أن نحلل بشكل فوري أي شكل من أشكال المنافسة كما يمكننا اصطياد الفرص واتخاذ القرارات السليمة.

في هذه النسخة المعدلة من كتاب "فن الحرب" نجد أن أساسيات فن الحرب قد صُقلت لتساعدنا على اتخاذ القرارات السليمة ونحن في موقع الإدارة. أما طريقة العرض فقد تضمّنت مقابلة كل صفحة تفسر فن الحرب بصفحة أخرى تشرح التعديل المطابق لأفكار تلك الصفحة والتي يمكن تطبيقها على إدارة المؤسسات.

ومما يجعل قوانين صن تسو قريبة من قوانين الإدارة، هي أن صن تسو نفسه كان إدارياً يُعنى بإدارة مجموعات من الناس. لقد كتب عن سيكولوجية الناس التي تعمل في المؤسسات وعن أهمية الاختراع وعن الحوافز في العمل، وعن روح الجماعة. فأسس الإدارة لم تتغير في الألفي سنة الماضية ولن تتغير في الألفي سنة المقبلة.

على الرغم من قلة صفحاته، تضمن هذا الكتاب معلومات مهمة عن الإدارة الجيدة أكثر من كتب تفوق حجمه بمرتين أو أكثر. ولكنه كتاب يتطلّب القراءة الهادئة المعمقة لأن القراءة السريعة السهلة لن تمكننا من استيعاب نظام صن تسو المتكامل والمفيد.

قول في مقال

من هي المرأة السعودية؟!



يقدّم الدكتور علي بن عبدالعزيز العبدالقادر وثيقة تاريخية مهمة في كتابه "المرأة.. الإرادة والتحدي" الذي يرصد الكثير من مناحي النشاط النسائي، في المملكة، على امتداد أربعة عقود مضت.
هذه الوثيقة تراجعها الدكتورة أميرة كشغري* على خلفية الجذور التاريخية المتقاطعة مع واقع المرأة في الحضارات الإنسانية بشكل عام، وفي التشريع الإسلامي بشكل خاص.

احتلّ موضوع المرأة ووضعها في المجتمع مركزاً حيوياً على مر العصور والحضارات في المجتمعات الإنسانية. فالمرأة على مر الزمان كانت موضوعاً للتمييز وللممنوع و المحرّم ضمن منظومة القيم السائدة و التقاليد المعمول بها والأعراف الحاكمة في المجتمعات الإنسانية.

ففي مجتمع الجزيرة ما قبل الإسلام، مثلاً، كانت المرأة أدنى مرتبة من الرجل، ولم تبرز من هذه المرتبة إلا استثناءات قليلة يذكرها التاريخ كالسيدة خديجة بنت خويلد. إذ لم يكن للمرأة حق في الميراث الذي كان يُوزَّع حسب رغبة الأب، كما لم تكن لها حقوق قانونية. كان المجتمع يفرض عليها أن تكون أدنى مرتبة من الرجل و هي الموؤدة وهي مصدر العار للعائلة. ولقد وصف الله في محكم تنزيله هذه الصفات في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (59)﴾ (النحل). والصورة نفسها لم تختلف كثيراً عند الرومان والفرس وفي الصين وفي الهند وفي أوروبا في العصور الوسطى.

ولكن البشرية تخطو باستمرار نحو نظم اجتماعية أكثر رقياً، وتبني شيئاً فشيئاً وعيها الذاتي بإنسانيتها. ولقد رسم الإسلام أول ملامح التخلص من هذه المعاملة غير الإنسانية، وذلك عبر تأكيد إنسانية المرأة وعبر تكليفها بالعبادات ومساواتها في الثواب والعقاب، وأخيراً عبر تأطير قيم الخير الكامن في الإنسان ومحاربة الظلم أياً كان شكله. ولعل التنفير من الظلم - من دون الخصال الأخرى - برز بشكل قوي يدعو إلى التأمل. يقول الحق سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا". ولا يفوت المتأمل في هذا الحديث القدسي أن الله سبحانه وتعالى لم يكن بحاجة إلى أن يحرم أمراً على نفسه. بل كفى المؤمنين تصديقاً لو قال إني حرمت عليكم الظلم. ولكنه أراد - سبحانه - أن يبين غلظة الظلم بهذا الشكل القوي والجلي.

إلا أن المجتمعات البشرية - كانت أبداً - تقصر عن اتباع المثل السامية التي شرعها لنا الله عبر رسالاته. فما أن تحسن وضع المرأة في عهد النبوة وما بعدها حتى عاد تحت وطأة الأعراف والتقاليد وعبر الجهل والارتداد إلى ما كان مألوفاً من عادات وتقاليد مجحفة بحق المرأة.

نخلص من هذه اللمحة إلى أن المرأة، كقضية، أصبحت المحور الذي يدور حوله التشكل الثقافي والاجتماعي، وأصبحت قضيتها هي قضية المجتمع بأكمله، فالمرأة - بحكم كونها نصف سكان المعمورة وبحكم كونها مختلفة بيولوجياً عن الرجل - أصبحت موضوعاً جاهزاً عند التصدي لما يواجه المجتمع من تحديات.

ومن هذا المنطلق نجد قضية المرأة في المجتمع السعودي جزءاً من قضية المرأة في كل زمان ومكان حسب تشكّلات الواقع والسياق التاريخي والثقافي والاجتماعي. فالمرأة السعودية، مثلها مثل غيرها من النساء، عنصر فاعل في مجتمعها يسهم في البناء والتنمية، ولكنها - في عملية البناء هذه - تظل محكومة بعاملين محوريين:

- **أولهما:** مرجعية المرأة السعودية وهي الشريعة الإسلامية التي سنت وشرعت حقوق المرأة وواجباتها وموقعها في المجتمع الإنساني.
- **ثانيهما:** مجتمع المرأة السعودية محكوم بعادات وأعراف بعدت في بعض الأحيان عن جوهر الشرع بالاسترسال تشدداً في ممارسة الحياة بشتى جوانبها.

يضعنا هذان العاملان، إذن، أمام إشكالية الانتقال من أعراف تجذرت في المجتمع حتى أخذت الصبغة القدسية إلى حياة واسعة رحبة مستمدة من المرجعية الدينية الثابتة التي جاءت بها نصوص قطعية الدلالة. ولقد فصلت سورة النساء أبرز الأحكام المتعلقة بالمرأة من النواحي القانونية والمدنية والمالية والاجتماعية. كما جاءت آيات عن النساء والأمهات والزوجات في سور أخرى من القرآن الكريم. كما أن سيرة الرسول الكريم أضافت وفصّلت في الأحكام وفي الصور الإنسانية للتعامل بين الرجل والمرأة.

ولو قرأنا، بتمعن وتبصر، ما ورد في سورة النساء من تشريعات خاصة بالمرأة، لوجدناها كفيلة بوضع صورة كاملة لحقوق المرأة ومنزلتها. فالمرأة أولاً هي إنسانٌ مكرَّمٌ خلقه الله من نفس واحدة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (النساء، 1). وقد فصلت السورة شروط تعدد الزوجات والمهر، كما بينت حقوق المرأة اليتيمة وتفاصيل الميراث. كما عالجت الخلافات الزوجية وبيّنت إجراءات الإصلاح بين الأزواج وتعرضت للعضل والعشرة الزوجية والتفاضل بين الرجال والنساء في الميراث والقوامة وشروطها ومعاملة الناشز من الزوجات.

وعلى الرغم من وضوح هذه التشريعات من ناحية، وحضّ الدين على العدل من ناحية أخرى، فإننا نجد أن هناك من العادات والأعراف ما يبعد عن هذه الحقوق والتشريعات بدرجات متفاوتة. ذلك لأن الموروث الثقافي، منذ القدم، كان له تأثير في تفكير المسلمين في مختلف العصور، ولا ينبغي أن يكون ذلك مستغرباً، كما أن هذه العودة لا تنتقص من الإسلام في شيء. بل ولعل الله أنبأنا أن ذلك سوف يحدث، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: 144). فلا يفهم أحد أن النقد الحاصل للممارسات السائدة هو نقد للدين - وحاش لله - بل هو نقد لأنفسنا - نحن المسلمين - في محاولة لإصلاح حالنا.

ويجيء كتاب الدكتور علي بن عبد العزيز آل عبد القادر "المرأة: الإرادة والتحدي" الصادر عن الدار السعودية للنشر عام 1425هـ (2004م) في مرحلة حيوية من هذا النقد الذاتي الذي يعيشه المجتمع السعودي ليزود المكتبة العربية عامة، والسعودية خاصة، بمصدر علمي وثقافي عن جانب من جوانب هذه المرحلة، مؤرخاً للنهضة النسائية الحديثة في المملكة خلال العقود الأربعة الأخيرة منذ بدايات التعليم النسائي في المملكة عام 1960م، مالئاً فراغاً معلوماتياً فيما يخص إسهام المرأة السعودية في النهضة التنموية الحديثة في المجتمع السعودي.

يقع الكتاب في جزءين ناقش الجزء الأول منه، باستفاضة، قضايا تتعلق بالمرأة في المملكة العربية السعودية في مجالات التعليم والثقافة والعمل. ففي مجال النهضة التعليمية للمرأة السعودية يوثق الكتاب إنجازات هذه المرحلة بالعديد من البيانات والجداول والاحصاءات التي تعتبر مرجعاً للباحثين. ولقد تبع هذا النجاح الكمي تطور نوعي، حيث أدخل التعليم الفني و المهني (في المجال الصحي) و تعليم الكبار و التعليم الخاص بالإضافة إلى التعليم العالي و البعثات. ويكمن الإسهام الأبرز للكتاب في العرض المفصل للنهضة الثقافية للمرأة السعودية، حيث يبدأ بعرض مناهج النظرية الثقافية في الحضارات الإسلامية من حيث الحقوق، ثم يقدم لنماذج من النساء المثقفات في المجتمع الإسلامي في ميادين الدراسات الدينية والأدبية، بالإضافة إلى الطب والفن والتدريس والقضاء والتجارة. ثم يشرح الكتاب أسس السياسة الثقافية وأهدافها ومؤسساتها في المملكة. وأخيراً يُختم الجزء بعرض نماذج من سير السعوديات اللاتي أسهمن في خدمة المجتمع في شتى الميادين.

وشمل الكتاب عرضاً للنهضة النسائية في مجال تطور عمل المرأة السعودية مؤصلاً للمنظور الإسلامي لعمل المرأة و حقوقها في الإسلام كما بينها القرآن الكريم و فصلتها السنة النبوية. وفي إطار هذه الرؤية الإسلامية لعمل المرأة، تعرض الكاتب لدوافع العمل لدى المرأة السعودية مستنداً إلى دراسات متعددة في هذا المجال. ثم استعرض مجملاً لحقوق المرأة السعودية العاملة في القطاعين الحكومي و الأهلي حسب أنظمة الخدمة المدنية منذ صدور نظام المأمورين عام 1931م وحتى نظام الخدمة المدنية الصادر عام 1977م الذي لا يزال العمل به قائماً.

الجزء الثاني من الكتاب يشمل دراسة قام بها الكاتب ونشرت عام 1995م بعنوان "اتجاهات طالبات جامعة الملك فيصل نحو عمل المرأة". كما يشمل سيراً ذاتية لعدد من نساء المملكة تعكس مسيرة المرأة السعودية في نهضتها الحديثة واصرارها على تحقيق أهدافها. و رغم أن الكاتب لم يتوسع ليشمل إسهامات المرأة في مناطق المملكة المختلفة بل اقتصر في مجمله على نساء المنطقة الشرقية، إلا أن الكتاب والسير الشخصية تعتبر بحق شهادة للحقيقة وللتاريخ.

ربما بدا الكتاب الآن وكأنه مجرد تجميع لبيانات ومعلومات عامة، إلا أنه سيكون دائماً نافذة تطل من خلالها الأجيال القادمة لتكون لنفسها صورة عن هذه الحقبة المفصلية من تاريخ المملكة ومجتمعها.

* أستاذ اللغويات - قسم اللغة الإنجليزية كلية التربية للبنات بجدة

أنشيء مركز رعاية الموهوبين الأول في الرياض قبل ست سنوات، وبسرعة عمّت التجربة أرجاء المملكة كافة

المحترف السعودي

في أولى أمسيات القافلة

اكتشاف الموهبة المبكرة وتنميتها

كيف نكتشف أبناءنا؟ وما هي المقاييس التي تؤكد وجود الموهبة؟ ما هي القدرات الخاصة للمبدعين؟ وهل التفوق الدراسي يعد مؤشراً للموهبة؟ أسئلة كثيرة تصعب الإجابة عنها لما تتطلبه من خبرة في تقدير الإبداع والتميز، الذي يؤكد وجود قدرات خاصة لدى أفراد غير عاديين. القافلة جمعت هذه الأسئلة لتجعل منها موضوع الأمسية الأولى التي أقامتها لتنشيط تفاعلها مع المجتمع وتطوير هذا التفاعل. وفي ما يلي يقدم الزميل محمد الفوز أبرز ما جاء في هذه المحاضرة.

المحاضر الذي تناول موضوع الموهبة المبكرة هو الدكتور عبدالرحمن كَلْنتَن، الناشط في مجال رعاية الموهوبين وصاحب الأبحاث العلمية العديدة في مجالات التفوق العقلي والنمو الابتكاري، الذي يشغل مناصب تربوية عديدة إضافة إلى كونه أستاذ التفوق والإبداع في كلية المعلمين بالرياض. كما ترجم عدداً من برامج القياس التي تطبّق عالمياً لاكتشاف المواهب، وساهم في تطوير بعضها.

وللدكتور كلنتن أسلوب فريد في إلقاء المحاضرات، لا يقتصر على شد انتباه الحاضرين، بل يكشف أيضاً حماساً للموضوع وسعة اطلاع وغزارة ما في جعبته حول الموضوع.

قبل أن يتطرق الدكتور كلنتن إلى مراكز رعاية الموهوبين، انتقد مفهوم الموهبة كما كان شائعاً. وأشار إلى أن هذا المفهوم تسبب سابقاً في إهمال القدرات الخاصة لبعض الموهوبين، خاصة في المدارس التي تعتبر البيئة الأفضل لاكتشاف المواهب، طالما أن الأسرة لا تركّز عادة على تميّز الأداء لدى أبنائها بقدر ما تهتم بمستواهم التحصيلي وفق البرامج المحددة والمقررة. فما هي مراكز رعاية الموهوبين التي أخذت على عاتقها

هذه المهمة؟ وما هو دورها في صناعة الموهبة أو توجيهها؟

الرعاية والتوجيه العلمي

تأخر الاهتمام بالحاجات الإرشادية للطلبة الموهوبين أكثر من ثلاثة عقود عن الاحتياجات التربوية والتعليمية. وقد ساهمت دراسات مبكرة ظهرت في العديد من الدول الغربية في رفع مستوى الوعي لأهمية العناية بالطلبة الموهوبين واعتبارهم فئة اجتماعية ذات احتياجات خاصة من الناحيتين التربوية والإرشادية. وأكدت هذه الدراسات وجود احتياجات عند هؤلاء على المستويين الاجتماعي والعاطفي. وأشارت إلى عدم كفاية المناهج الدراسية العادية لتطوير قدرات الموهوبين، وطابع الفتور واللامبالاة الذي يغلب على المناخ التعليمي تجاه هؤلاء بحيث يضيع هدراً نصف الوقت الذي يقضونه في المدرسة. كما لاحظت معاناة الموهوبين والمتفوقين من وجود فجوة ما بين مستوى نموهم العقلي من جهة ونموهم العاطفي من جهة أخرى.

فأهم القضايا التي تتناولها البرامج الإرشادية للطلبة الموهوبين تكمن في تعزيز فهم الذات وحسن الاختيار المهني وسلوك الأسرة، الذي قد يحجب كثيراً من المواهب أو يقمعها، وأيضاً التركيز على دور المدرسة وتهيئتها لاستقبال الموهبة والتعامل معها بأساليب علمية حتى لا تحبطها أو تتسبب في زوالها.

وفي هذا الإطار، أشار الدكتور كلنتن إلى أن "مراكز خدمات رعاية الموهبين قد لا تنتج أفراداً قادرين على تغيير موازين الحياة؛ لكنها تستطيع إعداد أفراد قادرين على معرفة احتياجاتهم، وحل المشكلات الذاتية والاجتماعية التي قد تواجههم". فهناك اعتقاد شائع بأن مراكز الرعاية تخرّج أفواجاً بمواصفات رفيعة على مستوى أينشتاين أو أديسون.. كما يتصور البعض أن الموهبة تتمثل في الاختراعات والمبتكرات العلمية. وهذه أخطاء يجب تصحيحها. فالموهبة تتنوع بين المجالات العلمية كالتكنولوجيا والرياضيات والهندسة، ويمكنها أن تكون أيضاً في مجالٍ أدبي أو فني يرتبط باللامحسوس وبالذائقة الفنية والجمالية.

وتحتاج المواهب إلى العناية بها وفق مفهوم حديث، يوفر برنامجاً قائماً على أساليب تشخيص عالمية لكل موهبة على حدة. إذ لا بد من فرز المواهب التي يحتاجها المجتمع لتغطية النقص وسد الحاجة إلى الكفاءات المميزة. وفي هذا المجال توفر خدمات رعاية الموهوبين بيئة مرنة تتيح الفرصة لهؤلاء ولكفاءاتهم غير المخدومة أن تعبر عن نفسها بشكل أفضل.

التجربة في المملكة

بدأت المملكة برنامج الكشف عن الموهوبين بدراسة علمية موّلتها وأشرفت عليها مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية بالتعاون مع وزارة التربية والتعليم. واستمر إعداد هذه الدراسة خمس سنوات، وجاءت نتيجتها في تسعة مجلدات تضمنت المقاييس "المقبولة"، التي ستُعتمد للكشف عن الطلاب الموهوبين والتعرف عليهم في المدارس السعودية.

ودخل هذا البرنامج حيّز التطبيق فعلاً في مطلع العام الدراسي 1418 – 1419هـ، وأقيم أول مركز له في مجمع الأمير سلطان التعليمي بمدينة الرياض، ثم تكاثر عدد مراكز رعاية الموهوبين وانتشرت في أرجاء المملكة كافة. ونشير هنا إلى أنه يوجد اليوم في المملكة ثلاث جهات مختلفة يمثل تضافر أعمالها مجمل الجهود المبذولة للعناية بالموهوبين، وهي: الإدارة العامة لرعاية الموهوبين في وزارة التربية والتعليم، وبرنامج الكشف عن الموهوبين، ومؤسسة الملك عبدالعزيز ورجاله لرعاية الموهوبين. وتنشط الجهات الثلاث هذه في تهيئة البيئة الملائمة للموهبة وتغذيتها وتنشئتها بطريقة علمية ووفق مقاييس مستمدة من واقع المعيشة والاحتياجات في المملكة.

وإذا عدنا للدكتور كلنتن، فقد ضرب في مجال وجوب أخذ البيئة التي ينتمي إليها الموهوب بعين الاعتبار، التجربة الهندية مثلاً. فقال إنه عندما تقرر تطبيق نظام رعاية الموهوبين على أنحاء الهند، تم جمع الطلاب المميزين لدراسة المرحلة الثانوية بعد تطبيق المقاييس والاختبارات التي تكشف عن الموهبة حسب المواصفات المعتمدة في أمريكا. وكانت النتيجة أن الجامعات الهندية عجزت عن استيعاب هؤلاء عند إنهاء دراستهم الثانوية، فسافروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية للدراسة، وبقوا فيها بعد التخرج وحازوا الجنسية الأمريكية. وهكذا لم تستفد الهند بشيء من المجهودات التي بذلتها في رعاية هؤلاء، لأنها لم تحدد احتياجاتها، وتعاملت مع هذه المواهب وفقاً لاحتياجات غيرها، فكان من الطبيعي أن يكون هذا الغير هو المستفيد.

لهذا، يقول الدكتور كلنتن، نحن بحاجة إلى تطبيق مقاييس واختبارات الذكاء بمواصفات تتلاءم مع طبيعة الحياة التي نعيشها، ومع احتياجاتنا، وهذا لا يتم إلا بـ "تقنين" برامج رعاية الموهوبين. السؤال هو: كيف؟ إن الطالب الموهوب يحقق مستوىً عالياً من التحصيل العلمي، ويحتل مراتبه العليا. ولكن احتلال المراتب العليا ليس شرطاً يعكس وجود الموهبة. ولهذا فإن المرونة في التفكير تسمح بلفت الانتباه إلى مواهب أخرى لا نعرف أهميتها عند أبنائنا.

التعرف على الموهوب

قديماً، كانت الدرجات التي يحتلها الطالب خلال تحصيله الدراسي هي مقياس الموهبة. ثم تطور هذا المقياس ليضم اختبارات الذكاء (IQ) ودرجات الإبداع والمقابلات الشخصية. وأنتج آخرون أسلوباً يعتمد تعدد المحكّات كأسلوب للتعرف على الطالب الموهوب، ومنها:

1 – المقاييس الموضوعية التي تكون نتائجها محددة لا تحتمل التأويل ولا لبس فيها مثل اختبارات الذكاء واختبارات الإبداع واختبارات التوفل وما شابه..

أبرز العوامل الأسرية المشجعة على الإنجاز العلمي: توافر الحرية، تضاؤل العقاب، والتحفيز المستمر الذي يستخدمه الآباء مع أبنائهم



المحترف السعودي

وهذه المقاييس يستخدمها الاختصاصيون في مجال الموهبة.

2 - المقاييس التقديرية المعتمدة على التقييم التقديري، ويمكن للجميع تطبيقها لأنها غير ثابتة، غير أنه يمكن من خلالها استشعار وجود موهبة ما عند الطالب.

3 - وهناك أخيراً وليس آخراً أسلوب القمع أو التصفية. وتعتمد هذه الطريقة على البحث والتقصّي في المدرسة عن الطلاب الذين حصلوا على تقدير "ممتاز". وتؤخذ أيضاً في الاعتبار ملاحظات المعلمين في السنة الدراسية السابقة، وعندها تحصل التصفية الأولى. ثم تطبّق المقاييس الموضوعية مثل اختبار القدرات، اختبار الذكاء، اختبار الإبداع.. وتحصل تصفيات أخرى. وهكذا دواليك حتى يبقى في النهاية واحد أو اثنان أو ثلاثة في المئة ممن تناولهم التقصي أولاً.



يتصور البعض أن الموهبة تتمثل في الاختراعات والمبتكرات العلمية، وهذه أخطاء يجب تصحيحها



المحترف السعودي

ومن أساليب التعرّف على الموهوبين هناك أيضاً أسلوب الجدول، وفيه يتم تطبيق كل المقاييس والاختبارات على جميع الطلاب حسب المميزات والقدرات التي تفرّق بين كل فرد والآخرين.

دور المنزل

بيّنت العديد من الدراسات أن أساليب التنشئة الأسرية تلعب دوراً مهماً في تنمية الموهبة والإبداع ورفع مستوى الكفاءة والقدرات عند الأطفال. ومن الدراسات المهمة في هذا المجال دراسة "آن رو" التي شملت ثلاث مجموعات من العلماء المبدعين، وخلصت إلى أن أهم عوامل البيئة الأسرية المشجعة للإنجاز العلمي هي في توافر الحرية، وتضاؤل العقاب والتحفيز المستمر الذي يستخدمه الآباء مع أبنائهم. وهذا يقودنا إلى التأكيد على أهمية ممارسة الأساليب الأسرية السويّة في التنشئة، مع ما يعنيه ذلك من ابتعاد عن التسلّط وممارسة العقاب أو التمييز في معاملة الأبناء والإفراط في تدليلهم. وأيضاً قبول التنوّع في الاهتمامات، وتقبّل أوجه القصور من الأبناء، وإتاحة الفرصة لاستقلاليتهم واعتمادهم على أنفسهم.

ولعل من المفيد هنا أن نذكر تعريف الموهوبين الذي يقول إنهم "الطلاب الذين توجد لديهم استعدادات وقدرات غير عادية، أو أداء متميز عن بقية أقرانهم في مجال أو أكثر من المجالات التي يقدرها المجتمع، وخاصة في مجالات التفوق العقلي والتفكير الابتكاري والتحصيل العلمي والمهارات والقدرات الخاصة، ويحتاجون إلى رعاية تعليمية خاصة لا تتوفر لهم بشكل متكامل في برامج الدراسة العادية، والذين يتم اختيارهم وفق الأسس والمقاييس العلمية الخاصة". فهذا التعريف يركز على الاستعدادات غير العادية والأداء المتميز، مما يدل على أهمية التطور الذاتي والمؤسساتي للموهبة. وهذا يشدنا إلى تحليل سلوكيات الموهوب الذي يتحمس للأنشطة التي تتوافق مع موهبته سواء أكانت علمية أو قيادية أو إنشائية تعبيرية.. فكلها مسارات تبرز الموهبة والطلاب الموهوبين.

فهناك أطفال يمتلكون مهارة حفظ القصائد الشعرية وإلقائها بأسلوب مميز، وهناك من يحاكي ابتكارات منجزة ويقلدها بإمكاناته البسيطة، وآخرون يمتلكون القدرة على التخيّل وإبداع تعبيرات جديدة تجدها في الإنشاء والرسم والفن التشكيلي.. وكل هذه المهارات يمكنها أن تتحول إلى مواهب عظيمة إذا تم صقلها بدعم من مراكز رعاية الموهوبين، وبتوفير الحوافز للموهوب على المحاكاة والمنافسة والتفوق.

ولم يغفل المحاضر الإشارة إلى أهمية الحالة الصحية للموهوب، الذي يجب أن يتوفر له ملف صحي متكامل يشمل إضافة إلى المعطيات التقليدية مثل الوضع الولادي واللقاحات التي تناولها، كل الأمراض الطارئة والمشاكل الجسدية التي تعرّض لها ولا يمكن إغفالها لما قد يكون لها من آثار كبيرة على موهبته. فالطفل الذي يتعرض لحادث مروري ويصاب بالتشوه مثلاً، فإنه يتنحّى عن المجتمع ويصاب بحالة من الانطواء على ذاته. ومهما كان مستواه الدراسي عالياً، لا بد أن يتدهور.. لذلك يجب أخذ هذه المشكلات بعين الاعتبار والسيطرة عليها من خلال إعادة التأهيل والمعالجة الجذرية لمضاعفاتها.

أما تنمية وتطوير مهارات التفكير والإبداع فلا تزال حاجة لا تلبيها المدارس. فالمدرسة تمنح المعارف وتحاسب عليها، حيث يتم تفريغها من خلال الذاكرة القصيرة التي حفظت المعلومة لوقت محدد هو يوم الاختبار. وتنتهي حياة المعلومة بنهاية يوم الاختبار. ولذا، لا بد من تغيير الأساليب القديمة التي نسير عليها لتنمية وتطوير مهارات التفكير والإبداع.

وقفات أخرى

وتطرّق الدكتور عبدالرحمن كلنتن إلى جملة مسائل ذات صلة بموضوع الأمسية، وذلك من خلال الأسئلة التي انهالت عليه بعد المحاضرة.

فحول الدور الذي يمكن للتغذية الخاصة أن تلعبه في حياة الموهوبين وما إذا كانت تساعد كيمياء الدماغ على التطور والنشاط، قال إنه قرأ بحثاً للدكتور الباكستاني باراشا جاء فيه أن هناك أنواعاً محددة من الأغذية تؤثر في نشاط الدماغ. غير أن الباحث الباكستاني كان قد حصر دراسته في وجبة الإفطار لدى طلاب المدارس مركزاً على الأملاح والفيتامينات فتأكد من هذه الجهة فقط أنها تنشط الموهبة.. ولفت المحاضر إلى وجهة نظره الخاصة التي تأخذ بعين الاعتبار "الشكوى العامة من نوعية الأطعمة التي نتناولها في حياتنا اليومية، وتشبعها بالكيماويات، ومن المنتجات المعدلة وراثياً.. مما صار يؤثر في البنية الجسمية. فالأغذية لم تعد طبيعية كالسابق". الأمر الذي يكشف ميلاً إلى الحذر من الاعتماد على الأطعمة لتنشيط الأداء الذهني للموهوب.

في دعم الموهوب لا بدّ من أخذ حاجات مجتمعنا بعين الاعتبار وإلا كان المستفيد طرفاً آخر



المحترف السعودي

وجواباً عن سؤال حول عدد الطلاب الموهوبين في المملكة العربية السعودية من الجنسين، قال إن الاحصاءات المتوافرة حتى الآن لا تسمح بإعطاء صورة دقيقة. ففي العام الدراسي 1422 - 1423هـ، تم حصر 3500 موهوب من بين الطلاب في منطقة الرياض التعليمية، فقط ما بين الصف الخامس والأول متوسط وفي المدارس الحكومية دون غيرها، حيث أجريت اختبارات ومقاييس الذكاء. أما في مدارس البنات، فقد بدأت خدمات رعاية الموهوبين مع العام الدراسي 1423 - 1424هـ، وما زالت عمليات التنظيم وتنسيق الجهود في بداية الطريق، ولم تصدر حتى الآن احصاءات تشير إلى عدد الطالبات الموهوبات.

وفي ما يخص المناهج والمقررات الدراسية، طرح الصحافي ميرزا الخويلدي سؤالاً حول ما إذا كانت مناهج التعليم المعمول بها حالياً قادرة على تطوير القدرات الإبداعية عند الطلاب، فأجابه المحاضر: إن مناهجنا التعليمية وضعت من قبل أختصاصيين. وهناك شروط وعناصر ومحاور يجب أن تتوفر في أي منهج دراسي.. فالعيب ليس في المناهج، لكن في النظام الذي يحاسب المعلم على إنهاء المنهج في الفترة المطلوبة، ويطلب إليه أن ينجح جميع طلابه وأن يحصلوا على أعلى درجة ممكنة. بمعنى أن تطبيق النظام يضغط على المعلم للقيام بمهمة أساسية واحدة هي إنجاح الطلبة كلهم. فأين الفروق الفردية بين الموهوب وغير الموهوب في هذا الشكل من تطبيق النظام؟ إنها غير موجودة.

أما السن التي يمكن أن تظهر بها الموهبة، وإمكانية أن تأتي متأخرة فكان موضوع سؤال طرحه الأستاذ أحمد المحيطيب، وأجابه المحاضر بقوله إنه "لا توجد سن محددة تظهر فيها الموهبة. فنحن بحاجة إلى تهيئة البيئة المناسبة لاستقبال الموهبة تحت رعاية الوالدين. ومن الأخطاء التي وقعت فيها الإدارة العامة لرعاية الموهوبين تطبيق الاختبارات والمقاييس على الطلاب في الأسبوعين الأولين من السنة الدراسية، والحكم على من يجتازها بكونه موهوباً، ومن لا يجتازها لا يكون موهوباً.. لقد قرأت في مجلة الثقافة أن هناك امرأة في مدينة حلب عمرها 85 عاماً، موهوبة في فن الرسم، وهي جدّة لأحفاد كثيرين، وأشيد بها في منظمة اليونسكو العالمية.. وهذا دليل على أن الموهبة لا تتقيد بسن معينة".

ومن المداخلات التي تطرقت إلى الجانب التعليمي، كانت هناك مداخلة للدكتور عبدالرزاق حسين الذي قال: "خلال بحثي عن طريقة تعليم الأطفال في التراث العربي، وجدت أن الأقدمين كانوا مهتمين بالإبداع الطفولي، ولذلك برز في الماضي "الطفل الناقد" و"الطفل الشاعر" و"الطفل الأديب".. فكنت أتساءل لماذا لا نهتم بهؤلاء الأطفال رغم وجود مبدعين في صفوفهم، كما اهتمت بهم في الماضي أمتنا الإسلامية؟ ويحضرني هنا مؤتمر عقد في القاهرة حول التعليم الحر. ولمّا أشار بعض الأساتذة بأن هذا النوع من التعليم آتٍ من الغرب، قام أحد الغربيين وقال إن الغرب أخذه عن حلقات العلم التي كانت تقام في المدن العربية خلال الأزمنة الغابرة. ولذلك، يجب أن نهتم بتدريس الطفل علوماً مختلفة في البدء، ثم نتركه يتجه إلى العلم الذي يرغب به. ولو طبقنا نظام الحلقات في مدارسنا، لأصبحنا في مستوى علمي متقدم".

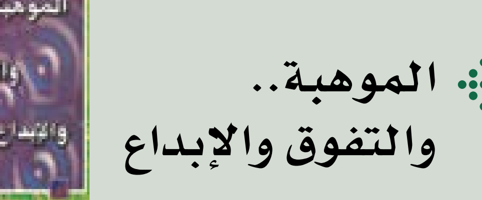
الدكتور عبدالرحمن نور الدين حسن كلنتن، ولد في مكة المكرمة وتلقى تعليمه الأولي في مدارسها. و حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة كونتكيكت بالولايات المتحدة الأمريكية.

تخصص في رعاية الموهوبين ويشغل حالياً مدير إدارة الرعاية والبرامج الإثرائية بوزارة التربية والتعليم.

لديه العديد من الأبحاث في تنمية الفكر الابتكاري وتكوين اتجاهات إيجابية لدى الطلبة، وهو عضو في عدد من المؤسسات العلمية والبحثية في الوطن العربي، ورئيس تحرير مجلة مواهب، عضو تحرير مجلة رسالة التربية الخاصة، وعضو مؤسس بمجلة سلامة الطفل.

اقرأ للموهبة



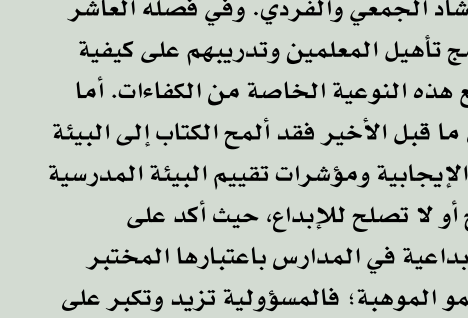


الموهبة.. والتفوق والإبداع

"يمثل الطلبة الموهوبون والمتفوقون ثروة وطنية في غاية الأهمية، ومن واجب المجتمع عدم تبديدها بالإهمال وانعدام الرعاية، بل إن المجتمع مطالب باستثمار مواهب أبنائه حتى تسهم في رفاهية وتنميته وضمان أمنه واستقراره ومستقبله". بهذه النبرة المتحمسة في مقدمة الكتاب يبدو أن المؤلف د. فتحي جروان، رئيس المجلس العربي للموهوبين والمتفوقين، أراد أن يشعرنا، بقوة، بالمسؤولية تجاه هذه الفئة الخاصة التي يجب التعرف إليها من خلال قائمة الصفات السلوكية والإبداعية والنفسية والاجتماعية، حتى نؤسس علاقة جيدة معها، ونشجعها بالتالي على الابتكار ومواصلة التفوق والاجتهاد الذي يمثل نقطة تحول في مجتمعات العالم.

فالموهوبون حالة نادرة في المجتمع ويجب أن نعي أساليب الكشف عنهم لكي يتم توجيههم بالطريقة الصحيحة إلى مراكز الرعاية والاهتمام. فهناك العديد من البرامج لتقديم أنماط الخبرات التربوية والقيادية والإبداعية وغيرها لهؤلاء، كما يتم التعرف على المشكلات التي تعترضهم في الحياة وتعويدهم على حلها.

ويقدم هذا الكتاب برامج إرشادية للطلبة الموهوبين والمتفوقين كما يوضح دور الاختبارات والمقاييس في عملية الإرشاد الجمعي والفردي. وفي فصله العاشر يطرح برامج تأهيل المعلمين وتدريبهم على كيفية التعامل مع هذه النوعية الخاصة من الكفاءات. أما في الفصل ما قبل الأخير فقد ألمح الكتاب إلى البيئة المدرسية الإيجابية ومؤشرات تقييم البيئة المدرسية التي تصلح أو لا تصلح للإبداع، حيث أكد على التربية الإبداعية في المدارس باعتبارها المختبر الأساس لنمو الموهبة؛ فالمسؤولية تزيد وتكبر على عاتق المعلمين الذين يجب تهيئة بعضهم للتواصل الإيجابي مع الحالات الإبداعية الخاصة التي تميز الطلبة الموهوبين عن غيرهم، وهذا يتم بمقاييس وأنظمة تطبق عالمياً لاكتشاف الموهبة وتنميتها.



كتب عربية عن الموهبة

- **تربية الموهوب في رحاب الإسلام**
  تأليف: محمد حامد الناصر - خولة درويش
- **رحلة مع الموهبة**
  تأليف: د. عبدالرحمن نور الدين حسن كلنتن
- **مقدمة في الموهبة والإبداع**
  تأليف: تيسير صبحي - د. يوسف قطامي
- **تحسين التفكير بطريقة القبّعات الست**
  ترجمة مختصرة: د. عبداللطيف خيّاط
- **رعاية الموهوبين والمبدعين**
  تأليف: د. رمضان محمد القذافي
- **تعليم الأطفال الموهوبين**
  تأليف: زيدان نجيب حواشين - مفيد نجيب حواشين

... ومواقع إلكترونية

- جمعية الملك عبدالعزيز ورجاله لرعاية الموهوبين
  http://www.gifted.org.sa
- الموهبة والتفوق
  http://www.geocities.com/giftedness123/tob.htm
- المجلس العربي للموهوبين والمتفوقين
  http://www.acgt.org.jo
- مركز التنمية التربوي
  www.cee.edu.jo
- منتدى العلماء الصغار
  http://www.muntada.org
- المجلس العالمي للموهوبين
  http://www.worldgifted.org/index.htm
- جمعية أوهايو للموهوبين
  http://www.oagc.com

مَناخ العالم.. في نهاية القرن

ازدياد سخونة الأرض ككل، وتوقع وصول معدل هذه الزيادة خلال القرن الجاري إلى ما يتراوح بين 4 و 6 درجات مئوية، صار حقيقة علمية لا ينقضها أحد. ولكن لهذه الزيادة التي تبدو - رقمياً على الأقل - محتملة، آثاراً بالغة الخطورة تتجاوز حالات الطقس هنا وهناك لتشمل أوجه الحياة التي نعرفها ككل، حسبما يبدو في هذا التقرير المعتمد على بحثين نُشرا أخيراً في كل من المجلتين الفرنسيتين "سيانس اي ڤي" و"الاكسبرس".

"بعد غد" هو عنوان فيلم سينمائي جديد حول ارتفاع حرارة الأرض، وتتمحور قصته حول موجة عملاقة تضرب شاطئ مدينة نيويورك فتكتسح المدينة برمّتها وتدمر ناطحات السحاب فيها. وفي ندوة صغيرة عقدها تلفزيون "سي. إن. إن" حول "علمية" الفيلم والتوقعات التي يطلقها، أجمع عدد من العلماء على أن ارتفاع حرارة الأرض يحمل مخاطر مناخية، وإن كانت مختلفة عمّا نراه في الفيلم، فإنها لن تكون في الواقع أقل ضخامة مما نراه فيه.

المناخ بعد مئة سنة

لا يمكن للأرصاد الجوية مهما كانت متطورة أن تتوقع حالة الطقس في مكان معيّن لأكثر من عشرة أيام. إذن، لا أمل في معرفة ما سيكون عليه المناخ في عام 2100م. هذا هو الاعتقاد الشائع، لكن الواحد لا ينفي الآخر. فعلم الإرصاد الجوية محدود في إطار زمني ضيق ويقوم على دراسة التحولات الجوية في محيط معيّن ووفق معطيات محددة، أما علم المناخ فيقوم على دراسات القوانين الفيزيائية التي تسود الأرض، وانعكاس تبدل أحد المعطيات على مجمل التوازن القائم، الأمر الذي يسمح بوضع تصورات مستقبلية طويلة الأمد.

في عام 1990م، وضع "اجتماع الخبراء الحكوميين حول المناخ" تقريراً جزم فيه أن حرارة الأرض تتجه إلى الارتفاع بشكل خطير في القرن الحادي والعشرين، وذلك بسبب النشاطين الصناعي والزراعي وبعض معالم حياتنا اليومية مثل النقل والتدفئة وباقي المؤثرات التي تقذف في الجو كميات كبيرة من الغازات أبرزها ثاني أكسيد الكربون. هذه الغازات تستقر في الطبقات العليا من الجو، فتزيد من نسبة أشعة الشمس المأسورة في الأرض، بدلاً من أن تتركها تعود إلى الفضاء الخارجي، وهذا ما يسمى بظاهرة "الاحتباس الحراري".

وفي السنوات القليلة التالية لذلك الاجتماع، تكثفت الأبحاث والدراسات بدءاً بالطبقات السفلى للقشرة الجليدية في القطبين، وصولاً إلى تصميم المشبهات الخاصة على شاشات الكومبيوتر.. وقُرع جرس الإنذار في العالم بأسره للصورة المثيرة للقلق التي ارتسمت أمام العلماء حول مستقبل العالم.

معطيات علمية لخيال أدبي

تأكد العلماء وبالإجماع، أن حرارة الأرض سترتفع خلال القرن الجاري. والاختلاف الحاصل هو حول المدى الذي سيبلغه هذا الارتفاع في هذا المكان أو ذاك. ففي حين يرى البعض أنه لن يتجاوز 1.4 درجة مئوية في بعض الأماكن يتوقع البعض الآخر أن يصل إلى 5.8 درجات. وإذا أخذنا المعدل الوسطي لهذه التوقعات، ألا وهو ارتفاع 4 درجات مئوية فقط.. لوجدنا علماء المناخ يحذرون من تغير معطيات الحياة على وجه الأرض بشكل يشبه أفلام الخيال العلمي.

في مقدمة التقرير الذي نشرته مجلة "الاكسبرس" الفرنسية حول الموضوع، كتب برونو كوت مقدمة أدبية متخيلة حول سيدة عجوز ولدت اليوم ولا تزال حية في عام 2100م وتتابع أخبار أحفادها: الذين هم في كانبيرا بأستراليا يتهددهم حريق مستعر منذ أسابيع، والذين هم في كوبا تتهددهم الأعاصير المدمرة، والعاملون في مدينة شيكاغو الأمريكية يختنقون في جو ملوّث، حيث من النادر أن تنخفض الحرارة عن 40 درجة مئوية.. من دون أن تنسى أقرباءها في براغ ودريسدن الذين تتهددهم فيضانات الأنهر سنوياً.. وإلى أحفادها في فرنسا، تروي العجوز ذكرياتها حول التزلج على الثلج، فالصغار لم يعرفوا التزلج لقلة عدد المنتجعات في جبال الألب. أما جبال البيرينيه فلم تعرف الثلج من سنوات، تماماً كما هو حال جبل كليمنجارو في أفريقيا الذي لم يعرف اللون الأبيض منذ عام 2020م..!! وسيندهش الصغار أكثر عندما تروي لهم العجوز رحلتها السياحية إلى جزر المالديف التي ابتلعها البحر كما هو حال العديد من الجزر الاستوائية.

هذا النص الأدبي ليس قصة لفيلم سينمائي. فهو مبني على حسابات دقيقة يجمع على صحتها 3000 عالم وخبير يضمهم "تجمع الخبراء الحكوميين حول المناخ". فعلى ماذا تقوم هذه التوقعات المتشائمة؟

"لم نعرف هذا الحر سابقاً"

تؤكد المعطيات المتوافرة من علوم الأرض والأرصاد الجوية خلال القرن الماضي، أن نسبة ثاني أكسيد الكربون ازدادت في الغلاف الجوي للأرض بنسبة 30% خلال قرنين من الزمن، والسبب الرئيس في ذلك استهلاك الطاقة (خاصة الفحم) من دون تدابير وقائية كافية على الصعيد البيئي، ويشكل هذا المصدر نحو ثلاثة أرباع هذه الإضافة، أما الربع الأخير ويقدر بنحو 1.6 بليون طن فسببه التصحر وتدمير الغابات. كما زادت نسبة غاز الميثان في الجو بنسبة 151 في المئة، وأكسيد الأزوت 16 في المئة.

أدى كل ذلك إلى ارتفاع حرارة الأرض ككل درجة مئوية واحدة خلال القرن العشرين. وما هي درجة مئوية واحدة؟ هل يستحق الأمر كل هذا الاهتمام، طالما أننا نعرف أن الفروقات الحرارية في المكان الواحد قد تتبدّل أكثر من 20 درجة بين الليل والنهار؟

والجواب هو أن خطورة هذه الزيادة "الطفيفة" تكمن أساساً في جانبين:

أولاً: أنها ليست موزعة بالتساوي على كل سطح الأرض. فهي في القطبين أعلى منها في مناطق أخرى. وإذا كانت الأرصاد الجوية لم تسجل حالة الطقس في القطبين طوال القرن الماضي لمعرفة فروقاته الحرارية، فالمؤكد وما شاهدناه في الصور الفوتوغرافية هو انهيار وذوبان جبال جليدية عديدة في القطبين، وارتفاع مستوى سطح البحار أينما كان في العالم حوالي عشرة سنتيمترات خلال القرن الماضي.

ثانياً: أن هذه الزيادة كانت كافية لتغيير المعطيات التي تسود فيزياء العوامل المناخية مثل حركة التيارات المائية في المحيطات، والتيارات الهوائية الباردة والساخنة.. الأمر الذي تُرجم عملياً بحالات طقس أكثر عنفاً في السنوات الأخيرة، مثل الحر الشديد صيفاً، والفيضانات والأعاصير المدمرة شتاءً.

الكثيرون منّا ينتقدون أولئك الذين يعبرون عن ضيقهم من الحر صيفاً بقولهم "إننا لم نَرَ مثل هذا الحر سابقاً"، فتعتقد بأن هؤلاء نسوا أو تناسوا حرّ الصيف السابق أو الأسبق.. ولكن أرشيفات الأرصاد الجوية، صارت تعطي هؤلاء الحق في ما يقولون.

فالسنوات الخمس الأكثر سخونة على صعيد الأرض بأسرها تقع في العقد الأخير من القرن العشرين. أسوأها كان عام 1998م (زيادة معدل الحرارة العام 0.55 درجة مئوية)، أما في عام 2003م، ورغم أن الزيادة كانت مشابهة تقريباً (0.6 درجة مئوية) فقد أدّت موجة الحر التي ضربت فرنسا إلى وقوع الكارثة التي يذكرها الجميع وتمثّلت في مصرع أكثر من عشرة آلاف شخص من المسنّين بنوبات قلبية أو بعوارض ناجمة عن الجفاف والحر.. وفي هذا المجال يقول الباحث جان لوي دوفرين من المركز الوطني للأبحاث العلمية في فرنسا: "الكل صار على قناعة بأننا ندمر نظامنا المناخي.. والمؤسف هو أن لا عودة إلى الوراء..".

ارتفاع الحرارة درجة واحدة خلال قرن واحد أدى إلى تغيرات هائلة، فكيف الحال بارتفاع 4 أو 5 درجات؟

فماذا يخبىء المستقبل؟

تقول التوقعات المعتمدة على المشبّهات الكومبيوترية إن حرارة الأرض سترتفع نتيجة نمط الحياة الحالي بما يتراوح بين 4 و 6 درجات مئوية حتى نهاية القرن الجاري. ويسارع هؤلاء إلى التوضيح أن العالم الصناعي المسؤول الأول عن هذه القضية، لن يدفع من ثمنها أكثر مما سيدفعه غيره. ففي حين أن دول جنوب شرق آسيا وسواحل أمريكا الجنوبية لن تعرف زيادات تتجاوز الدرجتين المئويتين، سترتفع حرارة القطب الشمالي، حيث لا يوجد أي نشاط صناعي بما يزيد على العشر درجات مئوية.. ويعود هذا الاختلاف إلى عوامل بالغة التعقيد، غير أنه بإمكاننا تلخيصها بشكل عام بالقول إن الحالات المناخية الإقليمية المعروفة حالياً ستتحرك شمالاً لتحل محلها الحالات التي كانت جنوبها.

واستناداً إلى الخرائط التي أعدها الخبراء الحكوميون الذين أشرنا إليهم سابقاً، فإن معدل الحرارة في جنوب الجزيرة العربية سيرتفع من 3 إلى 4 درجات مئوية، أما وسطها وبلاد الشام والصحراء الإفريقية فستعرف زيادة تتراوح ما بين 4 و 5 درجات مئوية، كما هو حال معظم الولايات المتحدة الأمريكية، والبلقان والهضبة الإيرانية.

ويسارع العلماء إلى فك الارتباط بين هذه السخونة المتوقعة والجفاف. فيقولون إن المناطق المطرية والجافة ستتحرك شمالاً، وعليه، رسم هؤلاء خرائط تُظهر أن زيادة معدل الأمطار في جنوب الجزيرة العربية مثلاً خلال مئة سنة ستبلغ نصف مليمتر يومياً، وفي وسطها سيزداد بمعدل ربع مليمتر. أما بلاد الشام وحوض المتوسط بأسره فستعرف انخفاضاً في معدلات الأمطار يتراوح بين ربع ونصف مليمتر من معدلاتها اليومية.

ولكن هذه الفروقات التي تبدو صغيرة جداً ذات آثار على الأحوال الجوية تجحظ لها العيون. فالأمطار والأعاصير وموجات الحر والجفاف الموسمية تتحدد بالفارق الحراري بين كتلة هوائية باردة وأخرى ساخنة، أو بين تيار بحري ساخن وموجة هوائية باردة، وأية زيادة مهما كانت طفيفة على هذا الفارق تؤدي إلى حالات طقس أعنف وأقوى.. وعليه، يتوقع العلماء كماً هائلاً من حرائق الغابات صيفاً، وكوارث مطرية وأعاصير ذات عنف لم يسبق للإنسان أن شاهده. وفي أوروبا على سبيل المثال، فإن ارتفاع الحرارة المتوقع بين 4 و5 درجات مئوية سيؤدي سنوياً إلى انخفاض كمية الثلوج على جبال الألب مقابل زيادة الأمطار، الأمر الذي يعني أن بنية الأنهار كما هي حالياً ستكون عاجزة عن تصريف كميات أكبر من المياه، كانت سابقاً تصلها ببطء من خلال ذوبان الثلوج على مدى أشهر السنة.. وهذا ما سيؤدي بدوره إلى تهديد كل المدن الواقعة على ضفاف الأنهر بفيضانات سنوية غير مسبوقة.

وإذا كانت مثل هذه التوقعات تقع في إطار العموميات وتفتقر إلى الأرقام الدقيقة، ففي حال البحار والمحيطات تختلف المسألة.

جزر ومدن قد تختفي

إذا كانت زيادة حرارة الأرض درجة واحدة قد أدت إلى رفع مستوى البحار عشرة سنتيمترات، فإن زيادة الحرارة في القطب الشمالي 10 درجات مئوية ستؤدي إلى ارتفاع مستوى البحار والمحيطات نحو المتر الواحد. ويتوقع بعض العلماء أن يذوب في الصيف كل البحر المتجمد حول القارة القطبية ليعود ويتجمد شتاءً.

والواقع أن ارتفاع مستوى البحار لا يعود إلى إضافة حجم الجليد البحري بعد ذوبانه، لأن هذا الجليد يشبه قطعة ثلج في كوب ماء، لا يؤدي ذوبانها إلى زيادة حجم الماء. بل إن أسبابه تعود إلى عوامل أخرى مرافقة منها:

1 - ذوبان جزء من الثلوج القارية على اليابسة وانتقالها إلى البحار كما هو الحال في غرينلندا مثلاً.
2 - تمدد الكتلة بفعل الحرارة الإضافية.
3 - ديناميكية التيارات البحرية التي تزداد عنفاً عندما تتسّع مجالات حركتها، التي كانت تحد منها سابقاً مساحات شاسعة من الجليد.

ما يسهل تصوره هو أن ارتفاع سطح البحار متراً سيؤدي إلى تغير شامل يطال كل أوجه الحياة البحرية كما نعرفها الآن، وأعظم تأثيراته سيكون على المدن الساحلية في العالم.

قد تذهب أفكار البعض هنا إلى مدينة البندقية في إيطاليا، حيث ستصبح السياحة حكراً على الغوّاصين. وقد يقول البعض إن معظم المدن الساحلية تقع على ارتفاع يزيد عن المتر الواحد فوق سطح البحر. ولكن علماء البحار يؤكدون بسهولة أن ارتفاع سطح البحر متراً واحداً يعني أن الأمواج الناجمة عن الأعاصير البحرية ستضرب كيلومترات عديدة داخل اليابسة التي لم تكن تصلها سابقاً. ويؤكد هؤلاء أن "مناطق الدلتا" العامرة اليوم على مستويات لا تعلو كثيراً عن سطح البحر كما هو الحال في بنغلادش ومصر، ستشهد من الكوارث البحرية ما يجعل مساحات هائلة منها غير صالحة للسكن، وسيشهد العالم نزوح مئات الملايين في اتجاه العمق القاري البعيد عن الشواطئ. وإلى ذلك فإن عدداً كبيراً من الجزر الاستوائية الصغيرة التي لا تعلو كثيراً عن سطح البحر، ستصبح تحته وتغمرها المياه، إما إلى الأبد وإما في مواسم سنوية محددة، لتختفي منها كل الحياة النباتية والحيوانية التي نعرفها اليوم.

ومن الأمثلة المعطاة عن أثر الحرارة على الحياة البحرية هناك الحاجز المرجاني الأسترالي، وهو الأكبر في العالم، ويأوي نحو 1500 نوع من الأسماك. لقد خسر هذا الحاجز 27 في المئة من مساحته خلال القرن الماضي. وقبل فترة قصيرة أصدرت الأمم المتحدة أطلساً جغرافياً للمناطق المرجانية في العالم، وتوقعت زوالها كلها خلال القرن الحالي، مشيرة إلى أن حجم الكارثة التي يمثلها انقراض المرجان على نوعيات الأسماك وكمياتها، سيكون هائلاً على الصعيدين البيئي والاقتصادي.

إلى عالم مختلف تماماً

ونظراً إلى الجدية التي ميّزت اجتماع الخبراء الحكوميين في عام 1990م، وصدقية تقريرهم الواقع في ثلاثة آلاف صفحة.. انطلق العلماء في شتى الميادين إلى وضع تصوراتهم المستقبلية كل حسب اختصاصه، على ضوء احتمال زيادة سخونة الأرض، والمدهش أن ما من مختص في أي وجه من أوجه الحياة أو في أي من العلوم إلا وتوقع تحولات دراماتيكية في مجال بحثه.

ففي الزراعة على سبيل المثال تأكد أن زيادة الحرارة وارتفاع نسبة ثاني أكسيد الكربون يعجلان في نمو النباتات. واكتشف العلماء في مركز "سيماغريف" الأوروبي المتخصص في هذا الشأن أن أشجار الصنوبر صارت تنمو اليوم

أسرع من السابق بمرتين ونصف المرة. وأن أشجار السنديان المزروعة حالياً تنمو عشرة سنتيمترات سنوياً أكثر مما كان الحال عليه قبل قرن من الزمن.

وبالنسبة للزراعات الموسمية مثل القمح والذرة، فقد قلّ الوقت الفاصل ما بين زراعة البذور والحصاد بشكل لحظه المزارعون أنفسهم في السنوات الأخيرة. أما الأشجار المثمرة فقد تقدّم موعد قطاف معظم أنواعها بين عشرة أيام وثلاثة أسابيع. وفي نهاية القرن المقبل، قد يزهر التفاح مثلاً في أواخر الخريف ومطلع الشتاء، وستنضج ثماره في شهر مارس (آذار) بدلاً من يوليو (تموز)، إذا تركت عواصف الشتاء وأمطاره وثلوجه أزهاره على الأشجار؟!

أما الحياة الحيوانية فستتأثر (كما هو معلوم من زيادة الدرجة الواحدة حتى الآن) على ثلاثة صعد: اضطراب روزنامة البرنامج الحياتي للنوع الواحد مثل مواعيد التكاثر والهجرة وما شابه، وحركتها في اتجاه البيئة الملائمة، وإعادة تنظيم نفسها وفق تفاعلها مع الأجناس الأخرى المحيطة بها. وخلال العشرين سنة الماضية فقط، رصد العلماء انتقال عشرات الأجناس من الطيور والحشرات وحتى الحيوانات الثديية نحو 200 كيلومتر شمالاً.. ومن المرجح أن هذه الهجرة صوب الشمال ستزداد وتتسع خلال القرن الجاري، بشكل يوجب إعادة رسم خارطتها بالكامل.

وعلى الصعيد الصحي، سارع الأطباء وعلماء الأحياء إلى تدارس ما ستكون عليه أمراض نهاية القرن الجاري. كان من السهل عليهم التصور أن الذين يعانون من الربو وأمراض الجهاز التنفسي سيكونون من بين الأكثر تأثراً. ولكن ما يصعب تصوره هو حال الأمراض المعدية وانتشار فيروساتها، والحشرات الناقلة لها.

فإذا صدقت التوقعات المتعلقة بهجرة الحيوانات والحشرات شمالاً مع ارتفاع الحرارة، فإن البعوض الناقل للملاريا سيصل إلى أوروبا في منتصف القرن الجاري. وستخرج الأمراض المعدية مثل: التيفوئيد والحمى الصفراء من مناطقها الجنوبية حالياً لتطال أماكن عديدة إضافية لم تكن تعرفها سابقاً. أما الكوليرا فمن المرجح أن تجد أرضاً خصبة حيثما ارتفعت الحرارة والرطوبة وقلّت مياه الشرب النظيفة.

ومن المصادر الكبرى للقلق على الصعيد الصحي، هناك عائلة فيروسات الزكام الشتوي. فإن كان البعض يعتقد أن ازدياد الحرارة في المناطق الجافة سيلجم هذه الفيروسات عن النمو والانتشار، يتوقع البعض الآخر أن تؤدي الحرارة المرتفعة في المناطق الرطبة جداً إلى زيادة عدائية هذه الفيروسات وشراستها.

هل هناك بصيص ضوء؟

ما سقناه في هذا التقرير لا يعني أن البشرية ماضية إلى هلاكها، حتى لو صحّت كل هذه التوقعات. كل ما هنالك أن العالم كما نعرفه سيكون مختلفاً جداً. فهناك من يرى أن قرع جرس الإنذار اليوم على هذا المستوى من الجدية سيدفع البشرية إلى التصرف مع كوكبها في شكل أفضل. فلا شيء يمنع اكتشاف وسائل حرق الوقود والاستفادة منه بطريقة سليمة بيئياً أكثر مما هو حاصل الآن. ويضرب هؤلاء مثالاً البنزين الخالي من الرصاص الذي كان تطوراً كبيراً في هذا المجال. ولا شيء يمنع الحكومات من الانتقال في مكافحة تدمير الغابات الآسرة لثاني أكسيد الكربون، من مرحلة التحذير والتذمر الحالية إلى سنّ تشريعات وفرض عقوبات في غاية القسوة توقف عملياً تراجع الغطاء الأخضر للأرض. ويزيد المتفائلون أن الغابات الاستوائية لا تزال تستطيع أن تطبب نفسها بسرعة إذا توقفت الاعتداءات عليها. ويشير آخرون إلى أن خطوات كثيرة بدأت تتخذ لمواجهة مناخ نهاية القرن. فالمركز البريطاني للأبحاث على المناخ "تيندال سنتر" صار يوصي مهندسي البناء بأن يأخذوا في حسبان مشاريعهم معدّل ضغط رياح يزيد ما بين 5 و 10 في المئة عمّا هو حالياً. وفي اليابان بدأت زراعة الحدائق فوق أسطح ناطحات السحاب والمباني الكبرى، بعدما بيّنت الدراسات أن طبقة من التربة بسماكة 8 سنتيمترات مغطاة بالعشب والشجيرات على السطح، تخفّض معدل الحرارة داخل المبنى بنسبة 25 في المئة.. وسيتكاثر مثل هذه الابتكارات والتحولات بشكل يمكّن الإنسان من مواجهة الكثير من ذيول المتغيرات المناخية المرتقبة.

أما المتشائمون، وهم للأسف ليسوا أقلية، فيرون أن تطور العلوم والطب والعمارة وما إلى ذلك سيقتصر على معالجة النتائج اليومية شبه المستقرة. أما التقلبات الكبرى فستبقى خارج السيطرة. ويرجّح هؤلاء أن الإنذار جاء بعد فوات الأوان.

الزيادة المتوقعة في مستوى البحار قد تهجّر الملايين من سكان مناطق الدلتا النهرية، وتغمر جزراً إما موسمياً أو إلى الأبد

اقرأ للبيئة



قضايا البيئة في مئة سؤال وجواب

لو أخذنا تآكل طبقة الأوزون مثلاً، لوجدنا هذا الكتاب يطرح حولها خمسة أسئلة مختلفة: كيف يتكون الأوزون في الغلاف الجوي؟ ما الذي استرعى الانتباه لموضوع احتمال تآكل طبقة الأوزون؟ ماذا يمكن أن يحدث لو تآكلت طبقة الأوزون؟ هل تآكلت طبقة الأوزون فعلاً؟ ما هو بروتوكول مونتريال؟ والجواب عن كل سؤال من هذه الأسئلة يحتل صفحتين في الكتاب. على هذا المنوال يطرح المؤلف الدكتور عصام حناوي مئة سؤال حول الشأن البيئي ويعرض لأجوبتها في الكتاب الجديد الصادر هذا العام عن المنشورات التقنية - مجلة "البيئة والتنمية" في بيروت.

وقد وزّع المؤلف أسئلته على ثلاثة محاور رئيسة هي: البيئة والتنمية، وقضايا البيئة الرئيسة، والعمل البيئي.

وبشكل عام، يمكن القول إن الكتاب الذي يقع في 222 صفحة نجح في ملامسة أي سؤال قد يخطر على البال في الشأن البيئي وقضاياه بدءاً بالهواء والاحتباس الحراري، وصولاً إلى العلاقة بين التجارة العالمية، مروراً بالتلوّث الإشعاعي، وقضايا المياه، والتصحّر والمخلفّات الصلبة.. وغير ذلك الكثير. ولأن الجواب عن كل سؤال لا يزيد عن صفحة ونصف الصفحة أو صفحتين، قد يتمنى الكثيرون لو أن المؤلف أعطى لنفسه المجال الكافي لتوسعة هذه الأجوبة والغوص في تفاصيلها أكثر. ولكن لا بد من الاعتراف بأن تنوّع الأسئلة المطروحة وشموليتها شبه الموسوعية، يجعل من هذا الكتاب مدخلاً ممتازاً لغير المتخصصين. كما أن الأجوبة المعروضة هي على مستوى من الدقة وسعة الاطلاع يؤهلها أن تكون محطات انطلاق لأبحاث مستفيضة أكثر.

طبقة المستهلكين

يشير تعبير "طبقة المستهلكين" إلى الناس الذين يتبنون نمط حياة مشابهاً لذلك المتبع عند الأوروبيين والأمريكيين واليابانيين، خاصة لجهة تصنيف ما هو ضروري وما هو كمالي، والإتفاق على رؤية مشتركة لمعالم الحياة اليومية بدءاً بالطعام والملابس وانتهاء بوسائل النقل والترفيه.

وتشير الإحصاءات إلى أن عدد المستهلكين في العالم وصل أخيراً إلى 1.7 بليون نسمة. وتحتل الصين المركز الأول في التحوّل إلى هذا الاتجاه، إذ أضافت في السنوات القليلة الماضية نحو 250 مليون مستهلك إلى اللائحة.

وتحذر مؤسسة "وورلدوتش" في تقريرها الأخير من أن طريقة الاستهلاك هذه تؤدي إلى زيادة السمنة وزيادة الديون الشخصية والإساءة إلى البيئة.

وينظر البعض بقلق إلى احتمالات وصول الصين والهند عموماً إلى مرحلة متقدمة في هذا المجال، وما ستكون عليه انعكاسات ذلك على البيئة في العالم بأسره، إذ إن السيارات الشخصية وحدها على سبيل المثال ستزداد بمئات الملايين وستزيد تلوث الكوكب بشكل مخيف.


المحترف السعودي

العلاج بركوب الخيل


المحترف السعودي

في اليونان القديمة تحدث أبو الطب أبوقراط عن "إيقاعات ركوب الخيل الشفائية"، ونصح بركوب الخيل لمعالجة بعض الأمراض العقلية والجسدية في آن.

ومع تقدم الطب والعلوم في القرن العشرين، ظهر في أواسطه اهتمام خاص بدراسة هذه المسألة في ألمانيا وأمريكا. وتوالت الملاحظات والاكتشافات فوصل عدد المراكز المتخصصة في العلاج بركوب الخيل في الولايات المتحدة وكندا إلى 700 مركز.

واخيراً نشرت مجلة "أوهن لايف لاينز" قائمة بفوائد ركوب الخيل وقدراته العلاجية المعتمدة في هذه المراكز كما يلي:

1 - الأمراض التي تعالج بركوب الخيل: إصابات العمود الفقري، الجلطات الدموية، تلف غشاء الأعشاب (MS)، مشاكل الإدراك، فقدان الأطراف، الشلل المخي، التخلف العقلي، سوء التصرف الناجم عن شرود الذهن والإدمان، الضعف في السمع والكلام والرؤية، وبعض المشكلات المتعلقة بالكسور العظمية.

2 - وفوائده العامة تكمن في أنه يحسِّن التوازن ويقوّي العضلات، يحسِّن التنسيق بين العضلات ويسرِّع الاستجابات، يزيد سيطرة المخ على العضلات، يزيد السيطرة على وضعية الجسم، يخفف التشنج، يزيد في مجال حركة المفاصل، يمدد العضلات القاسية والمتشنجة ويرخيها، يزيد القدرة على التحمّل، ويحسِّن إدراك مجال الرؤية.

3 - أما فوائده النفسية والاجتماعية فهي: تعزيز الثقة بالنفس، تعزيز الاعتبار الذاتي، السيطرة على العواطف، تطوير القدرة على الصبر، تحسين قدرات تقدير المخاطر، تخفيض مستوى الضغط الإجهادي، تقوية الشعور بالانتماء الاجتماعي.

تشكّل الزيت.. نظرية جديدة أم خطأ حسابي؟

شهد اللقاء السنوي للجمعية الجيولوجية الأمريكية طرح موضوعات مثيرة للاهتمام تطال النظرية السائدة حول تشكل النفط، وتتجاوزها أيضاً لتناقض نظرية النشوء ككل.

فقد أعلن جيولوجيون استراليون عن عثورهم على بعض نقاط الزيت المأسورة داخل صخور يبلغ عمرها نحو ثلاثة بلايين سنة، أي نحو ضعفي عمر أقدم زيت معروف في العالم.

واستناداً إلى النظرية الشائعة فإن الزيت يتشكّل داخل الصخور الرسوبية المحشوة ببقايا النباتات والبكتيريا. فكلما ازدادت الترسبات، كلما ارتفعت الحرارة الأمر الذي يؤدي بمرور الوقت إلى تشكّل جزيئيات الزيت. وإذا استمرت الحرارة في الارتفاع، تقول النظرية التقليدية أن جزيئيات الزيت تتكسّر.

المشكلة أن الصخور التي تناولتها الدراسة الأسترالية عرفت منذ زمن بعيد درجات حرارة تراوحت ما بين 200 و300 درجة مئوية، أي ما يكفي لتكسير جزيئيات الزيت. وبالتالي، فإذا كان عمر هذا الزيت هو فعلاً ثلاثة بلايين سنة، كان يجب أن يكون قد تفكك وتكسر إلى مواد أخرى منذ زمن طويل.

Saudi Aramco Journal of Technology

إلى ذلك، هنالك حجة مربكة أكثر، فاستناداً إلى نظرية النشوء يعود ظهور الطحالب الحية على الأرض إلى بليون سنة فقط. فكيف يمكن أن يتشكّل نفط من طحالب في صخور عمرها نحو ثلاثة بلايين سنة؟

لذا يقول العلماء إن المسألة برمّتها هي برهان على أن تقنيات التأريخ (تحديد أعمار المواد) لا تزال غير موثوقة لكونها تعتمد على معطيات خاطئة.

ولكن أصحاب نظرية النشوء أنفسهم مقتنعون أن عمر هذه الصخور هو فعلاً ثلاثة بلايين سنة. ولذا يجدون صعوبة في فهم مسألة وجود الزيت فيها.

بطاقات ائتمان المستقبل

مع ازدياد التجارة الإلكترونية تزداد مخاطر السرقة والقرصنة على الشبكة. ومع أن أنظمة الحماية تطورت كثيراً فإن القرصنة ما زالت مزدهرة.

ويجري البحث حالياً عن بطاقات ائتمان لا تعمل إلا عندما تكون في يد صاحبها الذي تميزه عن غيره من خلال صوته. وقد تمكنت شركة "بيبكارد" في أمريكا من إنتاج أشكال أولية لهذه البطاقة: ميكروفون صغير، ومكبر صوت وبطارية ورقاقة كومبيوتر في قطعة واحدة تميز الصوت.

أدوات تمييز الصوت أصبحت مستعملة في الهواتف النقالة، ومكبرات الصوت مستعملة في بطاقات الإنترنت، لكن جمع هذه الأدوات وربطها بكومبيوتر مركزي يجعل من السرقة عملية شبه محالة لأن تقليد الصوت مسألة معقدة جداً.

تبقى هناك مشكلتان تعترضان الاختراع الجديد، فالبطاقة التي أنتجتها شركة "بيبكارد" هي بحجم البطاقة العادية، لكن سماكتها تبلغ ثلاثة أضعاف البطاقة الحالية. كما أن هناك مشكلة تتعلق بحجم البطارية وديمومتها.

عُسر الهضم.. كيف نتجنبه؟

أسباب عسر الهضم كثيرة، والأدوية التي تعالجه شائعة، حتى أن بعضها يباع في محلات البقالة بعيداً عن الصيدليات. ولكن بعض الوقاية يمكنه أن يعالج الأمر من دون أدوية. فمن عوارض عسر الهضم: الحرقة في المعدة، الشعور بالضيق في الصدر، انتفاخ البطن، الغازات الزائدة، وأحياناً الشعور بالغثيان. ومن الممكن تجنب هذا الإزعاج الذي ينغّص حياة المرء لساعتين أو أكثر بعد تناوله الطعام، وذلك باتبّاع الخطوات التالية:

1 - تجنب الوجبات الكبيرة والاستعاضة عنها بوجبات صغيرة وكثيرة.
2 - مضغ الطعام جيداً، لأن امتزاج اللعاب بالطعام المطحون يشكل فعلاً المرحلة الأولى من مراحل هضم الطعام.
3 - تجنب النوم أو الاستلقاء على الظهر لمدة ساعتين بعد الأكل.
4 - تلافي الأطعمة الغنية بالأحماض والمواد التي يصعب هضمها مثل المأكولات الدهنية والمقلية والمتبلات مثل البهارات والكافيين.
5 - الامتناع عن التدخين لأن النيكوتين يزيد من الحوامض في المعدة.
6 - ممارسة نشاط جسدي منتظم كالرياضة، ولو كانت خفيفة. ولكن الرياضة بعد الأكل مباشرة تسبب عسر هضم قوياً. ويجب ممارستها قبل الوجبة أو بعدها بما لا يقل عن ساعة.
7 - يجب تخطي الضغط النفسي ومعالجته. والتمارين الرياضية تقلل من تأثيره. ولهذا، فعلى الذين يعانون التوتر أن يتعلموا وسائل الاسترخاء.

الأخلاق تحت رحمة الطب

ما بين تسارع وتيرة الاكتشافات العلمية والفكر الموجِّه لنمط الحياة الحديثة تبرز اليوم سلسلة من التحديات الأخلاقية أمام الطب. وإذا كان في الدين بأحكامه الشرعية والموروث الأخلاقي ما يساعد على مواجهة هذه التحديات في بعض المجتمعات، فإن الحال في بعض المجتمعات يصل بالقضية إلى مستوى الأزمة كما تبين الدكتورة فاتن مرسي في مقالتها التي كانت اختارت لها عنواناً آخر هو: "بدع طبية ضد الإنسانية".

كانت الفضيحة الأخلاقية العلمية التي فجرتها طبيبة بريطانية من أصل آسيوي زلزالاً هزَّ المجتمع البريطاني في الصميم، فقد اكتشفت ريتا بول ذات الضمير الحي أن المريض المسن أرخص ثمناً من السرير الذي ينام عليه! ونسبت وسائل الإعلام البريطانية إلى هذه الطبيبة قولها إن هناك أطباء يحجبون العلاج عن كبار السن، بل يعجِّلون أحياناً بإنهاء حياتهم لأن المستشفى في حاجة إلى الأسرة التي ينامون عليها!! وضربت ريتا بول أمثلة عديدة من واقع خبرتها الشخصية في عدد من المستشفيات التي عملت فيها، وقالت إنها فوجئت ذات يوم بأحد الأطباء يوقف العلاج الذي تتلقاه مريضة في الثمانين تعاني داء السكر. وعندما أبدت الطبيبة دهشتها ردَّ الطبيب بأن هذه المريضة سوف تموت في كل الأحوال. وذكرت الطبيبة مثالاً آخر عن مريض في أحد مستشفيات لندن، أعطاه الأطباء جرعة زائدة من عقار "الديامورفين" الذي يستخدم لعلاج القلب، لكنه يقلل معدل التنفس، وعندما أكدت لهم أن ذلك قد يقتل المريض أجابوها بأنه مسن وسوف يموت بطريقة أو بأخرى.!

وأضافت.. "عندما طالبني رئيسي بعد ذلك بحقن مريض آخر مسن بعقار "الديامورفين" تظاهرت بالاستجابة ثم حقنت المرتبة التي ينام عليها المريض المسن حتى لا يُكلِّف طبيباً آخر بحقنه إذا امتنعت".

ومثال ثالث من مستشفى آخر.. تقول الطبيبة: "أسرعت يوماً إلى رئيسي أبلغه بأن مريضاً يموت من مرض في الكبد، فردّ بأن ذلك المريض يزيد عمره عن الستين!". وفي حالة أخرى أوقف الأطباء عمل الأجهزة وأوقفوا الأمصال التي تمد عجوزاً في التاسعة والثمانين بأسباب الحياة، وبرر كبير الأطباء ذلك بأن المستشفى في حاجة إلى السرير. وتقول الطبيبة ريتا بول: إن المريض كان مدركاً وواعياً لكل ما يقال. ولقد توفي بعد فصل الأجهزة عنه.. أي أن مخه كان حياً ولم يمت بعد، حيث إن الطب الحديث يبرر حدوث الموت بموت جذع المخ.

موت المخ

يكاد موت المخ يكون لوحده المصدر الأكبر لهذه التحديات الأخلاقية، فموت المخ هو الحالة التي يكون فيها المريض في غيبوبة عميقة وغير قادر على التنفس التلقائي، ويحتاج إلى جهاز التنفس الصناعي كما يحتاج إلى العلاج الوريدي والغذاء من أنبوبة المعدة مع ضرورة توفر رعاية دقيقة له. ويرى فريق من العلماء أن مثل هذا المريض يعتبر ميتاً لأن حالته ستنتهي حتماً إلى الموت، وبالتالي يمكن استئصال أعضائه السليمة لنقلها لمن يحتاجها، أي إيقاف علاجه وفصله عن أجهزة التنفس وغيرها.

ويرى فريق آخر أن مثل هذا المريض يعتبر حياً لأن معظم أعضائه ما زالت حية وتعمل بانتظام ويجب الاستمرار في علاجه ورعايته حتى وإن كانت حالته ميؤوساً منها. من هنا يصبح من حق أي عالم أو طبيب أو مواطن أن يتساءل إذا كان موت المخ يعتبر بالفعل موتاً؟ ولماذا اعتبره البعض كذلك؟

للإجابة عن هذا السؤال يجب أن نتذكر أن مسألة الموت ليست طبية بحتة، بل إنها ليست مسألة طبية في المقام الأول، لأنها ببساطة مسألة عقدية فكرية لها تطبيقات طبية وقانونية وانعكاسات اجتماعية كثيرة. فليس من المستغرب، بل من المتوقع، أن يتبع المجتمع في هذه المسائل توجهه الفكري. ويظهر سؤال آخر هو: هل تتبع الاتجاهات العلمية توجهات المجتمع الفكرية؟ فالملاحظ أن العلم مستقل ما دام في نطاقه العلمي البحت، لكن حين يلتقي العلم بالفكر في المسائل المشتركة فإن التوجهات الفكرية تؤثر في الاتجاهات العلمية وتقودها من حيث لا تشعر، ولا عجب في أن العلماء أنفسهم قد شاركوا في صياغة فكر المجتمع وارتضاه معظمهم وأصبحوا مهيئين، بل وراغبين في خدمة هذا الفكر عن وعي أو عن تلقائية.

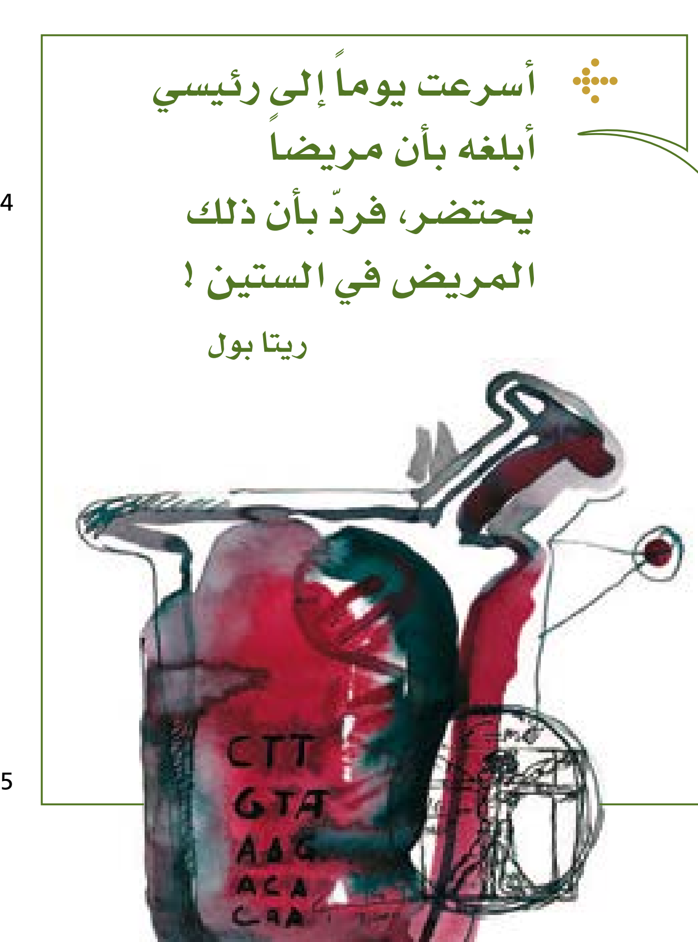
الفكر يقود أخلاقيات الطب

لذا علينا أن ندرس الفكر السائد في بعض المجتمعات فيما يختص بموضوع الموت لنفهم لماذا أفرزت هذه المجتمعات مفهوم موت المخ ولنستعرض معاً أبرز معالم هذا الفكر:

1 - إنه فكر مادي، لا بد أنه تأثر بالأديان في الماضي، لكنه أخذ منها ما أخذ وترك ما ترك وحوّر وطوّر كما شاء ولم يعد ملتزماً بالمقاييس الدينية.. ويجب أن نذكر هنا أن رجال الدين في تلك الدول قد اعترضوا قائلين: إن فقدان وظائف المخ بلا عودة لا يعتبر دليلاً قاطعاً على وفاة المخ وصاحبه، كما أبدوا تشككهم في صدقية معايير تحديد موت المخ وأيضاً تشككهم في أن المخ يمثل كل جوانب الشخصية.

أسرعت يوماً إلى رئيسي أبلغه بأن مريضاً يحتضر، فردّ بأن ذلك المريض في الستين !

ريتا بول



وعلى الرغم من هذه الاعتراضات فقد تم قبول مفهوم موت المخ. ويقول أحد الباحثين في كتاب وضعه ايرل ووكر عن موت المخ: "ظل هؤلاء المشككون يقاومون مفهوم موت المخ، لكنها مقاومة دون جدوى فهذه مجتمعات غير ملتزمة بفروض الدين".

2 - وهو فكر يقدس العقل ويربط حياة الشخص بسلامة عقله، حتى أن بعض المشتغلين بهذا الفكر ينادي بأن يكون تعريف الموت هو موت العقل وليس موت المخ. يقول جوزيف فلتشر في كتاب "الجوانب الأخلاقية لقتل الشفقة" ما نصه: "ليس فقدان وظائف المخ بشكل عام، لكن فقدان وظيفة العقل بالذات هي التي تدل على أن الموت قد حدث".

3 - وهو فكر يبيح ما يسميه "القتل الرحيم"، ويشجع عليه. يقول جوزيف فلتشر: "من السخف أن نوافق على إنهاء الحياة تحت البشرية للجنين في الرحم كما نفعل في الإجهاض لأسباب الشفقة، ونرفض أن ننهي الحياة تحت البشرية للمسن. فإذا كنّا ملزمين أخلاقياً أن نجهض الحامل متى عرفنا أن الجنين مشوّه فإننا بالمثل ملزمون بأن ننهي حياة المريض بلا أمل".

4 - وهو فكر ينادي بقتل كبار السن عند الحاجة.. ويتساءل تقرير الجمعية البريطانية عن "القتل الرحيم": "لماذا نترك كبار السن يتحللون ويتعفنون في المصحّات والمستشفيات التي عليها أن تقدم أحسن وأحدث رعاية في حين أن ما يريده هذا المريض هو نهاية قصيرة غير مؤلمة؟". لقد أصدرت السلطة التشريعية في كاليفورنيا قانوناً "يعطي من هو في حالة مرضية متقدمة الحق في ميتة مشرفة". ويقصد بذلك أن يكون من واجب الطبيب أن يقتله بناء على طلبه. ويبرر ذلك بأنه "لما كانت الحياة ستؤول في النهاية إلى الموت فلا بد أن نستخدم العلم الحديث لتكون النهاية محترمة"..!!

5 - وهو فكر يربط الحياة بقيمة شخصية بحتة ويرى أنه "من واجب الأطباء النزول عند رغبة المريض الذي لا يرغب بالحياة، ولا يعالج إلا هؤلاء الذين يعتقدون أن لحياتهم قيمة يرضون عنها" كما ورد في التقرير السابق نفسه.

6 - وهو فكر يعتقد أن كل شخص يملك جسده ومن حقه أن يفعل به ما يشاء، بدءاً من الزعم بأن الإجهاض من حق المرأة لأن الجنين جزء من جسدها وهي حرة فيه، ومروراً بحق الشخص في أن يحوّل نفسه من ذكر إلى أنثى أو العكس، وانتهاء بحقه في أن يدمر جسده بالانتحار أو يطلب من آخرين أن يقتلوه ويتوقع منهم المساعدة..!!

إن هذه القوانين تعكس الفكر السائد في هذه المجتمعات فتجعل من كل ما سبق شيئاً مباحاً، بل في بعض الأحيان واجباً.. وفي ظل هذا الفكر يكون التعامل المنطقي مع مريض الغيبوبة الميؤوس من شفائه هو إنهاء حياته من باب القتل الرحيم. وإذا تقرر إنهاء حياة مثل هذا الشخص فما المانع من الاستفادة من أعضائه للزرع أو من جسده للبحث ما دام قد وافق هو أو ذووه على ذلك؟

من هنا نجد أن مفهوم موت المخ والتعريف الجديد للموت ليس إلا تطوراً طبيعياً وامتداداً للفكر السائد.

الأخلاقيات في الاختبارات

حتى سنوات قليلة مضت، كانت الإجابة عن التساؤلات الأخلاقية سهلة وواضحة. وفي مجال الطب كانت كل الأخلاقيات تقتصر على قَسَم "أبوقراط" الذي كان الأطباء يؤدونه عند تخرجهم في الجامعات حتى السنوات الأخيرة. ولكن تطور العلوم الطبية وأساليب العلاج ووسائل البحث العلمي جرّد كل هذه الأخلاقيات من قيمتها وأدخلنا في رمال متحركة من السهل الغوص فيها. فنحن الآن بين طرفين متناقضين: الطرف الأول هو البحث العلمي الذي أدى إلى اختفاء العديد من الأمراض وساعد، بإذن الله، في إطالة متوسط عمر الإنسان إلى 80 سنة. والطرف الآخر هو ما تثيره بعض هذه الأبحاث من تساؤلات حول مطابقتها للأخلاقيات الواجبة (Deontological Ethics) التي وضعت قبل معرفة هذه الأساليب.

ومن الخطوات الأساسية التي لا بد أن تمر منها أغلب الأبحاث، إجراء تجارب على البشر. وكانت هذه التجارب - وما زالت عندنا - متروكة لتقدير الباحث. وأدى هذا إلى كوارث أخلاقية، كانت أضخمها ما ارتكبه الأطباء الألمان في عهد النازية. وهو ما كشفت عنه محاكمات نورمبرج وكان منها أيضاً ما لا نعلمه مما تم أغلب الظن أيام حكم ستالين في روسيا.

ولكن الكوارث والتعديات الأخلاقية كانت وما زالت في كل مكان. ولعل أوضحها ما حدث في الولايات المتحدة فيما يطلق عليه اسم "تجربة تاسكيجي" Tuskegee. فلقد رغبت إدارة الخدمات الطبية U.S. Public Health Service بدراسة تطور مرض الزهري في حال منع العلاج بهدف اكتشاف ما إذا كانت مضاعفات المرض في الجهاز العصبي أكثر أو أقل منها في الشرايين. وقامت الإدارة بتكليف معهد تاسكيجني في ألاباما للقيام بهذه المهمة. فقام المعهد بجمع 412 مريضاً أسود من فقراء المزارعين من عام 1932م إلى 1972م - أي على مدى 40 عاماً - وقام بإجراء الدراسات عليهم. لم يخبر المعهد المرضى بمرضهم، ولم يشرح لهم إمكانية انتقاله بالعلاقات الجنسية، ومنع عنهم أي علاج (حتى بعد اكتشاف كفاءة البنسلين في عام 1940م). ومات عدد كبير من المجموعات بمضاعفات الزهري واستمرت التجربة حتى عام 1972م عندما كشفتها مجلة Washington Star. ولعل هذا المثل يوضح لنا الفشل الأساسي لنظرية الأخلاقيات النافعة Teleological Ethics.

عقب محاكمات نورمبرج، عُقد مؤتمر في هلسنكي حدد شروط إجراء التجارب على البشر في اتفاقية تقول بوجوب ما يأتي:

أولاً: لا بد من الحصول من الشخص الذي ستجري عليه التجربة على موافقة واعية بالتجربة ومداها وأخطارها الممكنة.. الخ. وطبعاً لا بد من أن يكون الشخص عاقلاً بالغاً، حر الإرادة، وألا يكون من مرضى الطبيب الذي سيجري التجربة.

ثانياً: في الأحوال الخطرة يمنع استبدال دواء معروف المفعول بآخر غير معروف المفعول، إلا بموافقة لجنة عليا تقدر أهمية الدراسة وتوقف التجربة بمجرد الحصول على نتائج.

ثالثاً: تنشأ في كل مؤسسة طبية لجنة أخلاقية تقدر أهمية الأبحاث وإمكانية الضرر.

هذه هي الخطوط العريضة للاتفاقية. وبالطبع فإن هناك أمثلة واضحة لإمكانية تعطيلها للبحث العلمي. ولكن - بشكل عام - فإن تأثيرها إيجابي، إذ تساعد على توجيه البحوث في الاتجاه العلمي السليم. كما أضيف أن هناك بروتوكولات أخلاقية في أغلب البلدان المتحضرة تنظم إجراء التجارب حتى على الحيوانات.

الأخلاقيات ونقل الأعضاء

يمتد تاريخ نقل الأعضاء إلى الفراعنة والرومان الذين استعملوا نقل الدم في العلاج. ولكن القفزة الضخمة في انتشار نقل الدم حدثت بعد اكتشاف كارل لاندشتاينر عام 1900م لفصائل الدم المختلفة. وقد نتج عن هذا الاكتشاف انتشار نقل الدم انتشاراً واسعاً وأصبحت هذه العملية تتم عشرات المرات كل يوم في كل مستشفى عام، وأصبحت بعض مكوناته تستعمل بعد فصلها في علاج العديد من الأمراض.

ثم جاء التقدم السريع في علم تصنيف الأنسجة (HLA Typing) وفي صناعة الكيماويات المضادة للمناعة (Immunosuppressive) التي توقف رفض الأنسجة المنقولة، وفي تقدم الأساليب الجراحية. وأدى كل هذا إلى زيادة ضخمة في عمليات نقل

بعد "مفهوم موت المخ" المشكوك فيه صار هناك من يرى أن فقدان وظيفة العقل بالذات تدل على أن الموت قد حدث

إننا مسؤولون عن أجسامنا و حمايتها ولكننا لانملكها، وإن يئسنا من العلاج فلا نيأس من الشفاء



الأعضاء. وأصبح من الممكن نقل أعضاء عديدة من السليم إلى المريض أو من جثة إلى مريض وأنقذ بذلك مئات الألوف من الناس الذين يعيشون اليوم بكلى وأكباد وقلوب ونخاع ورئات وبنكرياس منقولة من أشخاص آخرين.

وتنقل الأعضاء من ثلاثة مصادر: إما من متبرع، أو من جثة ميت أو من حيوان. وبالطبع فإن الحصول على عضو من متبرع محصور في أعضاء معينة مثل الكلى، إذ يمكن للمتبرع أن يعيش بكلية واحدة، أو مثل الدم والنخاع. أما القلب والبنكرياس وغيرهما فلا يمكن لشخص حي أن يتبرع بهما. أما استعمال الحيوانات كمصدر للأنسجة المنقولة فله عيوبه الكثيرة ولا يزال محدوداً جداً. وهكذا فإن المصدر الأساس لأغلب الأعضاء هو جثث الموتى. وهنا يأتي الخلاف في الرأي، ولا بد من إيضاح سبب الخلاف.

يقول التعريف العلمي للوفاة بأنها وفاة "جذع المخ" وهو العضو الذي لا يمكن إعادة الحياة إليه، وهو العضو المسؤول عن كل وظائف الجسم. وتوقف القلب عن العمل ليس دليلاً على الوفاة: فعمليات القلب المفتوح تتطلب توقف القلب عن العمل لفترات طويلة، وكذلك الأمر مع التنفس. وهو أيضاً العضو الذي لا يمكن إطلاقاً عودة الحياة إليه بعد موته. فبعد الوفاة تتحلل باقي أنسجة الجسم تدريجياً فإذا انتزع العضو بعد الوفاة وقبل التحلل، يصبح من الممكن استعماله لإنقاذ حياة مريض.

وهنا نواجه مشكلة هي تعريف الوفاة وهي قضية تبدو ضخمة عندنا، لكنها محلولة علمياً في جميع أنحاء العالم تقريباً. وقد سبق أن أوضحنا أن الوفاة هي وفاة جذع المخ ولكن لبعض الناس آراء أخرى. ومنهم من يطالب بوفاة كل خلية في الجسد قبل الاعتراف بالوفاة، وهو أمر لو صحّ لاتهمنا بأننا ندفن موتانا قبل وفاتهم.

الأخلاقيات والتلقيح الصناعي

كانت الأمور بسيطة في ما مضى: يتزوج الرجل والمرأة، فتحمل المرأة، وكانت الأخلاقيات واضحة. أما الآن فقد تعقدت الأمور وتشابكت. أصبح من الممكن تنظيم النسل، بل لقد أصبحت هذه حاجة اجتماعية، لكن ما زال بعض الناس يصرّون على أن أي تحكم بالنسل بأي صورة هو جريمة أخلاقية. ثم بدأت عمليات التلقيح الصناعي في حالات العقم: تلقيح صناعي من الزوج - تلقيح صناعي من متبرع - تلقيح صناعي في طبق - تلقيح صناعي بالمجهر - تلقيح صناعي مع استئجار رحم، إضافة إلى الاستنساخ.. وكل هذه العمليات أو بعضها يقابل بالرفض من هيئة أو من أخرى. فمن المسائل الجانبية المهمة التي نتجت عن هذه العمليات أن يقوم بعض الأزواج مثلاً بتخزين البويضات الملقحة التي بدأت تنمو في درجة حرارة منخفضة جداً، حيث يمكن بقاؤها حية إلى سنين طويلة جداً. ماذا نصنع بهذا "الجنين المستقبلي" إذا حدث شيء كوفاة الأب والأم مثلاً، أو لو امتنع الأبوان عن دفع رسوم الحفظ المكلفة؟ هل نوقف التبريد؟ ألا يعد هذا قتلاً لجنين؟ هل يمكن بيع الجنين لأسرة أخرى؟

آداب المهنة نظرياً.. وتطبيقياً

إصدار القوانين من جانب الحكومات لضبط عمليات زرع الأعضاء لا يمكنه أن يكون كافياً لتلافي الآثار الجانبية والممارسات غير الأخلاقية. فعلى سبيل المثال إن اللجوء إلى نقل الكلى من شخص حي لعلاج مصاب بفشل "لإنقاذ حياته" كما يقال، يبقى أمراً قابلاً للشك على مستوى نيّاته الحسنة. فعملية زراعة الكلى لا تنقذ المريض، لأنه يعالج بالفعل بالغسيل الكلوي. كما أن نسبة المضاعفات الناجمة عن زراعة الكلى ربما تفوق ما ينتج عن الغسل، فضلاً عن أن الضوابط والمحاذير التي وضعت للحيلولة دون اللجوء إلى أساليب ملتوية للوصول إلى هدف إجراء العملية، يشوبها الكثير من القصور.

يمكن حالياً لأي مريض بالفشل الكلوي أن يحصل على متبرع ليس له أية صلة قرابة به، وذلك من خلال شهادة من الطبيب المعالج تفيد بأنه مريض بمرض وراثي ولا يصلح له متبرع من العائلة، وعلى المتبرع الذي حصل عليه بالمال أن يكتب إقراراً بأنه متبرع بكليته لفلان دون مقابل.

وفي أحيان كثيرة يُساء اختيار المتبرع عن قصد أو عن غير قصد لسرعة الحصول على العضو. وهذا ينتج عنه فشل العملية للمتلقي حالياً أو مستقبلاً، كأن يحدث فشل كلوي بعد فترة للمتبرع الذي كان يجهل حقيقة ما به قبل التبرع. وهذه سقطة أخلاقية أخرى.

أما السقوط إلى القاع فقد حدث منذ فترة قصيرة في إحدى ورش العمل، حيث ناقشت زراعة الكلى في مرضى الكبد المصابين بفيروس "سي". وقد وجدتُ إصراراً عجيباً من الأطباء على القيام بزراعة الكلى في هؤلاء المرضى رغم الأضرار التي يمكن أن تصيبهم من جرّاء هذا العمل استناداً إلى بعض الأبحاث. بل وصل التمادي إلى أقصاه عندما أصرّ الأطباء على أخذ الكلية من متبرع مصاب بفيروس الكبد "سي" لمريض بالفشل الكلوي خال من الفيروسات، وهذا يعني حتمية نقل العدوى للمريض..!؟

سيطرة رجال الأعمال على الطب

إن الحصول على ترخيص يبيح الحصول على أعضاء المرضى الميؤوس من شفائهم والذي يطلق عليهم مرضى موت جذع المخ عملاً بقانون البقاء للأصلح ينقلنا آلاف السنين إلى الوراء، عندما كانت شريعة الغاب هي السائدة. فلماذا الإصرار على العودة إلى الوراء وتطبيق قانون الغاب في التعامل مع الإنسان؟

لقد أوصى الملتقى الأول لممارسات أخلاقيات مهنة الطب في الألف الثالث، الذي عقد بكلية طب قصر العيني بالقاهرة، بضرورة الالتزام بمراجعة أخلاقيات مهنة الطب، ومحاولة الحد من طغيان المادة وسيطرتها على الحياة، وسيطرة رجال الأعمال على مهنة الطب، وتجاوزات الأطباء وتدني مستوى الشباب الخريجين من الأطباء.

وإذا علمنا أن 90% من الإنفاق على الصحة في العالم يستفيد منه 10% فقط، و 90% من السكان لا يجدون ما ينفقونه على الصحة، وأيضاً 20% يستهلكون 80% من المصادر الطبيعية، وأهمها الغذاء، فإن هذا يدلنا على أن المستفيد الأول من الإنفاق على الصحة في العالم هم رجال الأعمال في المجال الطبي. وهناك بحوث كثيرة ناقشت قضية نقل الأعضاء وحقوق المتلقي والمتبرع وحق الحي والميت وهناك فتاوى شرعية أجازت استقطاع جزء من المتوفى لتحقيق أغراض علاجية لإنسان حي، حين تكون هناك ضرورة طبية وخطورة على حياة الشخص المتلقي أو نفع كبير. وقد أجريت الآلاف من العمليات في نقل القرنية من موتى إلى أحياء وكذلك نقل الجلد والعظام كما كان في السنوات الماضية بعد أن أصبح من السهل إنشاء بنوك للعيون وللعظام وللجلد لأن هذه الأنسجة يمكن أن تعيش لفترة خارج الجسم ويمكن استئصالها بعد ساعات من الوفاة. لكن يبقى حق المتوفى في عدم استئصال هذه الأجزاء إلا بموافقة مسبقة منه أو من وليه، وهنا ينشأ تساؤل حول إمكانية استئصال أجزاء من الجسم بعد الوفاة، فنحن في حاجة إلى التعامل مع هذه المسائل في شكل يحافظ على حقوق المريض المتلقي والمتبرع الحي وجسد الميت وممارسة الطبيب ومسؤولية المستشفيات وكافة الحقوق الإنسانية والشرعية.

ختاماً نشير إلى أننا لم نكن في هذه المقالة بصدد نقد فكر آخر وقيمه الأخلاقية، بل كان هدفنا لفت النظر إلى مسائل بالغة الأهمية بدأت تفرض ذاتها بإلحاح على المجتمعات الغربية. كما أننا نشير استطراداً إلى أن المسألة الأخلاقية في الطب تأخذ عندنا اتجاهاً مختلفاً. فالدين يفرض علينا حماية من لا عقل له، ويحرّم الانتحار، وفي اعتقادنا إننا مسؤولون عن أجسامنا وحمايتها، لكننا لا نملكها.. وإن يئسنا من العلاج فلا نيأس من الشفاء.

قطعة صغيرة من الشوكولاته كانت وراء اكتشاف كبير دخل بيوتنا، وازدهار صناعة ما زالت تتطور منذ نصف قرن.

قصة ابتكار

فرن المايكروويف

فعندما كان المهندس الإنجليزي بيرس ل. سبنسر منهمكاً في عمله على صناعة أحد أجهزة الرادار عام 1946م، مدّ يده إلى جيبه باحثاً عن شيء يأكله، ففوجئ بأن قطعة الشوكولاته التي يحتفظ بها قد ذابت ولوّثت ملابسه رغم أن الغرفة التي يعمل فيها كانت باردة. فكيف ذابت الشوكولاته؟

كانت مصانع "سبنسر" تعمل مع "شركة رايثيون" على تصنيع أجهزة رادار للجيش البريطاني. وكان سبنسر واقفاً بجوار صمام إلكتروني يشغّل جهاز الرادار. وأثارت قطعة الشوكولاته المنصهرة تفكير سبنسر. وأثناء عمله أرسل في طلب كيس من بذور الذرة وأمسك بها بجوار الصمام الإلكتروني، وخلال دقائق معدودة راحت حبات الذرة تنفجر وتتناثر في أرضية الغرفة.

وفي صباح اليوم التالي أحضر سبنسر غلاّية شاي وبعض البيض النيىء معه إلى المعمل، ثم قام بفتح ثغرة في جانب غلاية الشاي ووضع البيضة النيئة داخل الوعاء ثم صوّب الفتحة باتجاه الصمّام ولم تمض سوى بضع ثوان حتى انفجرت البيضة وتناثر قشرها وما بداخلها إلى خارج الغلاية ملطخاً وجه مهندس آخر يقف بالجوار.

علم سبنسر أن موجات الراديو القصيرة أو ما تسمى بالميكروويف هي السبب وإذا كانت قد طهت البيض بهذه السرعة فلم لا تفعل الشيء نفسه مع الأطعمة الأخرى؟

عرض سبنسر تجربته على المسؤولين في شركة "رايثيون" الذين استقر رأيهم على إنتاج أجهزة طهي تعمل بالميكروويف. وفي مطلع 1953م ظهر أول فرن بالميكروويف في الأسواق وقد كان وزنه نحو 340 كيلوجراماً وحجمه يقارب حجم الثلاجة، أما اسمه فكان "رادارينج" كما كان ثمنه 3000 دولار واقتصر استعماله على المطاعم والفنادق وقطارات السكك الحديدية.

ثم طرأت تحسينات عديدة على مدى العقدين التاليين على فرن الميكروويف فصغر حجمه حتى أصبح من السهل وضعه في مطبخ المنزل، والأهم أن سعره أصبح معقولاً ويقارب 100 دولار في بعض أنواعه. وأصبح العديد من البيوت اليوم يمتلك فرن الميكروويف وصارت الوجبات السريعة تعتمد عليه. وكل ذلك بفضل قطعة الشوكولاته التي ذابت في جيب بيرسي سبنسر.

قامت وحدة من سلاح الهندسة في الجيش البريطاني مؤخراً ببناء العربة العسكرية المصفحة التي كان الرسّام الإيطالي ليوناردو دا فنشي (1452 – 1529م) قد صمّمها وبقيت حبراً على ورق منذ ذلك الحين. وتبين أخيراً أن الرسم قابل للتنفيذ، وأن العربة يمكنها أن تسير.

قصة مبتكر

ليوناردو دا فنشي

إنه أشهر رسام في تاريخ الفن. ولكن لا بد لأي حديث عن فنه من أن ترافقه الإشارة إلى أن هذا الفنان كان أيضاً عالماً في الرياضيات والطب والطبيعة والفلك والكيمياء والميكانيك. حاول ابتكار رافعات ووسائل للطيران والغوص تحت الماء.. بعبارة أخرى إنه يلخص مفهوم «العالم» الذي كان شائعاً بين القرون الوسطى والقرن التاسع عشر الميلادي.

فما الذي ابتكره هذا الرجل ولماذا هذا الإجماع على عبقريته؟

كتب ليوناردو آلاف الصفحات في كل المجالات التي اهتم بها. وزيّن الكثير منها برسوم توضيح، لكنّه لم يحضرها للنشر. وتؤكد هذه النصوص والرسوم أنه قطع أشواطاً طويلة في كل حقل من حقول المعرفة اهتم به، وإن لم يصل إلى النهاية المتوخاة في معظمها.

ومن جملة ما كتبه هناك فقرات تلخص فلسفته في الابتكار فكان يقول: «إنّ على أصحاب العقول الكبيرة التفتيش من خلال العمل الذهني عن مفاهيم جديدة، وصياغة أفكار متكاملة، حتى ولو لم تتبلور لاحقاً على أيديهم هم بشكل ملموس».

ما نفهمه من هذا الكلام أن الابتكار هو في المقام الأول عمل ذهني، يحتل موقعاً متقدماً على التنفيذ الملموس. كما يشير هذا الكلام إلى أن تحويل ثمار العمل الذهني إلى ابتكار ملموس يحتاج إلى جهد أكثر من فرد إذا كان هذا الابتكار كبيراً. أي ما نسميه اليوم «عمل فريق». وهذا ما يفسر لماذا لم يتمكن ليوناردو دا فنشي من تنفيذ الطائرة المروحية التي رسمها أو الغواصة التي صَمّمها.



أما حيثما كانت القدرات الفردية كافية للتنفيذ مثل فن الرسم على سبيل المثال فإن أهمية العمل الذهني كما يراها دا فنشي تعني أن الفن ليس مجرد حرفة، وتقودنا مباشرة إلى المفهوم القائل بأن الفنان الكبير هو «عبقري». وهذا ما تؤكده الأعمال الفنية التي تركها هذا الرسام، وتفسر أيضاً قلة عددها نسبياً مع ما كان يتركه غيره من رسامي ذلك العصر.

اطلب العلم

إنسانية.. لا تلتقط أنفاسها

لا تعطي الاختراعات العلمية المتلاحقة الإنسانية فرصة كافية لالتقاط أنفاسها والتفكير في بعض الجوانب غير المطمئنة التي تظهر عليها.

ويجد المجتمع البشري نفسه اليوم مقحماً في ما يشبه المغامرات العلمية التي تتجرأ في نواح عديدة منها على طبيعة الخلق أو تكاد، ولا يملك المجتمع ما يكفي من الأدوات التي يستعين بها لتقييمها والحكم عليها... رفضها أو قبولها، تشجيعها أو محاربتها.

لا يريد أحد بطبيعة الحال أن يوقف العلم، ولا تشاء العلوم نفسها أن تنتقل من مكانتها المرموقة في تاريخ الإنسانية إلى قفص الاتهام، في عصر كان لها دور رئيس في صياغة شكله ومضمونه، خاصة أن الاتهام قد يصل إلى إهمال الإنسان وخير الإنسان، بل أيضاً تهديد مصيره، أو تحقيق الاختراع مهما كانت نتائجه فقط من أجل الاختراع.

يزيد من حجم المعضلة أن العلوم نفسها لا تستطيع في كثير من الحالات أن تقيس أثر اختراع لها في الإنسان سلباً أو إيجاباً، خاصة على المدى الطويل لأسباب عديدة أهمها شدة تعقيد مكونات الطبيعة وكائناتها.

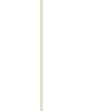
ولو وضعنا جملة الاختراعات الجديدة جانباً، فالإنسان يعيش يومه تحت تأثير اختراعات سابقة مضى على بعضها عقود عديدة. لا يعرف بالتأكيد أثرها في المدى الطويل إن لم يكن على أحياء اليوم فعلى ذريتهم في الغد.

ويشمل هذا أشياء لا حصر لها مثل العقاقير والمضادات الحيوية، والأدوات الكهربائية والإلكترونية التي يتعاظم جديدها كل يوم، ناهيك عن أساليب حفظ الأطعمة واللائحة تطول وتطول...

وعلى الرغم من قدم الإختراع في تاريخ الحضارات الإنسانية إلا أن اختراعات العصر الحديث تختلف في طبيعتها عن اختراعات العصور التي سبقتها بكونها أكثر تفاعلاً "وإشعاعاً"، وقد ملأت في فترة زمنية قصيرة نسبياً لاتكاد تزيد على قرن واحد محيط الحياة وأغرقته بمنتجات هجينة إذا جاز التعبير.

وما يزيد في قلق الإنسان أن الإختراعات العلمية تجره إلى أرض غامضة جديدة في حين لم تنته العلوم هذه من كشف غموض أمور كثيرة موجودة أساساً في حياته وبيئته ودنياه، ويجد نفسه وهو لا يزال يحمل أسئلة كثيره توارثت بعضها الأجيال حول مقومات الحياة والطبيعة وعناصرها وخيرها وشرها، وها هو يواجه اليوم بأسئلة جديدة أشد صعوبة وتحدياً لوجوده.

العلم لن يتوقف، ولن يمهلنا لتدبر أمر فهمنا وتقييمنا لنتائج الاختراعات المتسارعة عله لا يهملنا!!

كميل حوا 







زكي غوّاص

مصور سعودي شاب، من مواليد محافظة الأحساء عام 1400هـ (1980م). يعمل مصوراً لدى إدارة التربية والتعليم بالمحافظة.
أقام معرضين شخصيين: "للضوء لغة أخرى"، "حكايات ضوئية".
شارك في معارض تصوير ضوئي جماعية مختلفة.
وفاز بجوائز عديدة آخرها هذا العام تحقيقه المركز الأول في مسابقة مجلة "فوتوغرافي الشرق الأوسط".

ويبقى لك..

بين نصف رحيل ونصف بقاء..
تبقى الصورة ناقصة، والحلم مجرد أجزاء..
عيناك والضوء لك.. والحلم لا يكتمل
إلا بنظرة بعيدة وتأمل عميق.







زكي غوّاص

الأصلي وخلافه

تجذب قطع الغيار غير الأصلية الناس لشرائها بهدف توفير بعض النقود على الرغم من معرفتهم بمساوىء استخدامها. وفي بعض الأحيان يقع المستهلك الباحث عن قطع الغيار الأصلية في شراك القطع المزورة. وما بين هذه وتلك تزدهر تجارة غير الأصلي، حتى بات الاقتصاد السعودي على سبيل المثال يتكبد أكثر من بليون ريال سنوياً بسبب تجارة السلع المزورة أو المقلّدة.

فما هو الفارق الحقيقي بين ما هو أصلي وغير أصلي؟ هل هو فقط في السعر تبعاً لتدني كلفة اليد العاملة المصنعة أو في مدة صلاحية القطعة؟

لو أخذنا قطع غيار السيارات مثلاً لوجدنا أن القطع الأصلية هي تلك التي تصنعها الشركة الصانعة للسيارة نفسها. على أن ثمة شركات مختصة في تصنيع قطع الغيار بتراخيص من الشركات الصانعة للسيارات، وتنتج قطعاً مشابهة للقطع الأصلية ولكنها تصنّف على أنها غير أصلية. ولا فرق بين هذه والقطع الأصلية إلا باختلاف التكلفة وبتفاوت مستوى مراقبة النوعية في هذه البلدان.

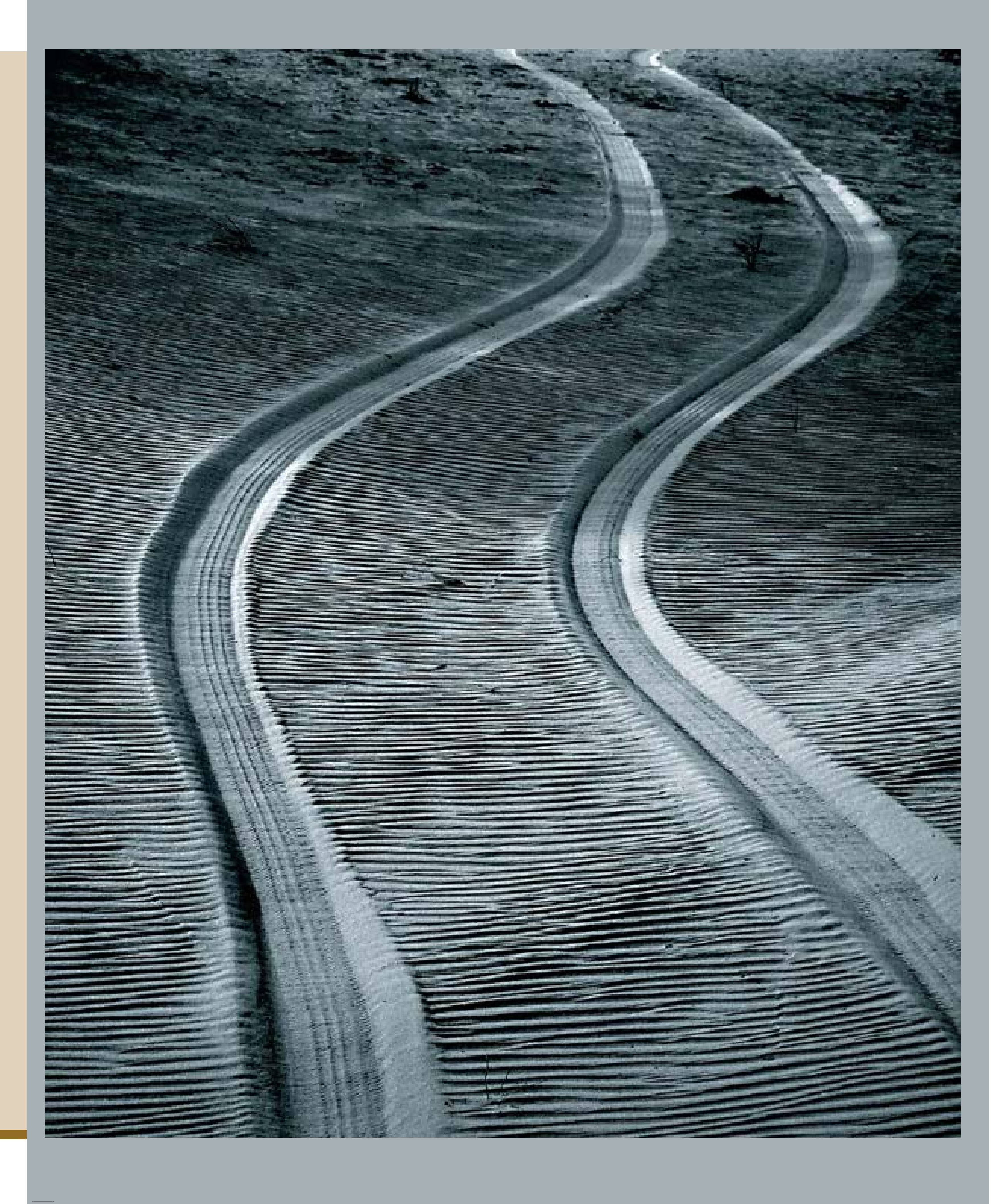
وثمة فئة ثالثة من قطع الغيار غير الأصلية تنتجها مصانع أو شركات غير مخوّلة بذلك، ويكون إنتاجها بالتالي مزوّراً ولا يمكن معرفة ما إذا كانت المواد المستخدمة جيدة أو ملائمة علماً أن القطعة تكون مشابهة تماماً في الشكل للقطعة الأصلية.

ومن قطع الغيار المزورة المعروضة في الكثير من أسواقنا العربية ما يصنفه بعض التجّار على أنه قطعة غيار أصلية "باب ثاني"، علماً أنه لا يوجد في تصنيف قطع الغيار ما هو "باب أول وثاني".

وفي حين أن بعض التقديرات تشير إلى أن الربح المادي العائد من البضائع المقلدة قد يصل إلى نحو 300 في المئة، تؤكد الدراسات حول حوادث السير أن نحو 30 في المئة منها يعود إلى استخدام قطع غيار مقلدة.

ويشبّه أحد المهندسين الميكانيكيين قطع الغيار غير الأصلية أو المزورة بأنها "قنبلة موقوتة" ولا يحصر المشكلة في هذا الجانب. فلكل إنتاج عمره الاستهلاكي إن كان أصلياً أو مقلداً. وإطار السيارة لا يقاس وضعه بالنقشة التي عليه إنما بدرجة جفافه، وكذلك "حزام" المروحة. والشركات التي تحترم نفسها هي التي تقوم بإتلاف ما انتهت صلاحيته من بضائعها. لكن ثمة شركات تبيع هذه البضائع إلى تجّار يعملون على تسويقها في بلدان تكون الرقابة فيها متدنية ليعاد بيعها على أنها قطع أصلية ومن ماركات تجارية بارزة. صحيح أنها كذلك، لكن هل يدري المستهلك أن "مدة الصلاحية" لا تشمل فقط الطعام، بل قطع الغيار أيضاً.

ناجية الحصري





وزارة الثقافة اليونانية

رويترز

تتجه أنظار العالم بأسره هذا الصيف إلى العاصمة اليونانية أثينا لمتابعة الألعاب الأولمبية التي صارت حدثاً عالمياً يُحتفل به كل أربع سنوات. وعودة الألعاب في دورتها الحالية إلى البلاد التي انطلقت منها قبل أكثر من خمسة وعشرين قرناً، يشكّل مناسبة لإلقاء الضوء على ما كانت عليه هذه الألعاب عند نشأتها، وما كانت تختلف فيه عن صيغتها المعاصرة التي أعيد إحياؤها عام 1896م.

الباحثة هدى بتروبولوس تمد هذا الجسر صوب الماضي، يساعدها على ذلك اللقاء الذي أجرته مع الأكاديمي المتقاعد والرياضي النشأة الدكتور نيكولاس يالوريس الذي عمل في الآثار اليونانية، وكان أيضاً نائباً فخرياً للكلية الأولمبية العالمية.

ΑΘΗΝΑ 2004

إحياؤها المعاصر غيّب بعض جوانبها

الألعاب الأولمبية.. تعود إلى أولمبيا

واكبت الألعاب الأولمبية القديمة تحولاً تاريخياً في الحضارة اليونانية. فبدايتها تعتبر الحد الفاصل ما بين عصرين في تلك المنطقة، العصر القديم الأول والعصر التاريخي. وما يعتبر عادة عصراً تاريخياً يبدأ عام 776 ق.م.، أي مع أول دورة أولمبية سجلت فيها أسماء الفائزين، وكانت تلك المعرفة هي الأولى لأسماء تاريخية حقيقية وغير أسطورية. ويقول الدكتور يالوريس: "جميع الأحداث في الفترة التاريخية كانت مؤرخة حسب روزنامة الألعاب الأولمبية، فيشار مثلاً إلى أن هذا الأمر حدث في السنة الأولى أو الثانية أو الثالثة من الدورة الخمسين أو الستين أو غيرها للألعاب، كما نفعل اليوم في تاريخنا ونعود إلى السنة الميلادية أو الهجرية".

الشعار المعاصر "الرياضة للجميع" كان مطبقاً في الماضي، فالمشاركون في الألعاب اليونانية كانوا من الفلاسفة والمزارعين ورعاة الغنم وغيرهم

وكان للألعاب الأولمبية، في هذا التحول الذي شهد نشأة المدينة-الدولة على أساس مواطنين أحرار، وظيفة سياسية وثقافية، فهي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بما اعتبر "الهدنة المقدّسة" بين هذه المدن، أي وقف كل المعارك بينها في فترة الأولمبياد وما قبلها وبعدها، وهذا ما تم احترامه، مع بعض الإستثناءات، ضمن مسار تاريخي طويل. وكانت المباريات الرياضية تترافق مع مباريات ثقافية وموسيقية في المراكز الدينية التي عرف منها إلى جانب "أولمبيا"، "دفني" و"نعمي" و"إيسموث". لكن أولمبيا كانت مركز التبارز الرياضي بامتياز. ويؤكد يالوريس أهمية أولمبيا بالإشارة إلى أن مدينة بكاملها تدعى "إيليس" - تبعد عنها 60 كلم شمالاً - كانت وظيفتها فقط رعاية تنظيم الألعاب كل أربع سنوات والعناية بالمركز الديني، وقيام مدينة-دولة على وظيفة واحدة وهي تنظيم الألعاب يمثل حالة شاذة في تاريخ اليونان القديم. إلا أن الألعاب الأولمبية لم تأتِ من لا شيء. فالرياضة في المجتمع اليوناني ما قبل التاريخي كان لها دور متميز بشكل لم تعرفه حضارة أخرى. ولم يكن اليونانيون أول من اخترع الفنون الرياضية. فقد سبقتهم إلى ذلك الحضارات الشرقية الأقدم، كما تبين الأدلة عن عدد من الرياضات التي مارسها المصريون القدماء ومنها المصارعة والملاكمة. وقد انتقلت هذه الفنون إلى اليونان عبر حضارة جزيرة كريت الوسيطة، إلا أن قدماء اليونان أصبغوها بطابعهم، كما فعلوا على نطاق واسع من المعرفة التي انتقلت إليهم أيضاً من الشرق.

أولمبيات 1

..من أولمبيا

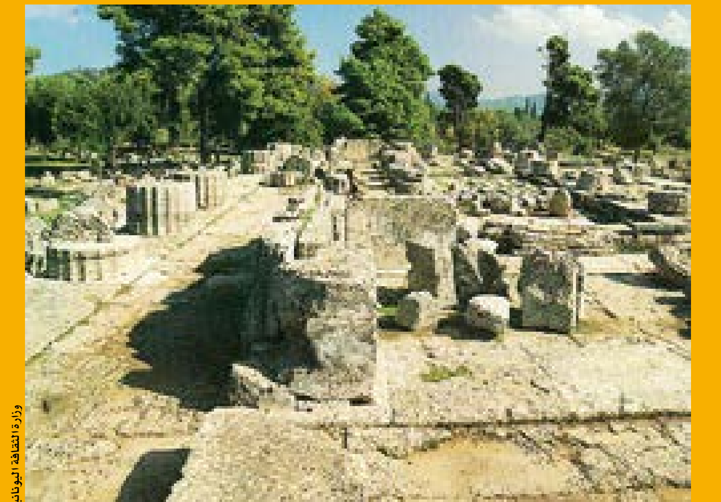
يقول أشهر شعراء الأولمبياد القدامى بندير: "لا يمكن أن نغني لتباري أعظم من أولمبيا... فكما هو الماء من أغلى العناصر، وكما الذهب من أكثر البضائع قيمة، وكما الشمس تلمع أكثر من أي نجم آخر، هكذا تشرق أولمبيا واضعة جميع الألعاب الأخرى في الظل". والمكان الذي كانت تجري فيه المباريات في أولمبيا لم يكن مدينة أو قرية، بل كان مقاماً دينياً وثقافياً، في غرب البولوبنيز، ويبعد 10 كلم عن البحر بين نهري ألفيو - وكليديو.

وفي زمن الألعاب الأولمبية كانت تعود رعاية المقام كما الألعاب إلى "الإيلياس" الذين بنوا على بعد عشرات الكيلومترات من المقام مدينتهم التي عرفت باسمهم، وتألفت من المدرج الرياضي وهيكل ديوس والجمناز للتدريب وقاعة اجتماعات كبيرة للمجلس التحكيمي وميدان المصارعة وميدان لسباق الخيل. وحتى اليوم لم يضف إلى ذلك سوى بعض الأبنية والمحلات والمقاهي السياحية لخدمة الآثار، لا بل إن مقاطعة الإلياس ككل تكاد تخلو من الكثافة السكانية، ولا يزال جزء منها غابات صغيرة وتلالاً خضراء لم تعبث بها يد البشر.

ويمكن أن نتصوّر كثافة الزائرين أثناء الألعاب الأولمبية ومن مختلف المناطق اليونانية ومنهم الرياضيون والرسميون والفلاسفة والفنانون.

وكان هناك أبطال ذاع صيتهم حتى أن بعضهم صُنِّف في مرتبة أعلى من البشر. ويقال إنه في استقبالهم لم تكن تفتح أبواب المدينة، بل يكسر حائطها ليعبروا من خلاله.

ومن أجل تحديد وقت الألعاب كل أربع سنوات كان يجري اتباع السنة القمرية، وتحصل الألعاب دائماً في ليلة اكتمال القمر بعد أطول نهار في السنة (21 يونيو في التقويم الشمسي) وعادة ما تكون هذه الليلة في شهر يوليو.



وزارة الثقافة اليونانية

فالرياضة كانت قد اخترقت جميع جوانب الحياة العامة واليومية في المجتمع اليوناني الذي تصفه ملحمتا هوميروس "الإلياذة" و"الأوديسية" في العصر السابق عن الفترة التاريخية. وتأسس منذ آنذاك مثال الرياضي على شاكلة "أوديسي" الذي لم يستطع أن يرفض التحدي عندما عُيِّر بأنه لا يعرف الرياضة. كما كان هناك مثال رياضي آخر هو "أخيل" الذي لُقِّب بذي القدم السريعة، حيث كانت القدرة على الركض تشكل أحد أهم الصفات. وقد وصف الشعراء بدقة المباريات الرياضية وتقنياتها المتقدمة، التي كانت تقام إما في الجنائز أو تكريماً لشخصيات بطولية أو ترافق احتفالات دينية.

شكّلت الرياضة جزءاً مكملاً للتعليم، وكان "الجمنازيوم" للتمارين الرياضية وأيضاً للتعليم ومن أشهر المتمرنين فيه سقراط

وتكتمل في المجتمع الذي وصفه هوميروس معظم الرياضات التي عرفتها في ما بعد الألعاب الأولمبية، كالركض ورمي القرص والرمح والقفز وسباق العربات والأحصنة، ومن حينها لم تعد المباريات الرياضية حكراً على مشاهير الأبطال بل تقام أيضاً بين شخصيات من الحياة الإجتماعية.

تحوّلات في المثل الرياضية.. "الأثليت" كتعبير

المثال الرياضي الأهم الذي تركه قدماء الإغريق هو مثال "الأثلوس". بدأ مثال "الأثلوس" في الأساطير الدينية وتطور ليأخذ بعداً أخلاقياً يرتبط بالممارسة في جميع الحقول وليس فقط الرياضية. فهو العمل الفردي المتميّز والفذ أو الشاق الذي يصقل الروح والجسد وينمّيهما، وفي الوقت نفسه يؤدي عملاً عاماً مفيداً. مكانته معنوية وليست مادية. وينطبق ذلك على كل ممارسة، سواء أكانت في الرياضة أو في المهنة أو في التعليم والتربية أو كتابة بحث.

كانت الشخصية الأسطورية لهرقل البطل الذي ارتبط به مثال الأثلوس، ومآثره الإثني عشر، تُسمى "الأثلي"، وكلمة رياضي "أثليتس" (Athlete) اشتقت منها. كان لأعمال هرقل دور في خدمة البشرية ونقلها من التوحش إلى التمدن. هذا المثال الرياضي اكتمل في القرن السابع ق.م. ويقول يالوريس عن هذا التحوّل: "من دون شك حصل ذلك في ارتباط وثيق بممارسة "الأثلتيكس" (Atheletics). وبالأثلتيكس لا نعني تمرين الجسم بل أكثر من

أولمبيات 2

سجلّ الألعاب القديم

ترك لنا قدماء اليونان سجلاً مهماً للمباريات الرياضية التي كانت تحصل في أولمبيا كل أربع سنوات، وهو يتألف من أسماء الفائزين في المباريات التي دوّنت منذ عام 776 ق.م. وتضمنت أيضاً الرسومات على الأواني الفخارية إفادات عن الألعاب واللاعبين، وساهم الفلاسفة والكتاب والشعراء بإلقاء مزيد من الضوء حول موضوع كانت له مكانة مركزية في الحياة الثقافية واليومية لذلك العصر.

ويدل هذا السجل على أن الألعاب تطورت من مباراة واحدة في سباق العدو المنفرد (بين الدورة الأولى والثالثة عشرة من عام 776 ولغاية 728 ق.م.) لتشمل في بدايات العصر الإغريقي الكلاسيكي ثماني عشرة مباراة وازدادت فترة الألعاب من يوم إلى خمسة أيام.

وأضيف سباق العدو المزدوج في الدورة الرابعة عشرة (724 ق.م.)، وسباق العدو الطويل في الدورة الخامسة عشرة (720 ق.م.)، والرياضة الخماسية "بنتاثليون" في الدورة الثامنة عشرة (708 ق.م.)، والملاكمة في الدورة الثالثة والعشرين (688 ق.م.)، وسباق عربات الأحصنة الرباعية في الدورة الخامسة والعشرين (680 ق.م.)، وسباق الأحصنة و"البانغراتون" (وهي مزيج من الملاكمة والمصارعة) في الدورة الثالثة والثلاثين (648 ق.م.).

وبعد العصر الكلاسيكي ومع بداية العصر الهيليني وفتوحات الإسكندر المقدوني نقلت الحضارة اليونانية ثقافتها الأولمبية الرياضية إلى مناطق مختلفة من العالم، ولم تعد المباريات حصراً على اليونانيين. ومع ذلك بقيت "أولمبيا" مركزاً مهماً لكنها فقدت الكثير من بريقها السابق، واستمرت هذه المسيرة بتراجع في العصر الروماني إلى أن قام الإمبراطور ثيوخسيوس بإنهائها رسمياً عام 393 ميلادي.



وزارة الثقافة اليونانية

ذلك. الفيلسوف أفلاطون كان "أثليت" وشارك في مباريات نعمي. أهم الفلاسفة لا ينسون أن يذهبوا مراراً وتكراراً إلى ألعاب تقام في دلفي أو أولمبيا أو نعمي. كانوا يفهمون الأمر كواجب من أجل دعم نشاطات تشكل جمعاً متناسقاً لجميع الجهود. ومن الأمور التي قلّما ننتبه إليها أن هرقل كان مثالاً ليس بسبب قوته ونزعته دون كلل ليقوم دائماً بعمل شيء ما، بل أيضا في العودة إلى فكرة ممارسة "الأثليتس" من أجل البشرية. كل أعماله كانت مقدمة للحضارة البشرية لكي تكون بعيدة عن التوحش".

ويضيف: "إن مثال البطل في الحضارة الميسانية ما قبل التاريخ (قبيل حروب طروادة حوالي 1200 ق.م.) كان مختلفاً. وروح المنافسة كانت مختلفة. كان حماس الرياضيين للفوز هو من أجل مكافأة مادية مثل المال والمجد والذهب، ولكن ذلك تغيّر منذ أول دورة ألعاب أولمبية جرى تنظيمها برعاية المركز الديني في دلفي، حيث قيل إنه يجب على اليونانيين تنظيم الألعاب وأن لا ينتظروا أية مكافأة غير إكليل من ورق الزيتون البري أو الغار. كانت هذه العظات تأتي من أفواه النساء، فالحكمة كانت على نحو صارم مرتبطة بالنساء".

كانت الأحداث في التاريخ اليوناني تؤرخ حسب روزنامة الألعاب الأولمبية كما نؤرخ اليوم بالعودة إلى السنوات الهجرية أو الميلادية

لقد درج بعض الكتّاب على الوقوف على أمثلة مغايرة لا تعود إلى مفهوم "الأثلوس" بل إلى المثال الهوميري للبطل "أخيل" والشعار "دائماً تفوّق وتغلّب على الآخرين"، أو إلى الشعار الروماني "الأعلى والأقوى والأفضل"، على الرغم من أن الألعاب في العصر الروماني عرفت انحطاطاً واضحاً نحو استعراضات على نطاق ضخم لم تخلُ من أنواع البشاعة كالمبارزات الدامية بين "الكلاديترز" أو مصارعة الحيوانات المفترسة. ويميل عدد واسع من الباحثين اليوم إلى التصدي لهذا الأمر ومعارضته. ويعودون في ذلك إلى الفيلسوف أفلاطون الذي ذهب أكثر من غيره في محاولة التخلص من عقدة "أخيل" وتخطي المثال التنافسي الذي شد اليونانيين إليه.

الرياضة للجميع: اللاعب والمشاهد

"الرياضة للجميع" هو الشعار الذي رفعته اللجنة الأولمبية العالمية في إحيائها الألعاب الأولمبية المعاصرة عام 1896م وهو شعار لمرحلة سبقتها بـ 3000 سنة. فأسماء الفائزين في دورات العصر القديم كان من بينها طبّاخ ومزارع وراعي غنم وغيرهم، وعلى غير عادات اليوم، كان الجميع

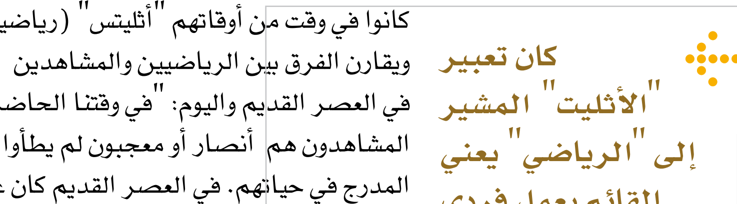
أولمبيات 3

الهدنة الأولمبية شرط وقاعدة

لم يكن للألعاب الأولمبية أن تحصل وأن يأتي لمشاهدتها أعداد مؤلفة من جميع أنحاء اليونان لولا القاعدة الأساسية التي استندت إليها، وهي الهدنة الأولمبية بين جميع المدن اليونانية. والهدنة تكون فاعلة في وقت قصير سابق ولاحق على الألعاب، وهو الوقت الذي لا يسمح خلاله بأي شكل من أشكال الصراعات العسكرية. وكذلك لا يسمح للمسلحين بدخول مقاطعة الإلياس التي تقع فيها أولمبيا. وهذه الهدنة التي اختلف في تقديرها بين شهر وثلاثة أشهر وحتى عشرة، تسمح للرياضيين والمشاهدين بالانتقال دون مخاوف حتى داخل أراضي أعدائهم.

رياضيين، وبالتالي فإن جمهور المشاهدين لم يكن من الهواة.

يقول يالوريس: "إن الزائرين المشاهدين في أولمبيا كانوا في وقت من أوقاتهم "أثليتس" (رياضيين). ويقارن الفرق بين الرياضيين والمشاهدين في العصر القديم واليوم: "في وقتنا الحاضر المشاهدون هم أنصار أو معجبون لم يطأوا ساحة المدرج في حياتهم. في العصر القديم كان عدد كبير من الفائزين في المباريات أناساً عاديين. من بين الأولمبيين أيضاً كان هناك أفلاطون، كما أن بعض الفائزين لعبوا في ما بعد دوراً مهماً في السياسة وشؤون البلد. المثقفون والكتاب اليوم لا يهتمون بالذهاب إلى نشاطات رياضية، والأمر كان على عكس ذلك في العصر القديم، فجميع الفلاسفة ذهبوا إلى أولمبيا ودلفي ونعمي، رغم أن المواصلات كانت صعبة جداً ووقت الألعاب كان في أحر أيام الصيف. وأذكر في هذا المجال أحد الحكماء السبعة، ثايلز من ميليتوس في آسيا الوسطى، الذي توفي عن عمر متقدم أثناء حضوره الألعاب بسبب شدة الحر". كما أن معركة الماراثون مع الفرس تشهد على "رياضية" مواطني أثينا، "فكل مواطنيها كانوا "أثليتس"، أي كان هناك 10,000 رياضي"، يقول لنا يالوريس.



التعليم والحدود والقياس

كان للرياضة في العصر القديم موقع في إطار حياة الإنسان المدنية ككل، وشكلت جزءاً متكاملاً من تعليمه. ولا يمكن قراءة أي كتاب يتعلق بأولمبياد العصر القديم إلا ويبرز موضوع تعليم الشبّان بشكل رئيس. كان هناك تقدير لشمولية التعليم، بحيث لا يهدف إلى تحسين قدرة واحدة للمرء قد تجعله بطلاً غير قادر على العمل في حقول أخرى. ويؤكد محاورنا هذه الفكرة على الشكل التالي: "يجب أن نعرف أولاً أن الألعاب لم تكن فقط من أجل التسلية، كما تدّل عليه كلمة رياضة اليوم. ولذلك أنا أفضِّل كلمة "أثليت" لكي يبقى حاضراً في ذهننا المثال خلف كل نشاط إنساني في الزراعة أو البحث أو في محاولة تطوير قدرة ما للجسم. إن التخصص بنشاط وحيد كان مرفوضاً جداً. لقد عمل سقراط وأفلاطون وغيرهما من أجل التمرين الشامل لكل قدرات الإنسان وليس فقط لشيء واحد يمكن أن يؤدي إلى تشوهات في عقلية البشرية".

والمسألة الأخرى هي تدريب الإنسان على معرفة حدود طاقته والحاجة إلى العمل بالقياس في كل

أولمبيات 4

الألعاب الأولمبية في معرض القدح

في عام 388 ق.م.، في دورة الألعاب الأولمبية الثمانية والتسعين سجلت أول رشوة حصلت في الألعاب، وهناك أيضاً عدد آخر من الحالات التي سجلت بعد ذلك التاريخ. وكانت عقوبة المرتشي غرامة مالية تخصص لإقامة تمثال نحاسي، عرف باسم "زان"، عادة ما تكتب عليها الفعلة، وعبارة تقول مثلاً: "الرياضي الذي يجب تتويجه هو الأسرع والأقوى في الجسم وليس من يدفع رشوة". ولا تزال قواعد تلك التماثيل موجودة في الآثار الأولمبية ويستطيع الزائرون اليوم أن يروها عند مدخل المدرج الرياضي وفي الممر الذي كان يعبره الرياضيون عادة.

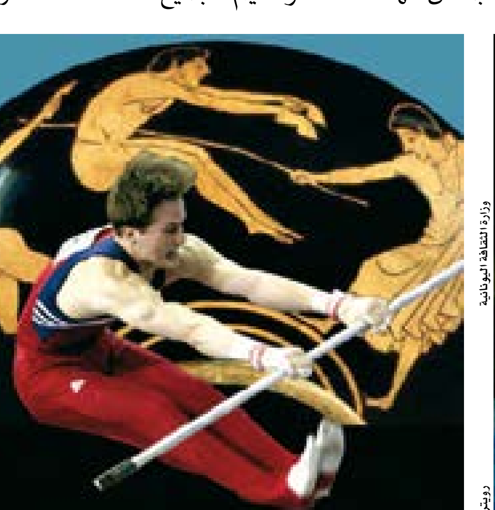
وهذه الإغراءات الفردية شجّعتها شهرة الألعاب الأولمبية والاهتمام الشعبي بها، بحيث باتت تدر منفعة شخصية على اللاعبين بما يُغدق عليهم من تشجيع وهدايا، كما أنها شكلت فرصة للأغنياء والملوك ليزيدوا من مقامهم وشعبيتهم. لكنها أيضاً عكست التحول في طبيعة الألعاب نحو مزيد من الاحتراف في الربع الأخير من القرن الخامس. وفي الوقت نفسه بدأ المقام يتأثر بالمنافسة السياسية بين المدن، ووصل ذروته مع فيليب المقدوني وابنه الإسكندر اللذين أقاما نصباً تذكارياً للعائلة ضمن الهيكل.



مهام يقوم بها. وكلمة "هوبريس" اليونانية القديمة تعني فقدان القياس ومرادفها الإنجليزي الغطرسة. و"الهوبريس"، أو الاعتقاد بامتلاك إمكانيات أكثر مما لدى المرء كان من أسوأ الصفات بالنسبة للمرء في ذلك العصر. والمثال على ذلك كانت صورة البطل الأولمبي دياغورس الذي تقدم به السن وحمله ولداه وهما أيضاً بطلان أولمبيان إلى المدرج وواجهته أصوات من الحضور تقول "ستموت ولن يمكنك أن تصل إلى أوليمبوس".

> كما الماء من أغلى العناصر وكما الشمس تلمع أكثر من أي نجم، هكذا تشرق أولمبيا واضعة جميع الألعاب الأخرى في الظل

لقد واجه الفلاسفة في عصرهم التغيير الذي طرأ على الألعاب الأولمبية نحو التحول إلى احتراف في أواخر القرن الرابع. فقد عارض أفلاطون التدريب الوحيد الجانب للجسد معتبراً أن الرياضيين الذين تدربوا بشكل تعسفي من أجل المنافسة وقعوا في حالة من التخدير في ما تبقى من حياتهم. وكذلك اعتبر أرسطو أن التعليم البدني لا يجوز أن يقود إلى عدم الاعتدال لأن ذلك سيحطم تناسق الجسم، وأن التعليم البدني هو علم يأخذ في الاعتبار أي نوع من التدريب ملائم لمعظم الناس، ولجميع الناس بشكل مثالي، بما أن الهدف منه هو تعليم الجميع.



وارتبط التعليم في اليونان القديمة بمكان "الجمنازيوم" الذي كانت تجري فيه التمارين الرياضية على أنواعها، ولا يمكن تصّور مدينة من دونه، كما هو حال المدرج والمسرح والهيكل. وكان هناك أيضاً "الباليسترا" (وهو مكان للمصارعة أصغر حجماً) و"الهيبودروم" لسباق الخيل. والجمنازيوم كما يقول يالوريس: "هو أصلاً مكان قرب نهر أو نبع يلتقي فيه الشبان مع رجال أكبر سناً يقومون بمهام النظّار والمراقبين، وما لبث أن تحوّل إلى مبنى في القرن السابع ق.م. ولم يكن الجمنازيوم مكاناً لتمرين الجسم فقط، بل أيضاً للتعليم، ومعروف أن سقراط كان متحدثاً دائماً في جيمناز أثينا".

الحاضر في ظلال الماضي

نخرج من حديثنا مع الدكتور يالوريس بثلاث محطات تخص الحالة الأولمبية اليوم بعد رسم بعض معالم من الماضي. فهناك ضياع لكلمة "أثليتيكس" (Atheletics) بعد استحداث كلمة "سبورت" (Sport) في القاموس المعاصر منذ أواخر القرن التاسع عشر. "إذا أردنا أن نعدل"، يقول محاورنا، "يجب أن ننسى كلمة "سبورت" ونركّز على كلمة "أثلوس" و"أثليت". فالـ"سبورت" هو فقط للّهو وملء الفراغ في وقتنا الحر. وأثليتكس هو الجهد من أجل التحسين والتطوير لصالح البشرية". أما المسألة الأخرى فهي موضوع "الرقم القياسي" في أولمبياد اليوم، أي محاولات القفز فوق الحدود والقياس، و"هي مسألة خاطئة لأنهم بذلك يصنعون من أنفسهم آلة تقاس قوتها بالأحصنة".

أما المشكلة الأساسية التي تهدد جوهر الفلسفة الأولمبية اليوم فهي "تّجير" الألعاب، أي تحويل الحدث من أجل التجارة والربح. وفي هذا المجال يقول يالوريس عن نفسه إنه "صوت يصرخ في الصحراء" لأن معظم الأشخاص الذين هم في موقع السلطة على الرياضة هم أيضاً رجال أعمال وسياسيون. ويقدم مثالاً لهذا الوضع الصعب ألعاب أطلنطا في 1996م التي اختزلتها دعاية واحدة للكوكاكولا. إلا أنه يأمل بالتعاون مع الأكاديميين الذين يشاركون في المؤتمرات السنوية أن ينجحوا في مواجهة الإغراءات والمنافع، إذ تسعى هذه المؤتمرات إلى "صقل روح التعاون الوّدي بين الأمم والشعوب، وهو أمر لن نكف عنه"، حسب قوله.

ويختتم يالوريس حديثه بالقول: "الألعاب القديمة لم تخلُ من العيوب. العديد من الأمور كانت خاطئة، لكن الأخطاء كانت استثناءات وليست قاعدة. كانت هناك رشوة، وكانت تدفع مبالغ من المال للخصوم لكي يتخلوا عن الفوز. وكان هناك بعض الأمور المسموح بها كتوجيه ضربة في الملاكمة ما دون البطن. لكن بقي هناك مثال يجب تحقيقه... المساهمة الكبيرة لليونانيين القدماء هو هذا المثال كيف تصبح متكاملاً وحراً وسعيداً".



أولمبيات 5

الإنسان العاقل والجميل

على الرغم من الدور المركزي للرياضة في حضارة اليونان، فإن الرياضة لم تكن حالة منفصلة، بل جزءاً من صقل وتهذيب قدرات المرء بشكل عام، ومنها قدراته الذهنية أيضاً. والألعاب الرياضية لم تكن الشكل الوحيد للمنافسة، بل حصلت إلى جانبها مباريات في الموسيقى، وحيث كان المدرج الرياضي والمسرح لا غنى عنهما كما الهيكل والمذبح. وكان للدين واللغة موقع جامع لعموم اليونانيين المتفرقين في المدن-الدول المستقلة، حيث كانت تجري المباريات الرياضية والموسيقية وغيرها من الفنون لعموم اليونانيين.



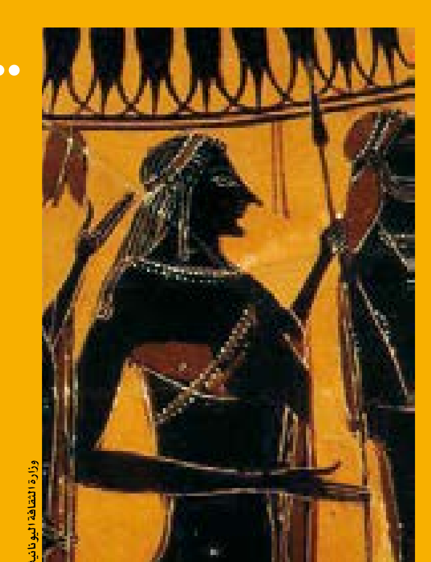
رامي القرص.. تحفة فن النحت اليوناني القديم في تكريمه لواحدة من أشهر الرياضات الأولمبية..

وعكست هذه الثقافة الجامعة روح حرية العصر وديموقراطيته، بما أنها تجعل المرء قادراً على العيش مع حريته ومسؤولياته المتأتية عنها وعلى الإيمان بنفسه جسماً وعقلاً. مثال المرء حينها كانت تختصره كلمتا "كالوس كاغاثوس" اللتان تقاربان معنى "الجيد/العاقل والجميل". ويصعب اليوم فهمها بشكل فعلي خارج عصرها، تماماً كما لا يمكن فهم مثال الفارس خارج مضمون القرون الوسطى في أوروبا. إلا أن أولويات التعليم اختلفت بين مدينة وأخرى. فسبارتا التي عرفت بميولها العسكرية هدفت إلى خلق المحارب الأمثل، بينما رعت مدينة أثينا، التي امتازت بديموقراطيتها، هدف بناء الإنسان "العاقل والجميل". ويختصره بيريكليس الممثل السياسي لأثينا كالتالي: "حب الجمال من دون مبالغة وحب الحكمة من دون أن تكون ضعيفاً". وكان التعليم الموسيقي يرافق الرياضي للتركيز على الإيقاع والتجانس. فالموسيقى شكّلت الرابط بين النشاط الجسدي والذهني، وتواصل الرقص بالتمرين الرياضي والأغنية بالشعر.



أولمبيات 6

النساء والألعاب



كان من قوانين الألعاب الأولمبية عدم السماح بمشاركة النساء لا في المباريات ولا في المشاهدة. لكن كان هناك بعض الاستثناءات مثل حضور كاهنات الهيكل الديني، وفي الرياضات الأرستقراطية مثل سباق الأحصنة وعرباتها، حين تكون ملكية العربية أو الحصان عائدة إلى امرأة. كما أن العذارى لم يمنعن من المشاهدة. ونعرف فقط حالة واحدة شذّت فيها امرأة عن القاعدة، وهي رغيلا، التي لم تعاقب لمشاركتها تقديراً لعائلتها، فوالدها وزوجها وأولادها كانوا أبطالاً رياضيين.

إلا أن النساء مارسن الرياضة بشكل مستقل. وكانت تجري مباريات نسائية خاصة في سباق الركض والقفز في إطار ديني مماثل لمباريات الرجال. وهناك تماثيل ورسومات تظهر بعض النساء أثناء قيامهن بهذه الرياضات. ويختلف الأمر من منطقة لأخرى، فمدينة سبارتا عملت على تشجيع نسائها على الرياضة والتباري أكثر من أية مدينة أخرى.

صيانة التكييف

صناعة موسمية لدرء الأخطار

في الصيف، خاصة خلال الصيف، يشتد الضغط الذي نمارسه على مكيّف الهواء، هذا الجهاز الذي صار حاضراً أبداً في بيوتنا وأماكن عملنا، والذي باتت تعتمد عليه راحتنا ورفاهيتنا.
والصيانة بشقّيها الوقائي والتصحيحي وحدها تستطيع أن تضمن لأجهزة التكييف استمراريتها وقدرتها على العطاء بالفاعلية القصوى وتحمي الاستثمار فيها، وتضبط تكلفة إصلاحها. وفيها ما يتجاوز ضمان أداء المكيف، ليشمل جوانب صحية واقتصادية كما تؤكد المعلومات التي استقيناها من المهندس المختص **نبيل خمّار**.

ممّ يتألف المكيف؟

يتألف مكيف الهواء من قطع وأجزاء عديدة تتكامل وظائفها لتأدية مهمة مشتركة ألا وهي تعديل الجو في الأماكن المغلقة، بحيث يصبح مريحاً لجهة الحرارة والرطوبة ونقاوة الهواء. إن تعرض أية قطعة من المكيف لعطل أو ضرر ينعكس على أداء المكيف ككل وقد يؤدي إلى تلف في قطع أخرى، نشير إلى أهمها، وهي:

1. الضاغط (Compressor)، ويوجد منه أنواع مختلفة. إن طاقة التبريد لأي جهاز تعتمد بشكل رئيس على طاقة الضاغط. ويعمل الضاغط عادة بسرعة دورات ثابتة، مما يحتم عليه العمل بشكل متقطع. ولهذا نرى الجهاز يبدأ بالعمل، ومن ثم يتوقف مرات عديدة خلال فترة التبريد. وعادة يستخدم ضاغط واحد في الأجهزة الصغيرة والمتوسطة، وأكثر من واحد في الأجهزة الكبيرة.
2. المبادلات الحرارية (Radiators). ويستخدم عادة مبادل حراري واحد للتبريد (Evaporator) ومبادل حراري واحد كمكثف (Condenser). وتصنع المبادلات عادة من مواسير النحاس ولدائن الألمنيوم.
3. مروحة دفع الهواء الداخلي.
4. مروحة دفع الهواء الخارجي.
5. وحدات تنقية الهواء (Air Filters)، ويجب التنبه هنا إلى أن هذه المصافي تُصنع من مواد وسماكات مختلفة، تنعكس على فاعلية تنقيتها للهواء، خاصة في مجال إزالة جزيئات الغبار الصغيرة.
6. لوحة تغذية الجهاز بالكهرباء والتحكم به.
7. وحدة تسخين الهواء الكهربائية.
8. مواسير غاز التبريد مع الصمامات واللوازم وغاز التبريد.
9. وحدة التحكم بالحرارة والرطوبة.

أبرز المتاعب والأعطال

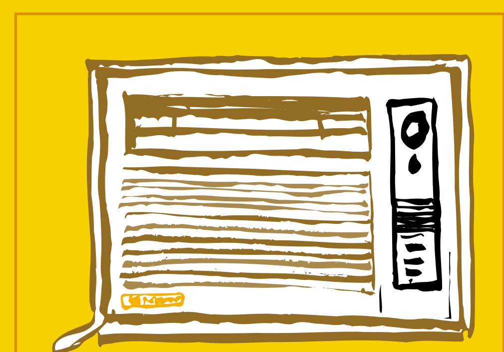
وبما أن أجهزة التكييف هي ميكانيكية الحركة، فإنها تصاب بأعطال معينة بمرور الوقت، وقد تصل هذه الأضرار إلى فقدان الفاعلية تدريجاً، ثم تلف بعض الأجزاء والتوقف عن العمل جزئياً أو كلياً. ومن أبرز هذه الأعطال:

1. انسداد منقيات الهواء (الفلاتر) بالغبار والجزيئات الصلبة التي تتراكم عليه، الأمر الذي يخفض نسبة الهواء البارد المدفوع إلى الداخل، ويزيد من الضغط على المروحة.
2. تسرّب غاز التبريد من خلال تفسخات صغيرة قد تظهر على الأنابيب نتيجة التقلبات الحرارية أو عوامل الزمن. وإذا تسرب الغاز جزئياً تنخفض فاعلية المكيف، الأمر الذي يؤدي إلى استهلاك للطاقة أكبر بكثير من المفروض. وإذا تسرّب الغاز بالكامل، تنعدم قدرة المكيف على التبريد.
3. تجمّع الغبار على المبادل الحراري للمبخر الأمر الذي يؤدي إلى حدوث عفونة عند اختلاطها بماء التكييف ونمو البكتيريا.
4. التواء لدائن المبادلات الحرارية المصنوعة من النحاس والألمنيوم، مما يؤدي إلى تخفيض فاعليتها.
5. انسداد حركة الهواء في محيط المكيف من الخارج والداخل، الذي لا ينعكس فقط على طاقته التبريدية بل قد يزيد أيضاً من الضغوط عليه بكل ما في ذلك من استهلاك إضافي للطاقة، واحتمال وقوع أعطال فيه.

لحماية المكيف وخفض الاستهلاك

والى جانب الصيانة من قبل المهندس أو الفني المختص، فلمستخدم جهاز التكييف دور كبير في حمايته من الأعطال وإطالة عمره وتخفيض استهلاكه للطاقة، ولأجزائه الداخلية أيضاً. ومن أهم ما يجب أخذه بعين الاعتبار في هذا المجال ما يأتي:

1. عدم الإكثار من إطفاء المكيف وإعادة تشغيله. إذ يستحسن ألا يعاد تشغيل المكيف إلا بعد عشر دقائق، وبعض الأجهزة يحتوي على عداد زمني لهذه الغاية.
2. تشغيل المكيف بواسطة الضابط الحراري (الترموستات) وليس بواسطة مفاتيح الكهرباء.
3. الحرص على نظافة الموقع المحيط بجهاز التكييف بحيث يبقى بعيداً عن جملة أشياء يمكن أن تدخله مثل أوراق الشجر من الخارج، أو البخار المتصاعد من المطبخ أو من غسّالات الملابس وما شابه في الداخل.. كذلك يجب رفع كل العوائق التي قد تعرقل حركة الهواء في جوار المكيف.
4. عدم ترك الأبواب والنوافذ مفتوحة، لأن ذلك يسرّب الهواء المبرّد إلى الخارج، ويرهق المكيف الذي يصبح عليه العمل لفترة أطول كي يصل بالبرودة إلى المستوى المطلوب.
5. يستحسن استخدام موانع لدخول أشعة الشمس إلى الأماكن المكيفة، سواء أكان ذلك من الخارج لإضافة ظل على النوافذ، أو من الداخل بواسطة الستائر، أو فيلم عاكس للحرارة على الزجاج. فضوء الشمس المباشر يرفع الحرارة، ويزيد من دون طائل المجهود المطلوب من المكيف.
6. إطفاء الإنارة غير الضرورية، خاصة خلال فترة الغياب أو النوم، وأيضاً إطفاء كل الأدوات الكهربائية غير الضرورية. لأن الإنارة والأجهزة الكهربائية تعتبر من المصادر الداخلية للحرارة.
7. وأخيراً ضبط درجة الحرارة المطلوبة عند مستويات معتدلة. ولا بأس في رفع هذا المستوى خلال الغياب عن المنزل. لأن الجسم سيشعر بالبرودة والراحة خلال العودة إليه من خلال الفارق مع الحرارة في الخارج. لا بل من الأفضل ألا يكون هذا الفارق كبيراً عند الانتقال من مكان حار إلى آخر مكيّف.



صيانة المكيف واكتساب عادات سليمة في تشغيله:

- يزيد من فعالية التبريد،
- يطيل عمر المكيف،
- يخفض استهلاك الكهرباء،
- يحمي المنزل من الحوادث

الصيانة الوقائية والتصحيحية

تهدف الصيانة الوقائية إلى التأكد من سلامة أجزاء المكيف كافة وحسن أدائها لوظائفها استباقاً لوقوع أية أعطال محتملة. وتتخذ شكلين من المعاينة:

1. المعاينة العامة قبل بدء موسم التبريد (وموسم التدفئة إن وجد) أي مرتين في السنة.
2. المعاينة الدورية للقطع الرئيسة في جهاز التكييف مرة كل شهر أو شهرين حسب الحاجة.

وتشمل الصيانة الوقائية بشكل خاص:

1. تنظيف منقيات الهواء (الفلاتر) أو استبدالها مرة كل شهر وأحياناً خلال أقل من شهر.
2. قياس كثافة غاز التبريد وضبطها، بحيث تبقى عند المستوى الموصى به من الجهة المصنعة من دون أية زيادة أو نقصان.
3. تسليك مصارف مياه التكثيف المجمعة من المبخر.
4. تنظيف المبادلات الحرارية بالفرشاة والمشط.
5. إعادة تقويم لدائن المبادلات الملتوية باستخدام مشط خاص.
6. معاينة التوصيلات الكهربائية وأجهزة التحكم والاطمئنان إلى سلامتها.

إضافة إلى ذلك هناك الصيانة الطارئة أو الصيانة التصحيحية التي يجب القيام بها عند استشعار أي خلل مهما كان بسيطاً، مثل:

1. الملاحظة أن المكيف لا يفي بنسبة التكييف المتوقعة منه، أو تلك التي اعتدنا عليها.
2. صدور صوت قوي أو ضجيج ملحوظ عند تشغيله (إقلاع المروحة أو الضاغط).
3. وجود بقع هوائية باردة وأخرى دافئة في المكان نفسه.
4. انبعاث رائحة غير مستحبة منه عند تشغيله.
5. ارتفاع فاتورة الكهرباء بشكل كبير عمّا كانت عليه.

صورة شخصية

محظوظ ذلك الذي تسمح له ظروف الحياة بالبقاء، حيث عاش طفولته وشبابه، فكيف الحال إذا كانت مهنته تقضي، أيضاً، بالحفاظ على هذا المكان كما كان في الزمن الماضي؟ هذا هو حال المهندس سامي نوّار، الذي التقته القافلة لتكتشف صورته الشخصية.

ولد في "البلد" وترعرع في أزقتها

سامي نوّار.. يراقب جدة القديمة ويرمم مبانيها

"وقع السقف يا عم سامي!" كانت هذه الجملة هي أول ما قاطع لقاءنا مع مدير إدارة حماية منطقة جدة التاريخية، المهندس المدني سامي نوار، وذلك عندما دخلت عليه مجموعة من الشبان الذين يعملون هناك بشكل مفاجئ يحملون إليه الخبر. استأذن منا فوراً وخرج لمعاينة الموقع، وطلبنا اللحاق به فوافق.

عشقه بين السماء والأرض. في رحلات خاصة عبر الصحراء يراقب النجوم ويسبر أغوارها بـ (تلسكوبه) الخاص، أما على الأرض فإنه يعشق مدينة جدة، خاصة المنطقة التاريخية منها، كيف لا وهو ابنها الذي ولد في أحد بيوتها وتربى في حاراتها ودرس في مدارسها وكتاتيبها؟! تسمع منه كلمات تدل على حميمية العلاقة التي يحتفظ بها تجاه المباني التي يدير الحفاظ عليها من قبيل: "كرامة المبنى" و "احترامي للأصالة العربية في المبنى". فيتعامل مع مئات البيوت القديمة وكأنها أبناؤه، أو ربما أجداده الذين يحمل لهم الكثير من التبجيل والإكبار.

السقف الذي وقع كان لإحدى الغرف في مبنى قديم من مباني جدة التارخية يزيد عمره عن المائتي عام، وتسكنه أسرة هندية كان ربّها يتوسل المهندس سامي بألا يجبرهم على مغادرة المنزل بعد وقوع سقف احدى غرفه. فقد كان على المهندس معاينة المبنى وتحديد ما إذا كان سوف يُصنّف ضمن البيوت التي تعد في حال الخطر، وبالتالي يُخلى من سكانه أم أنه سيسمح بترميمه وعودة سكانه إليه؟! وتبلغ نسبة المنازل الآيلة للسقوط في جدة 13 في المئة من بين 500 منزل.

هذا جزء يسير من العمل الذي يقوم به المهندس سامي ضمن مهامه المستمرة في حماية وتطوير المنطقة التاريخية، ويليه التعامل مع هذا المبنى وغيره من تقييم وترميم وإصلاح على يد "معلمين" سعوديين قلائل، يمكنهم الترميم بالطرق القديمة نفسها في البناء، ثم تطوير فهم الناس لأهمية المنطقة التاريخية ثقافياً، وصولاً إلى إحياء وتأهيل المنطقة بطريقة تجعلها استثماراً سياحياً ناجحاً يمول نفسه.

ولد المهندس سامي نوّار عام 1959م في أحد منازل ما يعرف بمنطقة "البلد" أو جدة القديمة التي هي اليوم أحد أحياء المدينة الحديثة، وحتى عام 1948م لم تكن مساحتها تتجاوز كيلومتراً مربعاً واحداً داخل سور يحيط بها. هذا الكيلومتر المربع هو ما أطلقت عليه تسمية منطقة جدة التاريخية التي تحتوي خمسمائة منزل تقليدي تتراوح أعمارها بين المائة وخمسين سنة، إلى الأربعمائة سنة.

في رمضان من عام 1411هـ، صدر القرار بإنشاء إدارة لحماية المنطقة التاريخية، وتضمن القرار تعيين المهندس سامي نوّار مديراً لها، لتصبح مسؤوليته العناية بالمنطقة التي ولد وتربى ولعب في أرجاء حاراتها. إنها حضن ذكريات طفولته، وبين الأزقة الضيقة وخلف الرواشين الخشبية وعلى أرضيات كتاتيبها ومقاعد مدارسها تكونت مداركه الأولى، ثم وجد نفسه طالباً في المدرسة السعودية الموجودة في موقع طفولته ذاته، ثم دارت الأيام معه في إكمال دراسته في مدرسة الفاروق ثم مدرسة الشاطئ قبل أن يبتعث للولايات المتحدة لدراسة الهندسة في جامعة ولاية كاليفورنيا في "ساكرامنتو".

المنزل الذي ولد فيه سامي لا يبعد أكثر من أربعين متراً عن موقع مكتبه في (بيت نصيف) اليوم. وعندما دخلنا للقائه وجدنا حوله العديد من الشبان وقليلاً من "الشيّاب"، اكتشفنا لاحقاً أنهم من فريق العناية بالمنطقة، حيث اتخذ القرار بترميم البيوت القديمة بالطريقة نفسها التي بنيت بها أصلاً، مما يستدعي خبرات البنائين القدامى ونشاط المتدربين الجدد على أساليب البناء "الجدّاوية القديمة". وهناك أيضاً 17 في المئة من هذه المنازل مهجورة دون سكان، ويكلف إصلاح كل منزل منها ما معدله ثمانين ألف ريال سعودي.

خليط من الأساليب

كانت جدة من أولى المدن التي تم تقسيم مبانيها تاريخياً في الشرق الأوسط. ويقول المهندس سامي إن أسلوب البناء المتميز لمنطقة جدة التاريخية ليس "جداوياً" صرفاً، بل هو طراز يجمع خليطاً من الأساليب المعمارية التي تعتمد على مواد محلية تميّز بها كثير من معمار المدن والقرى الساحلية على شاطئ البحر الأحمر في السودان واليمن ومصر والأردن وإريتريا وغيرها.

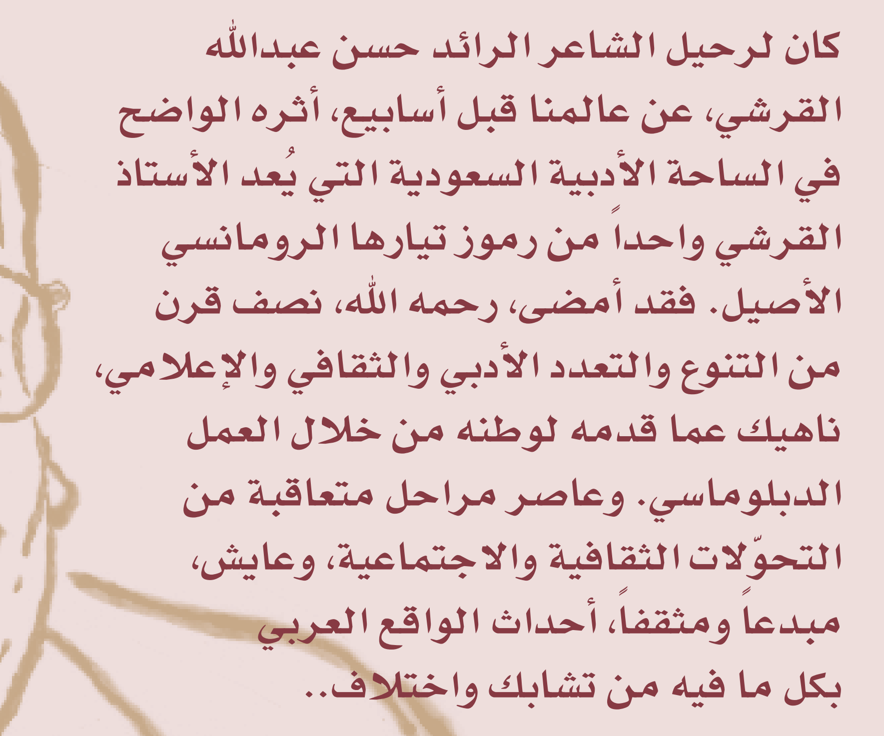
ومن العقبات أو التحديات التي تواجه حماية المنطقة التاريخية في جدة هو قلة – بل ندرة – الأيدي العاملة المدربة أو الراغبة في تلقي التدريب على مهارات ترميم المنازل المهددة بالخطر، فتم التوجه لمعالجة هذه المشكلة إلى شباب من الصم والبكم الذين أثبتوا قدراتهم العالية على التعلم والأداء رغم الإعاقة.

يقول المهندس سامي: الهدف الأساس من إنشاء إدارة حماية المنطقة التاريخية في جدة هو هدف ثقافي وطني يحافظ على ثروة تاريخية في العديد من الآثار في المنطقة التي تتضمن، (بالإضافة إلى المنازل القديمة) بعض المساجد والأسوار والبوابات والعيون. ويرى المهندس سامي أن هناك معوقات عديدة أمامه يتصدرها تحدي تنمية الوعي العام بأهمية المنطقة والإنتهاء من تجديد المنازل المصنفة بأنها خطرة وتسهيل الوصول إلى المنطقة. كما يطمح إلى أن يكون تمويل الإصلاحات والترميمات في المنطقة تمويلاً ذاتياً، بحيث تكون ميزانية المنطقة استثمارية فتعاد عملية تأجير واستثمار البيوت المرممة.

أقدم المباني في المنطقة مسجدان يعود تاريخ بنائهما إلى عهد الخليفتين الراشدين عمر وعثمان، رضي الله عنهما. ولكن هل إسكان هذه البيوت القديمة فكرة جيدة؟

يجيب المهندس سامي: البيوت إذا لم تسكن فإن المنطقة برمتها تتحول إلى مدينة أشباح وهذا ليس الهدف من حمايتها، بل الهدف هو جعلها منطقة حية يعيش فيها الناس كما هي الحال اليوم ويزورها من يريد التثقف بتاريخ المدينة من خارج المملكة وداخلها. "لو أن عشرة في المئة فقط من سكان مدينة جدة وحدها الذين يصل عددهم إلى نحو ثلاثة ملايين يزورون المنطقة، لكان الأمر كافياً لتمويل مشاريع الترميم، ولكن هناك مشكلة أخرى هي الوصول إلى المنطقة الشحيحة بمساحات تكفي لمواقف للسيارات، كما أنه لا بد من تجهيز المنطقة خدماتياً لاستقبال زوارها، وعندما يتحقق ذلك سأكون في غاية السعادة".

كان لرحيل الشاعر الرائد حسن عبدالله القرشي، عن عالمنا قبل أسابيع، أثره الواضح في الساحة الأدبية السعودية التي يُعد الأستاذ القرشي واحداً من رموز تيارها الرومانسي الأصيل. فقد أمضى، رحمه الله، نصف قرن من التنوع والتعدد الأدبي والثقافي والإعلامي، ناهيك عما قدمه لوطنه من خلال العمل الدبلوماسي. وعاصر مراحل متعاقبة من التحوّلات الثقافية والاجتماعية، وعايش، مبدعاً ومثقفاً، أحداث الواقع العربي بكل ما فيه من تشابك واختلاف..



نصف قرن بين الأدب والدبلوماسية..

القرشي.. ذو الحقيبتين!!

الزميل **حبيب محمود** يلتقط صورة للأستاذ القرشي من خلفية هذا المشهد، ومن منطقة لا مبالغة في وصفها بأنها "نادرة" على نحو من الأنحاء..!

طه حسين

.. ولقد سمعتُ، بين من سمعتُ من الشعراء، شعر الأستاذ الصديق حسن عبدالله القرشي، ولم أكد أسمعه حتى كلفت به.. وتمنيتُ أن أراه منشوراً يقرؤه الناس.. في الحجاز وغير الحجاز من أقطار الأرض..

سليمان العيسى

منذ زمن بعيد.. كنّا نتلاقى على خريطة هذا الوطن المتعَب الكبير.. تحملنا قصيدة على جناحيها إلى الحلم العربي. وكان صديقي الشاعر القرشي يصرّ ديواناً بعد ديوان على أن الحلم العربي هو أجمل ما في حياتنا



القرشي في شبابه.. وعلى شاطئ النيل

يصنّف دارسو الأدب السعودي الحديث حسن عبدالله القرشي (1932 – 2004م)، ضمن شعراء الجيل الثاني الذين تأثروا بالتيارات الأدبية الحديثة، وعلى وجه خاص بتلك الصبغة التي عُرف بها الشعر العربي، في قيمه الفنية والجمالية، من مدرستي المهجر وأبولو.

لقد كان محمد حسن عواد وحسين سرحان وحمزة شحاتة وحسين عرب ومحمد حسن فقي وإبراهيم الفلالي وأحمد قنديل وطاهر زمخشري أهمّ شعراء الجيل الأول، تاريخياً. ومن خلال أعمالهم الشعرية أحدثوا تغييراتٍ جوهرية في القصيدة السعودية، فتحوّلت إلى شكلها الرومانسي المفعم بالخيال والصور، كما اعتنت مضامينها بالموضوعات الذاتية والواقعية. وتخلّت، عبر جيل كامل من الشعراء، عن تلك اللبوس الإحيائية التي كانت لغة الشعر العباسية أهم أنماطها المتداولة.

حسن عبدالله القرشي ومحمد الفهد العيسى ومنصور الحازمي وعبدالحميد الخطي وعبدالله الجشي ومحمد سعيد الخنيزي وناصر بوحيمد ويوسف بوسعد وأسامة عبدالرحمن وسعد البواردي ومحمد العامر الرميح، وغيرهم؛ مثّلوا، تاريخياً أيضاً، مرحلة جيل تالٍ للجيل الأول. غير أنهم لم يسجلوا خطواتٍ أكثر جديةٍ، في مسيرة القصيدة السعودية الحديثة، من تلك الخطوات التي سجلها شعراء الجيل الأول، على الرغم من أن بعضهم، ومن بينهم القرشي، خرجوا - جزئياً - عن نمط القصيدة العمودية إلى نمط قصيدة التفعيلة، وهي مرحلة تشكّلت ملامحها بشكل أوضح في جيل تلا هذا الجيل، والتحق به د. غازي القصيبي ومحمد العلي وعلي الدميني ومحمد الثبيتي وعبدالله الصيخان وغيرهم، في مراحل لاحقة.

ملتقى طُرق..!

الموقع التاريخي وضع حسن عبدالله القرشي في مُلتقى طرق مختلفة المنطلقات والاتجاهات، وما بين ديوانه الأول "البسمات الملوّنة" المطبوع عام 1949م وديوانه الأخير "ستائر المطر" المطبوع عام1997م، الكثير من إشارات التنوع الفني والإبداعي. ناهيك عن مجموعاته القصصية، ومقالاته، وأبحاثه اللغوية، زيادة على اشتغاله في الإعلام، وعمله الدبلوماسي. فكل ذلك يشير - نظرياً على الأقل - إلى أن شخصية حسن عبدالله القرشي، كانت على مقربة شديدة من التنوع الملهم، إذا جاز التعبير..!

عملياً، وفي مستوى النص الشعري تحديداً، كانت القصيدة، عند حسن عبدالله القرشي، منطقة لهذا التفاعل والتنوع الفني والموضوعي معاً. فمن جهة هناك الإحساس القومي المتوسل بالخطابة والحماسة وصنوف الصيغ الكلاسيكية الجديدة:

قالوا: لقد صرعوا (الخليل)
فقلت: لن يشفي غليلا
النار تحت جلودهم
قد شبّها جيلاً فجيلا
ولقد أصاب الثأرَ قبلُ
وكم أضرّ بهم طويلا
كم قد بكوا قتلى وصرعى
ثم أبكاهم قتيلا
فحياته كانت لهم
سمّاً، وكابوساً ثقيلا
ومماته قد وحّد الفرقاء
واستحيا القبيلا

ومن جهة أخرى هناك الرمزية الواقعية المتواصلة مع الإحساس القومي عينه الذي يقارب روح أمل دنقل:

بلند الحيدري

..لصوره الشعرية وهجها الذي يحاور بين رؤى متعددة الأبعاد، فهي سهلة المنال حتى لتكاد تلمسها لمساً، وهي في ذاته مرمى في رمز ذهني، وعبرهما نما وكبر شاعراً متميزاً بخصوصيته..

عبد الوهاب البياتي

استطاع القرشي أن يثبت أن ينابيع شمس وطن العرب الأول لا تزال يغتسل فيها الشعراء والجوابون وأبناء الكلمة الصادقة الأصيلة..



في ذكرى الأخطل الصغير وتبدو السيدة فيروز والشاعرة لمياء عبّاس والوزير اللبناني بابيكيان

سميح القاسم

يذهب في واحات الضاد، مفعماً بوهج الشعر، باحثاً عن واحات الروح، وها هو يعبر أفق أجدادنا الأوائل بجناحين من صدق الشعور ومصداقية الفن الشعري الرصين ليحيينا بمطالعه المشرقة، ولنرد التحية بما أوتينا من قلوب: "هلا بك"..

غادة السمّان

آتٍ من الصحراء.. حاملاً إلينا البحر.. لا السراب.. آتٍ من مسقط رؤوس أجدادنا، ومسقط قلوبنا في الجزيرة العربية.. القرشي ابن مكة المكرمة يتابع حمل المشعل العربي القديم المضيء..

في إحدى أمسياته الأدبية، ومن بين الحضور الدكتور غازي القصيبي

انطوت صفحتانْ
ذبلت. فجأة. وردتان
وذوت شمعتان
وتعرّى المهرّج والمهرجانْ
والألى صفّقوا لذوي الطيلسانْ
واستفاقوا على سخريات الزمانْ
كلّهم مُرتدٍ – ضائعاً – قبعات الهوانْ
كلهم خاسرٌ للرهانْ..!

ومن جهة ثالثة تتوحد "الأنا" بـ "الآخر" في لغة شعرية جديدة كلياً، كما في قصيدته "عندما ينكسر الحلم":

ينحسر الحلم
ينكسر السيف في الغمد
تعرى البحيرة
تسدر كل الظنونْ

تحاصرني
أعين المتعبين الحيارى
تجللني بقتام المآسي الكبارِ
وتجلدني عارياً في النهارِ
ضعيفاً على القيدِ
تسحقني قبضة اليأس
يلفظني موكبُ الساخرين

من جهة رابعة؛ هناك الأغراض الذاتية؛ شعر المعاناة، الحب والغزل، التأملات النفسية.. وفي كل ذلك تنوّع تقوده الصراحة الفنية، وتعلن عنه اللغة المهجرية السهلة:

ثلاثٌ من الحور في محضري
تـراءيـنَ كـالـحـلـم المُسْـكـرِ
تبـدّين كالصحو غِبَّ الحيا
وكالأنجمِ الزُهْرِ في المَخبرِ
ثلاثٌ من الغيد مستشرفاتٌ
بـطـرفٍ نـديِّ الـسـنـا أحـورِ
فهشّ لهنّ الفؤاد المعنّى
وغرّد بعد الأسى المُضْجرِ
ودبّ به بعد طول اليباس
حنينٌ إلى أمسه الأخضرِ
تعالين؛ كلٌّ لها قطعة
من القلب، فاسبحنَ في أنهري

وفي مضمون، كمضمون النص الأخير، تكمن شخصية "حجازية" على ذلك الحس الذي اشتهر به عمر بن أبي ربيعة. وهو حس التقطه أدونيس، الذي ربطته بالقرشي صداقة، فقال فيه: "حين أقرأ شعر حسن عبدالله القرشي اقرأ شعر الحجاز وشعر ابن أبي ربيعة ولا أعرف لماذا؟ ألأنني أحب عمراً والحجاز؟ أم لأنني أحب قرشية هذا الشاعر؟ في كل حال ينقلني شعر حسن القرشي إلى مواطن تختبىء في الذاكرة هي بين أجمل المواطن التي أعرفها".

وعلى الرغم مما تخبىء شهادة أدونيس من إيماءات إلى تصنيف الشاعر بذكاء من يريد أن يقصي ويُدني معاً؛ فإن ما رصده جمال عبدالحي أحمد وخالد محمد مصطفى في كتاب "حسن عبدالله القرشي مجمعياً"، من شهادات وإشادات لعدد من أعلام الأدب العربي، يدعو إلى الدهشة والغرابة..!

ثناء المتناطحين..!

وقف القرشي أمام ثناء المتنافرين ثقافياً وأدبياً، على نحو يمكننا وصفه فيه بأنه "ملتقى المختلفين"؛ إن لم نقل "المتناطحين"..! وإذا كان من المتوقع أن يسجل شاعرٌ رومانسي مثل فاروق شوشة موقفاً إطرائياً، للقرشي، مبنياً على علاقة فنية بين لغتي القرشي وشوشة؛ فإن المفاجأة تأتي حين يُسجَّل موقفٌ مماثل بحبر عبدالوهاب البياتي وبلند الحيدري وسعدي يوسف وسميح القاسم وصلاح عبدالصبور..! ومقابل هؤلاء يقف: طه حسين الذي كتب مقدمة ديوانه "الأمس الضائع"، ومحمد الفيتوري وغادة السمان وأحمد حسن الزيات وفدوى طوقان وسليمان العيسى.. وغيرهم وغيرهم..!

وحتى لو اعتبرنا دوافع الصداقات الأدبية المتنوعة، أسباباً للحصول على هذا الثناء الجميل؛ فإن ذلك في حدّ ذاته مصدر اندهاش لا يقلّ عند اندهاشنا بتعدد جوانب الثناء نفسه..!

ذلك أن المثقفين العرب. والأدباء في مقدمتهم. هم أكثر الناس اعتداداً، واعتداءً، وإنكاراً، بعضهم لبعض. لقد أجّجت الاختلافات الأدبية خصومات انعكست إفرازاتها على واقع الأدب ومفاهيمه وقيمه، ولكنها. من بعد آخر. مررت شراسة جدية على شخوص المتخالفين من الأدباء والشعراء والنقاد. وفضلاً عما أفرزته الخصومات الشخصية بين أبناء التيار الواحد؛ فإن الصراع بين تيار وتيار آخر كان. ولا يزال. أهم أشكال الصدام الأدبي وأكثرها إنعاشاً للحياة الثقافية، وأخطرها انعكاساً على المفاهيم.. ورموز الصدام ومناصري أطرافه..!

وقد شغل الصراع، بين ما هو جديد وما هو قديم، أغلب أزمنة الأدب والثقافة عموماً، في جدلية لا تنتهي إلا ببداية جدلية أخرى قائمة على تحوّل ما كان جديداً، اليومَ، إلى قديم غداً، وما هو حداثة إلى تراث.. وهكذا تدور دورة الحياة. وليس الأدب وحده. في كل عصر ومكان. وفي العصر الأدبي العربي الحديث تجسّد ذلك. أولاً. في صراع مدرستي الإحياء والديوان، فقد كانت الأولى تقليدية من منظور الأخرى الحديثة. ولكن سرعان ما وجدت "حداثة" الديوان نفسها قديمة بظهور "حداثة" جديدة، تلتها حداثة أخرى، فحداثة لاحقة.. حتى تجاوزنا، اليومَ، مرحلة "ما بعد الحداثة"..!

في هذا السياق أصبح شعراء الجيل الأول في المملكة، العواد ورفاقه، "حداثيين"، بعد أن استوردوا الشكل الحديث في القصيدة العربية من مُصدِّريه في المهجر العربي في الأمريكتين، ثم من مصر وتونس وسوريا ولبنان..! ولم يكونوا قادرين على إدخال "البضاعة الشعرية الجديدة" إلى بلادهم من دون صراع جدي.. وتمثل معارك العواد حالة متعددة الأبعاد، فهي لم تكن معارك أدبية محضة، بقدر ما كانت طروحات "تنويرية" على حدّ تعبير الدكتور عبدالله الغذامي في "حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية".

ولكن سرعان ما اعتُبر العواد، ورفاقه والجيل التالي لهم أيضاً، ممثلين لتيار تقليدي خلفه تيارٌ جديد أدخل تغييرات جديدة على شكل القصيدة ومحتواها. ولم تكن مرحلة لتؤسس لنفسها جمهوراً من دون أن تدخل في عراك مع سابقتها بطبيعة الأمر.

معارك محدودة..!

والسؤال: أين كان حسن عبدالله القرشي من هذا الضجيج والصراع والاختلاف؟

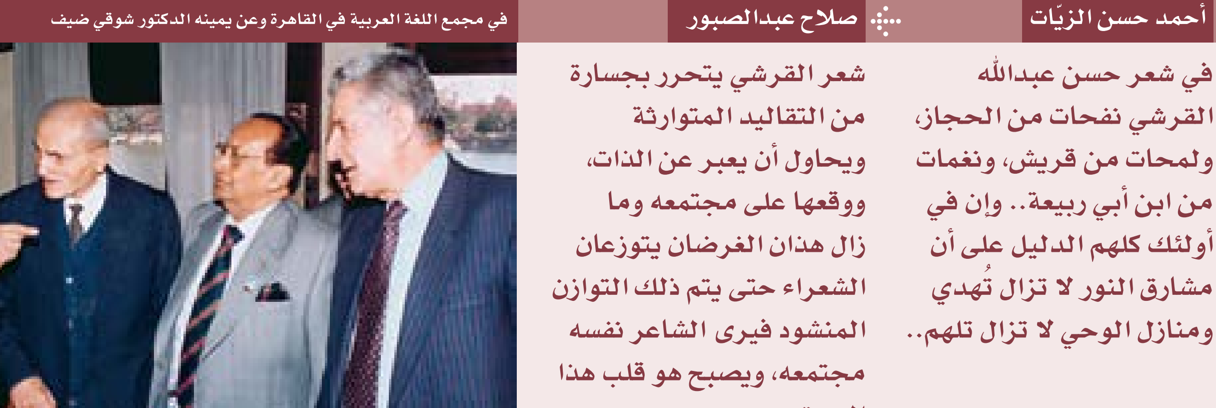
(القافلة) وجهت السؤال للأستاذ عبدالفتاح أبو مدين، رئيس النادي الأدبي بجدة، المعاصر للقرشي لأكثر من نصف قرن.. يقول الأستاذ أبو مدين: "عاش الأستاذ القرشي أديباً شاعراً ومات أديباً شاعراً.. كان همه الأول هو تعاطي الأدب والثقافة والشعر نائياً

أحمد حسن الزيّات

في شعر حسن عبدالله القرشي نفحات من الحجاز، ولمحات من قريش، ونغمات من ابن أبي ربيعة.. وإن في أولئك كلهم الدليل على أن مشارق النور لا تزال تُهدي ومنازل الوحي لا تزال تلهم..

صلاح عبدالصبور

شعر القرشي يتحرر بجسارة من التقاليد المتوارثة ويحاول أن يعبر عن الذات، ووقعها على مجتمعه وما زال هذان الغرضان يتوزعان الشعراء حتى يتم ذلك التوازن المنشود فيرى الشاعر نفسه مجتمعه، ويصبح هو قلب هذا المجتمع..


في مجمع اللغة العربية في القاهرة وعن يمينه الدكتور شوقي ضيف

سعدي يوسف

إن أصبحت الأرض غابة، وأمسى الحاضر غائباً كما يقول القرشي فإلى أين يمضي الشاعر؟ وكيف يكتب؟ في اعتقادي إن الشاعر لا يمكن سوى أن يواصل طريقه، وأن يظل يكتب

فاروق شوشة

لم يحظَ شاعر في المملكة بمثل ماحظي به القرشي، ولم يُتَح لشعر أحدهم أن يكون له دَوَران شعر القرشي قراءة وتأملاً ودراسة وتحليلاً

في إحدى أمسيات معرض القاهرة الدولي للكتاب

بجانبه عن مواقع الصدام التي اقتحمها غيره من الأدباء والشعراء الرواد".

الأستاذ أبو مدين يُقرّ، بأنه دخل، شخصياً، في معركة أدبية يصفها بـ "الصغيرة" مع الشاعر القرشي في أوائل الخمسينات من القرن الميلادي الماضي.. يقول أبو مدين: "كنت وقتها شاباً تملؤه حماسة الشباب حين صدر كتاب "شعراء الحجاز في العصر الحديث" للأستاذ عبدالسلام الساسي، رحمه الله. وقد قمتُ بنقد الكتاب الذي تحدث عن ٢٧ شاعراً من منطقة الحجاز، في مقالة نشرتها إحدى صحف الحجاز.. فما كان من الأستاذ القرشي إلا أن تصدّى لموضوعي بنقد النقد.. كان، رحمه الله، خصماً عنيداً، وقد استكثر على شاب متحمس التعرض لـ "الكبار".

لكن الأستاذ القرشي صار صديقاً ودوداً بعد تلك المنازلة، ولم يتسبب اختلافنا.. رغم حداثة عمري وريادته.. في أية غضاضة.. بقي صديقاً إلى أن اختاره الله".

يضيف: "تميز القرشي، أيضاً، ببناء علاقات شخصية مع الكثير من المثقفين العرب، كان حريصاً على التواصل مع الرموز الثقافية مستوعباً، في علاقاته، حتى المختلفين مع توجهه الأدبي. كان شعر القرشي متواصلاً مع العصر والواقع في موضوعاته، لكنه كان تقليدياً في شكله، لكن علاقاته الشخصية كانت واسعة إلى أقصى الحدود. وقد ساعده ترحاله المتكرر، سواء ضمن مهام عمله الدبلوماسي أو أسفاره الخاصة، على تجسير علاقاته وتعزيزها.. ناهيك عن ارتباطه بالمجمع اللغوي بالقاهرة الذي شكل له نقطة التقاء وتواصل مع أعلام من الثقافة العربية، خاصة أنه عاش السنوات العشرين الأخيرة من عمره، الذي جاوز السبعين، في القاهرة حيث يتوافد المثقفون والأدباء العرب".. "الشاعر القرشي"، يقول أبو مدين، "كان منتجاً وناشراً لأعماله وناشطاً في هذا المجال".

صداقات عائلية..!

الدكتورة ليلى القرشي، كريمة الشاعر، لها شهادة في موضوع الصداقات التي تميز بها والدها.. تقول: "أصدقاؤه ومحبوه في كل مكان، حتى أن علاقاته الشخصية مع بعض الأدباء والشعراء والمثقفين تطوّرت إلى صداقات عائلية، ولا أعني بذلك الصداقات التي تربطه بأدباء من مدينة جدة أو من مدن المملكة الأخرى فحسب؛ بل أيضاً أعني صداقات مع مثقفين من دول عربية كثيرة، كمصر والعراق والمغرب".

تضيف الدكتورة ليلى: "كان رحمه الله حريصاً على بناء العلاقات بناءً حميمياً، ويعتبر الأصدقاء ثروة يجب الاستزادة منها كل يوم، وفي الأصدقاء المثقفين أهمّ الثروات.. إنهم عقول ومواقف ورموز للحضارة في أي مجتمع. ولم يكن يرى في المختلفين معه أدبياً أو ثقافياً أيّ نقص، بل على العكس من ذلك.. كان يراهم جزءاً من التعدد الذي يصنع للثقافة والأدب والفكر تعدداً وتكاملاً".

القرشي، نفسه، صرح بذلك في حديث صحافي قبل ثلاث سنوات: "علاقاتي متعددة وكثيرة بشعراء بلادي وشعراء معظم الأقطار العربية وأكثرهم قريب من نفسي أثيرٌ لديها".

تعدد المواهب

بيد أن "التعدد" لم يكن محصوراً في العلاقات الأدبية/ الشخصية.. إنه تعدد في المواهب استوعب الشعر والقصة والنقد والصحافة والإذاعة والتلفزيون... والدبلوماسية..! ومن كل هذا المزيج تشكلت شخصية "الأديب الدبلوماسي"، أو "الدبلوماسي الأديب"، ربما إلى حدّ يدعو إلى الغرابة أحياناً.

أمضى القرشي ثلاثاً من الأعوام سفيراً للمملكة في الخرطوم. وخلال هذه السنوات بنى علاقاتٍ ثقافية وأدبية مع الوسط الأدبي السوداني، وجاءت قصائده بما يشي بعلاقة وجدانية مع تلك الألفة الودودة التي ربطته بالشعب السوداني.. وتحمل قصيدته "النيل حين يثور" هذه الوشاية.. إنها قصيدة كتبها متأثراً بما فعله النهر العظيم في السودان حين فاض.. فقال يخاطب النيل:

أخا الضحكات البيض قد عدتَ عابساً
وكنتَ وديعاً فاستطال بك الغدرُ
وقد كنتَ معطاءً فلمْ عدتَ سالباً
وقد كنتَ سمّاعاً فأزرى بك الوقْرُ
هتكتَ ستوراً كنّ قبلُ مصونةً
ودمّرتَ آلاف المنازل يا نهرُ

وحين شدّ رحاله من السودان عائداً إلى وطنه؛ تحركتْ شاعريته في سنوات اعتبرها "هي العمر فياضة الطهر"، في قصيدة وداعية حزينة:

هوايَ هو السودان لا درّ درُّه
وإن كلّل الفودينِ بالحُللِ الشُّقرِ
أحقاً لقد حان الترحلُ..؟ ما أنا
بساليه حياً، أو أُوسّدَ في القبر..!
لقد ذقتُ حر الاغتراب بغيره
فهل موطني "السودان" من حيث لا أدري..؟

كان ذلك هوىً وصبابة لأرضٍ عربية أحبها القرشي، واستلهم جمالها، واطلع على جوهرها المخبوء عنا نحن العرب.. هذا الاطلاع والكشف تحوّلا، لاحقاً، إلى مشروعي كتابين: أحدهما هو "الحياة الفكرية في السودان خلال قرن"، والآخر هو "شعراء من السودان"..!

وقد أمضى القرشي شطراً عريضاً من حياته في العمل الدبلوماسي، وتقول سيرته الذاتية إنه عمل رئيساً للمذيعين في إذاعة المملكة، ثم انتقل إلى وزارة المالية، ومنها إلى وزارة الخارجية وزيراً مفوّضاً، ثم سفيراً بالديوان، ثم سفيراً فوق العادة، ثم سفيراً في السودان، ثم موريتانيا، قبل أن يعود سفيراً إلى وزارة الخارجية.

والسيرة لا تتوقف عند العمل.. فمنذ الستينات الميلادية، من القرن الماضي، مثّل بلاده في العديد من المهرجانات والمؤتمرات الأدبية؛ في: تونس، بغداد، طرابلس الغرب، بيروت، الرباط، تايبيه، روما، باليرمو، دكا، وكوالا لامبور.. ناهيك عن مؤتمرات القاهرة ومناسباتها..!

أما شعره فلم ينحصر في لغته الأم.. تقول سيرته: تُرجم جانب كبير من شعره إلى الفرنسية والإنجليزية والإسبانية والصينية والفارسية والإيطالية واليونانية..!

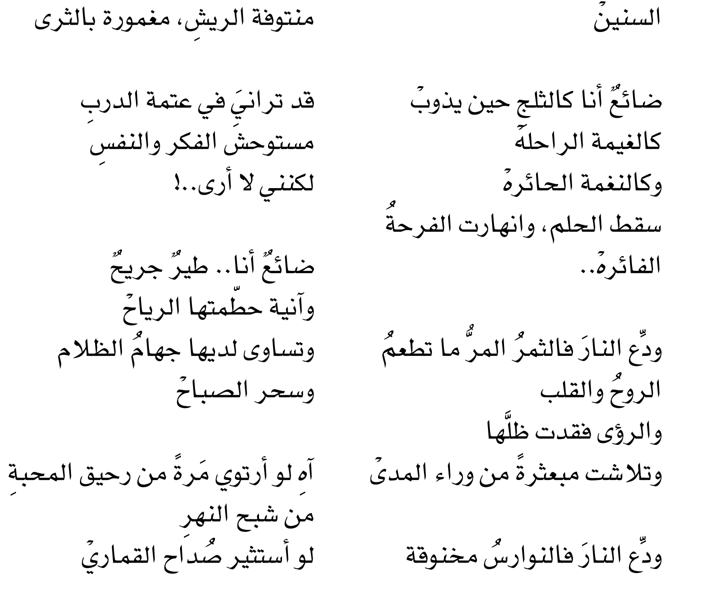
أليس فاروق شوشة محقاً، إذن، حين قال عنه: "لم يحظَ شاعر من الشعراء المعاصرين في المملكة العربية السعودية بمثل ما حظي به حسن القرشي من شهرة وذيوع صيت"..؟

■ مصدر أقوال الأدباء كتاب "حسن عبدالله القرشي مجمعياً".
■ صور الشاعر الشخصية من عائلته.



في جنون الغابة..

قصيدة للقرشي..
من ديوانه الأخير "ستائر المطر"



ضائعٌ في دروب المتاهات
مرتكسُ الخطو، أحصد أوزار كل
السنينْ

ضائعٌ أنا كالثلج حين يذوبْ
كالغيمة الراحلة
وكالنغمة الحائرةْ
سقط الحلم، وانهارت الفرحةُ
الفائرةْ..

ودِّع النارَ فالثمرُ المرُّ ما تطعمُ
الروحُ والقلب
والرؤى فقدت ظلَّها
وتلاشت مبعثرةً من وراء المدىْ

ودِّع النارَ فالنوارسُ مخنوقة
الهمس
صرعى على الشطِّ
منتوفة الريشِ، مغمورة بالثرى

قد ترائيَ في عتمة الدربِ
مستوحشَ الفكر والنفسِ
لكنني لا أرى..!

ضائعٌ أنا.. طيرٌ جريحٌ
وآنية حطّمتها الرياحْ
وتساوى لديها جهامُ الظلام
وسحر الصباحْ

آهِ لو أرتوي مَرةً من رحيق المحبة
من شبح النهر
لو أستثير صُداح القماريِّ
وبوح النغاريِّ
ولو يستفزني قمرُ الليل
أو تستجيبُ لي الذكرياتْ
بعدما أورقت في صحارَى حياتيَ
في كل زاوية من مهاديَ
روحُ الشتاتْ

وطفا زبدُ اليمّ
فالضحكاتُ المليئةُ بالعطرِ
أضحتْ رفاتَ الرفاتْ

ضائعٌ أنا.. في فورة اليأس والحقد
قد أرهقتنيَ ريحُ الضياعْ
وأنا عائشٌ رهن غابة رهطٍ من
الناس
تخشَى أذاها الضباعْ..

القرشي في "القافلة"

كانت مجلة القافلة في مقدمة المطبوعات السعودية التي نشرت للأستاذ القرشي، وأول قصيدة نشرتها المجلة هي قصيدة "ساءلتني"، في عدد شهر جمادى الثانية عام 1380هـ، أي قبل خمس وأربعين سنة.

وبعدها توالى نشر قصائده في أعداد المجلة، خاصة خلال ذلك العقد الذي شارك فيه أيضاً في بعض ندوات المجلة الثقافية. أما آخر قصيدة نشرتها "القافلة" فكانت في شهر ربيع الأول عام 1412هـ.





اقرأ عن القرشي

كتب الدكتور عبدالعزيز شرف، وحده، خمس دراسات موسعة عنه، هي: "الرؤية الإبداعية في شعر حسن عبدالله القرشي"، و"فن المقالة في أدب القرشي"، و"الفن القصصي في أدب القرشي"، و"دراسة وقصائد القرشي" و"الوساطة بين حسن عبدالله القرشي ونقاده".

كما كتب الدكتور عبدالعزيز الدسوقي "القرشي شاعر الوجدان"، وكتب أحمد جدع "حسن عبدالله القرشي.. شاعر من الحجاز"، وتتواصل الدراسات والبحوث.. "حسن عبدالله القرشي.. حياته وأدبه" عنوان لدراسة أعدها الدكتور صلاح عدس. "رجال من مكة" عنوان كتاب لزهير كتبي. "الاتجاه الوجداني في شعر حسن القرشي" دراسة فنية ليحيى الشرفواني. "حسن عبدالله القرشي.. شاعر الجزيرة العربية" كتاب آخر حسن فتح الباب. "حسن عبدالله القرشي في مسار الشعر الحديث" رسالة دكتوراه لياسين الأيوبي.. إضافة على عشرات المقالات والدراسات واللقاءات الصحافية المبثوثة في الصحافة العربية.. والرسائل الأكاديمية التي تناولته بالدراسة والتحليل..

حسن عبدالله القرشي.. مَجْمعيّاً



آخر ما أُلِّف في القرشي. وهو كتاب توثيقي أعده جمال عبدالله أحمد وخالد محمد مصطفى، من مجمع اللغة العربية بالقاهرة. الكتاب يقع في 294 صفحة من القطع المتوسط. وقد قدّم له الشاعر المصري فاروق شوشة الذي اعتبر الكتاب "شهادة جديدة للقرشي". وفي الفصول الثلاثة التي احتضنها الكتاب خلاصة لسيرة الشاعر، وآراء الأدباء والنقاد فيه، وبعض آرائه فيمن عرفوه، ونصوص شعر كتبها للمجمع اللغوي، وآراء له في الشعر السعودي الحديث، والإعلام، والثقافة والأدب.

سينما الشعر وإطلاق الدلالة

دراستان نقديتان لقصيدتين للقرشي؛ هما: "عندما ينكسر الحلم"، و"عندما تتقصف الخيام". الدراستان في كتاب واحد لأحمد فراج، صدر عام 2002م، في 152 صفحة من القطع المتوسط. وتتلخص رؤية الناقد، في تجربة الشعر عند القرشي، في أنها "مغامرة مع اللغة أو فيها أو بها"، وأن "مغامراته محسوبة حساباً دقيقاً وليس عشوائياً، وأنها محددة المعالم والهدف والوسيلة، وأنها ليست من أجل المغامرة ذاتها.. فالمغامرة في الشعر يجب أن تكون لصالح اللغة وليس ضدها".

حسن القرشي.. شاعر الجزيرة العربية

للدكتور حسن فتح الباب، يقع في 65 صفحة، من القطع المتوسط، صدر عن الدار المصرية اللبنانية، ضمن سلسلة "هؤلاء الشعراء". يتناول الكتاب رحلة الشعر العربي في الجزيرة العربية، وسيرة الشاعر، والتجربة الشعرية عند القرشي ومصادرها، والآثار الشعرية وموقعها من النقاد، وأصداء شعره في الساحة الثقافية والنقدية، وخصائصه وآفاقه: شعر الذات والموضوع، الشعر الواقعي. وفي آخر الكتاب يسوق المؤلف نماذج من قصائد القرشي.

فن المقالة في أدب القرشي

للدكتور عبدالعزيز شرف، نشرته دار المعارف المصرية، في 150 صفحة، عام 1996م. يتناول الفصل الأول القرشي بين الشعر والنثر، ثم يهتم الفصل الثاني بفن المقالة لديه، ومنه إلى دراسة خصائص مقالات القرشي التأملية، والنقدية، والدراسات الأدبية.

حسن عبدالله القرشي ناثراً

أطروحة ماجستير ناقشتها منيرة عبدالله السدراني بقسم اللغة العربية، كلية التربية ببريدة، عام 1423هـ. 2002م. وهي تتكون من بابين وعشرة فصول. وفي قرابة 450 صفحة من القطع الكبير تدرس الباحثة القرشي منطلقة من البيئة الثقافية والإعلامية التي نشأ فيها. ويركز الباب الثاني على نتاجه الأدبي والنثري متمثلاً في فن المقالة: الأدبية، السياسية، الاجتماعية، النقدية، والخاطرة. لكن الدراسة تشمل، أيضاً، فنه القصصي، والنقدي، وكتابته لسيرة الذاتية، والعمل الإعلامي، وأدب المحاضرة. وتتميز الأطروحة بشمولية ومنهجية أكاديمية غنية بالطرح والتحليل والمناقشة.

كان الفن، ولا يزال، مستودعاً لهواجس نفس الإنسان. والشعر فنٌّ ائتمنه الشعراء على مشاعرهم وأفكارهم، وحالاتهم النفسية التي تعكس واقعهم وتعاطيهم معه: قبولاً أو انسجاماً، أو نفوراً وهروباً.. الدكتورة أمل الطعيمي تتناول ثلاث حالات نفسية استوعبها الشعرُ العربي القديمُ للتعبير عن التعامل مع الواقع: القلق، والحلم، والتكيف..!

من القلق.. إلى الحلم.. إلى التكيّف.!

موضوعي.. وعصابي..!

القلق بصمة كثيراً ما نجد أثرها في قصائد الشعراء العرب.. وهو أحياناً "قلق موضوعي" تثيره أحداث عاصفة بالوجدان مؤججة سخط النفس على كل شيء حتى الذات.

وهو أحياناً "قلق عصابي" مبعثه ملابسات مجهولة - أو معروفة - في حياة الشاعر أجبرته على أن ينظر إلى الحياة بمنظار أسود، و يرى ضياءها ظلاماً واتساعها ضيقاً.

وأبو العلاء المعري كان نموذجاً واضحاً لهذه السوداوية، فهو يخلع انفعالاته الداخلية ليسقطها على الطبيعة من حوله، غير مكتفٍ بما في نفسه من سخط و قلق:

إذا الفتى ذم عيشاً في شبيبته
فما يقول إذا عصر الشباب مضى
جربت دهري وأهليه فما تركت
لي التجارب في ودّ امرئ غرضا

أما ابن المعتز، الشاعر الأمير الذي حاوطته الخطوب مذ كان طفلاً وجرعته الأيام مرارة لا تتناسب ومكانته، فإنه يقول:

يوم سعد قد أطرق الدهر عنه
جاء سراً و ما رأته الخطوب..!

وقد أسقط ابن المعتزّ ما في نفسه من قلق وتشاؤم على الطبيعة التي اشتهر بوصفها:

فكأن الهلال يهوى الثريا
فهما للوداع معتنقانِ

إنها صورة قاتمة اختارت عناق الوداع لا عناق اللقاء لما فيه من مرارة وأنفاس قلقة متشائمة. وكان بشار بن برد محباً ضعيفاً يجتاحه القلق والضيق والتبرم من إقباله على النساء وإعراضهن عنه، فكان ذلك محرضاً على القلق، ومن ثم الشكوى لما فعلته حبيبته "خشّاب":

أخشّابُ حقاً أن دارك تزعج
وأن الذي بيني وبينك ينهجُ
إلى اللّه أشكو أن بالقلب كربة
من الشوق لا تبلى و لا تتفرجُ

ويقول أيضاً :

تقطّعُ نفسي حسرة بعد حسرة
إذا قيل تغدو من غد لا تعرجُ

على صهوة الحلم.. والوهم..!

كان القلق يدفع بالشاعر إلى الهروب إلى حيث تتعاظم الأماني و تتعدد في النفس. مع أنها لا تتحقق بالضرورة، و لهذا قد ينشدها المرء بالهروب إليها لا انتظارها أو العمل من أجلها. ومن هنا سيطرت الرغبة، في الهروب من الواقع، على الشعراء. وهو سلوك يستبدل فيه الشخص الوهم أو أحلام اليقظة بالواقع ليتجنب صراعات الحياة أو يخفف من حدتها.

ومع المرأة كان البحتري أكثر الشعراء هروباً من عالم الواقع إلى عالم الأحلام، ففي هذا العالم يلتقي حبيبته التي تبادله حباً بحب، وهناك لا صدود منها ولا فراق.. بل لقاءات مستمرة يتنعم بها:

وطيف طاف بي سحراً فأذكى
حرارة لوعتي وجوى حشائي
وفي طيف الخيال شفِا المعنى
وريُّ الصَاديات من الظماء

ويقول:

بتُّ ليل التمام أسهر بالوصـ
ـل بطيف الخيال وهو كذوبُ

وقد كان تقدمه في السن أحد أسباب رفض المرأة له، و لهذا كان الشاعر يستسلم للحلم الجميل حتى وإن كان على علم بسبب العزوف عنه:

وإني لأشتاق الخيال وأكثر الز
يارة من طيف زيارته غِبُّ

أما بشار بن برد الكفيف البصر الدميم الوجه الجاحظ الحدقتين المحاطتين بلحم أحمر غليظ.. إضافة إلى ما تركه الجدري من التشوه.. فما كان ليرضى بهذا الواقع المرير الذي نفر الجلساء منه، و لهذا ثار على واقعه بالهروب منه وبالبحث عما يمكنه من أن يستعلي بنفسه فقال:

عميت جنيناً والذكاء من العمى
فجئت عجيب الظن للعلم معقلاً
وغاض ضياء العين للقلب فاغتدى
بقلبيَ ما قد ضيع الناس حُصّلا

وعلى ما كان من يأس و تشاؤم و سوداوية عند أبي العلاء المعري بسبب ما لاقاه في حياته؛ فإنه يعزي نفسه بشعره محققاً لنفسه فيه ما يتمناه من تميز و ما يشعر أنه جدير به. فامتلأت قصائده بما أراده لنفسه في اللاشعور:

وقد سار ذكري في البلاد فمن لهم
بإخفاء شمس ضوؤها متكاملُ
يهم الليالي بعض ما أنا مضمر
ويثقل رضوى دون ما أنا حاملُ
وإني وإن كنت الأخير زمانه
لآت بما لم تستطعه الأوائلُ

أما ابن الرومي فقد اشتدت معاناته من الناس الذين طالما سخروا منه و أشبعوه نكاية و تجنباً لذا لم يجد من يأخذ بثأره منهم سوى أبياته فراح يرفع من قدر نفسه و يفاخر بعقلة و سداد رأيه ونفاذ بصيرته فقال:

إذا ضاقت الأخلاق أفضت خلائقي
إلى سعة مثلي إلى مثلها يفضي
إذا ناهض العلياء قوم فقصروا
فاني حري أن يتم لها نهضي

تكييف النفس والواقع..!

ومثلما كان الحلم هروباً من الواقع؛ كانت الحكمة وسيلة من وسائل التكيف النفسي معه. ويحمل "الأنا الأعلى" في النفس الإنسانية مهمة هذا التكييف لتنسجم مع متطلبات العالم الخارجي بأحداثه الطارئه أو طبيعته الملازمة، وهو يؤديها بالتعلم واختبار الواقع بالتجارب التي تُكسب القدرة على تقبل الأحداث وتطويع النفس لها، فتكون التجربة الإنسانية بمثابة تدريب نفسي على تلقي المصائب والتكيف معها في إطار عقلي إرشادي للذات.

وفي مثل هذا نجد أبا فراس الحمداني يعترف ويتكيف:

أُسرتُ وما صحبي بعُزْلدى الوغى
ولا فرسي مهر و لا ربه غمر
ولكن إذا حُمّ القضاء على امرئ
فليس له بر يقيه ولا بحر..!

فارس شجاع ومحارب صنديد و أمير مرفّه يجد نفسه أسيراً ذليلاً. ومع ذلك يتمنع على الانهيار والضعف، ويتماسك متكيفاً مع ما ألم به:

تهون علينا في المعالي نفوسنا
ومن خطب الحسناء لم يُغلها المهرُ

هذا التكيف هو نفسه الذي يعنيه علي بن الجهم الذي يعلن عن رأيه في قوله:

هي النفس ما حمّلتها تتحملّ
وللدهر أيامُ تجور وتعدل

المتنبي، على ما كان عليه من إحباط متكرر، يُعتبر شيخ المتكيفين مع واقعه الذي لا يريد التصالح معه.. لقد كان يدرك ما معنى الأمن وما معنى الخوف.. ويختزل ذلك في بيت شهير يقول فيه:

وما الخوف إلا ما تخوفه الفتى
ولا الأمن إلا ما رآه الفتى أمنا

وكأن المتنبي طبيب نفسي يعرف أبعاد هذا الإيحاء ويؤكد أن الشعور بالخوف أو الأمن، وغيرهما، إنما هو رهن لإحساس المرء بما حوله. وهذا ما يراه علماء النفس الذين يعتبرون النفس البشرية هي التي تعطي للأشياء جزءاً كبيراً من حقائقها. وفي الشعر قد يعطي الشاعر حقيقة خاصة ليبسطها ويتكيف مع واقعه.. وهذا ابن الجهم يقول حين سُجن:

قالت: حُبستَ، فقلتُ: ليس بضائر
حبسي، وأيُّ مهندٍ لا يُغمدُ..!
والبدر يدركه السواد فتنجلي
أيامه وكأنه متجددُ..!



في "أنا" الشهيد..!

شعر: سامر فهد رضوان - سوريا

قصيدة فائزة في مسابقة القافلة الذهبية،
فرع الأدب..

خلافاً لما وهبتني الطبيعةُ
أسريتُ من ضعفِ ذاتي، وذاكرتي، وجَبلَّةِ روحي
إلى مطلق في الدلالة
لم أبغ أنْ أصلَ الآهَ في لغتي
إنما اخترتُ منهلها،
واستطعتُ إليها،
سوى أنني كنتُ إلاّ قليلا
وكانَ إذا اهتزَّ ما يمنحُ الروحَ معنى تجدُّدِها،
أستميلُ الصعودَ بأنْ نتحالفَ آناً،
ونبدأَ سِفْرَ السموِّ بلا خجلٍ،
غير أنّي نسيتُ السبيلا
فذكّرني قمرٌ أنهكوا وجهه بمدائحِهمْ
ورمى من أشعته سلّماً.. فصعدتُ
رويداً... سريعاً
وعانقتهُ،
وخلعتُ له بُرْدتي
فغدوتُ ببردته نيّراً
وصنعتُ بنا مستحيلا
سأسعى إذن لابتلاعِ النجومِ،
ورأبِ السماء بأخيلتي،
ولأكنْ لغزَ أزرقِها،
وامتدادَ وظائفها،
وآخرَ من سوفَ يعرفُ معنى ارتفاعِ السؤالِ،
كارتفاعي إلى قامةِ صرتُها،
وانتباهي إلى أن كلتا يديَّ سحابٌ.. سحابْ
وأنّي أضيقُ إذا ما اتسعتُ،
ولو فتحتْ أحرفي بابَها
لاستحالَ هطولي غزيراً كما تشتهيني البلاغةُ
واعتقدَ الجمعُ
أني أسيرُ إلى مأتمي مسرعاً كالشهابْ
ولكنني أتبسَّمُ حين أراني عليّاً،
وكلُّ الكواكبِ ترفعُ أبصارَها باتجاهي،
وأحزنُ حينَ أراها سرابْ
تيمّمتُ بالنورِ،
زلزلتُ نفسي،
وأخرجتُ أثقالها،
ثم أضمرتُ لغزاً فكانَ الوضوحُ حليفي
وآلمني أنّ كلَّ الأيامى
حلمنَ بوجهيَ
كأني على وعدهنَّ سآتي بلا فرسٍ
وسلاحي صبابتهنَّ
دخلتُ احتفالاتِهنَّ بوهجي،
وقربني من مرادي
بقاءُ النوافذِ مفتوحةً في ليالي الحصادِ،
....
سأسيح حتى أطالَ الخفايا،
وأحفرَ نفسي عليها،
وأُغضبَ كل الذينَ سيأتونَ بعدي إليها.
تُرى ما الذي يمنحُ الأفقَ معنايَ إنْ غبتُ
قالتْ نساءٌ.
فقلتُ أنا كالحضورِ
انتهائي ابتداءٌ
فقلنَ: سنبكي عليكَ طويلا
- لماذا؟
- لأنَّ الطموحَ انتهى
كنتُ أُدركُ أني وصلتُ الذرى
غيرَ أني تذكَّرتُ سلَّمةً لم أطأْها
ولم أختبرْ فوقها قدرتي في السموِّ
رفعتُ دمي،
ثم حددتُ سَمْتَ الدخولِ إلى نقطةِ البدءِ
لا ينتهُا
فإذا بالدخولِ يحدِّدُني مركزاً!!!!
* * *
تذكرتُ في لحظةِ الكشفِ أمي،
وفضلتُ قبلَ عبوري مضائقَ هذا الخلودِ
مصافحةَ النورِ فيها،
وتطمينَ مرضاتِها أنني سوفَ أعبرُ دونَ ضحايا،
وأن جسوري لمرمايَ دفءَ دعاءٍ
إذا مَسَّهُ ثغرُها...
انطلقَ البرقُ كيما يشكّلَ خارطةً،
ومضى الرعدُ منطلقاً كحصانٍ
يناشدني أنْ أقودَ بيانَ تسارُعِهِ
عندها قَبَّلتني
وقالت:
إلهي تقبَّلْ بنيَّ على حاله
ثم أبصرتُ في عينها دمعةً تتهاوى،
فآثرتُ أن أنحني،
وأغني لها: أنت "ستُّ الحبايبِ"
غادرتُ أحزانها
علّني أهتدي فأعيدَ ابتسامتها
فجأةً:
وأنا في أعالي نشيدي
سَرَتْ شائعاتٌ بأني انتقلتُ إلى رحمةٍ
فحزنتُ
وأنزلتُ كوكبَ دمعٍ وسربَ عصافيرَ
باركتُها
فاستقلّت فضائي
وصارتْ إذا ذُكرَ الشعرُ
ناحتْ عليَّ طويلاً،
وعلَّمتِ الخلقَ أنَّ دمايْ
إذا مسَّها شاعرٌ
سوف تخرجُ من روحهِ لعناقِ مدايْ
ومن يومها ظهرتْ كربلاءُ
فهم يندبونَ فراقَ أنايْ



زياد السالم، قاص سعودي يحمل في ثنايا تجربته العديد من أمارات الإبداع والتفرّد، وتمثل مجموعته "وجوه تمحوها العزلة" واحدة من التجارب القصصية السعودية الجديرة بالاحتفاء النقدي، والمراجعة والمحاورة.
القاص والكاتب **علي زعلة** يتناول المجموعة في قراءة خاصة بـ "القافلة"..

زياد السالم في "وجوه تمحوها العزلة"

تراتيل ناسك أضناه التوحّد

"وجوه تمحوها العزلة" مجموعة قصصية صدرت عام 2001م عن دار "أزمنة" بالأردن، لكاتب ينتمي إلى الجيل الجديد من كتّاب القصة السعوديين، وهم أولئك الذين باشروا نشر أعمالهم في النصف الثاني من تسعينيات القرن المنصرم. وقد حملت تجربة زياد السالم، صاحب المجموعة، سمات عامة غلبت على إنتاج الجيل الجديد من القاصين الطافحة بمظاهر الإحباط والغربة، كما اللغة الجديدة ومحاولات التجريب عبر النصوص القصصية الحوارية، وارتياد آفاق جديدة في أشكال الكتابة السردية.

السالم تميز بلغته الخاصة ومراوغته وقدرته على قول ما لا يمكن قوله عبر القوالب المعتادة، بالإضافة إلى التجارب الحيوية التي يبدو أثرها جلياً من خلال النصوص، وهي تجربة قاسية في ما يبدو! وقد نجح من خلال مجموعته أن يمارس تجربة بكل تميز، كما سنحاول أن نقاربه في السطور التالية.

أربعة نصوص قصصية فقط هي التي ضمتها المجموعة في صفحاتها التي لم تتجاوز الخمسين، لكنها، وبما توفر لدى كاتبها من جرأة وتمكن من آلاته الفنية وثقة عالية، استطاعت أن تقدّم تجربة شعورية وإبداعية متكاملة إلى حدّ بعيد.

الإنسان حالة

تبرز هذه القيمة بوضوح في طرح المجموعة القصصية، عبر ثنائية حوار الإنسان / الحالة،

والحالة / الإنسان، حتى إننا نحار في تحديد ما حاولت النصوص طرحه بدقة، هل تدور الفكرة حول الإنسان حين يدور في حالة معينة وترصد تقلباته أثناءها وتتقصى الظواهر والغوص في المجالات السيكولوجية والعقلية؟ أم أن فكرة الكتابة تدور حول حالة معينة في محاولة لرصد انعكاسات أعراض هذه الحالة على الذات الإنسانية وكيف يصبح الإنسان أنموذجاً متحركاً على هذه الحالة؟ الحالة أم الذات أم أنه لا خلاف بين الفكرتين ولا فرق، وأصبح أنا ساعتها أمارس هذياناً ما ، تماماً كالذي يمارسه زياد في بعض سطوره المتأرجحة.

زياد السالم.. تميز بلغته الخاصة ومراوغته وقدرته على قول ما لا يمكن قوله عبر القوالب المعتادة

الوجه الذائب... للصحراء

ابن الصحراء أو الكائن الصحراوي المنبسط انبساطها الواضح وضوحها، الفطري الساذج في شعوره وتفكيره وحتى انفعالاته وغرائزه التي من أهمها وأقواها غريزة البقاء والعزة والشموخ، الذي أخذ من عذريتها بياض سريرته ونقاءه ومباشرته وعدم القدرة على المراوغة والتقلب، بكل تلك المقومات الصحراوية لم يستطع ذلك الكائن التعايش مع هذا العصر الملوّن، والمتقلب في أشكاله وهيئاته، المتغير في قيمه الحضارية والإنسانية بعامة، حتى صار بحسب الشاعر العربي الكبير عبد الله البردوني:

كلّ شيء صار ذا وجهين لا
شيءَ يدري أي وجهيه أصحّ

حين استعارت القرية وجه المدينة بكل مكتسباتها الحقيرة والسامية، بالثراء والتطور والحداثة والعيش الرغيد والحياة الإلكترونية، كما في المقابل بالقمع والظلم والأدلجة والعمالة والجاسوسية، يجد ابن الصحراء نفسه أمام قرية / مدينة لا يمكن توصيفها بدقة، فلا هي عادلة ولا هي ظالمة، وليست طيبة أو شريرة ... فـ "كل شيء صار ذا وجهين"! من هنا حلّت المعاناة مع الحضارة بوجوهها المتعددة وظواهرها التي تخالف، بل تخاتل جوهرها. ففرضت على سليل الصحراء المغروس في (حضوضا) سياج عزلة قسرية أقصته عن الناس الذين يحبهم بفطرته لأنه لا يستطيع التماهي معهم عبر مسارب حياتهم الراهنة.

دوامة العزلة

"أنا مسكين يا عم، حزين وأخاف الوحدة، أهرب من الناس لأنني أحبهم، وعاجز عن أن أكون ذرة رمل، كثيراً ما أرى وجوهاً شفافة على الجدران وفي منعطفات المدينة الجاثمة كنسر، تلوّح لي أيد متداخلة، سجلّ حافل بالارتكاس والخناقات لديّ خبرات فشل ولا أستطيع التخطيط لحياتي". (ص 45)

ثمة صراع ديالكتيكي من نوع خاص يعتري هذا الإنسان / الحالة محور النصوص، إذ يهرب من الذوبان في الناس (الذوات الأخرى) الذين يحبهم ويميل إليهم باعتبار وحدة الجنس والنوع والمصير، لكنه عاجز عن التداخل معهم في ما صاروا إليه حين (استعارت القرية صورة المدينة) ما يشكّل غربة وعزلة حقيقية لينكفئ على نفسه ويذوب في ذاته مؤثراً عزلته مع أطياف أحلامه الذائبة وآماله المعطّلة موغلاً في الذكريات البعيدة.

رجلٌ في الظلّ... ولا ظلّ له

القصة الأولى في المجموعة هي "مرثية رجل الظل" التي يكاد يطل من خلالها (أولريش) بطل رواية (الرجل الذي لا خصال له) للروائي النمساوي روبرت موزيل. أولريش ذلك الرجل الذي لا يحمل خصالاً واضحة أو محددة ، ويتقلب في هذا العالم محاولاً إيجاد خصال له على نحو ما. وما يهمنا هنا مقولة أولريش "لا يمكن للمرء أن يغضب على زمنه الحاضر من دون أن يلحق الضرر بنفسه"!! فبطل زياد السالم يتبدى من خلال نصوصه نسخة أخرى عن أولريش بطل موزيل الذي لا خصال له، فهو رجل في الظل ولا يملك ظلاً خاصاً به، أولريش كذلك كان مستعداً دائماً لأن يحبّ كل التكوينات المعلنة عن الحياة، لكن ما لم يستطع تحقيقه قط هو أن يحبها من كل قلبه كما يقتضي الحسّ العام للتكوين الاجتماعي، فقد بقيت منذ فترة طويلة نسمة من النفور من كل شيء فعله أو عاشه!!

تُعدّ قصة "مرثية رجل الظلّ" اختزالاً ناجحاً لكافة القيم التعبيرية والفنية لنصوص المجموعة، كما تقصّ حالة العزلة التي تقاربها المجموعة..

"رجل ما
أخذ مقعده الشاغر في المقبرة مجاوراً الضباع المتوفزة لنبش القبور
الأرض : تتنفس في وجهه..
هو: سادر بحزنه ينفث دخان السجائر
بعد أن: أدرك أن كل حروبه الخاسرة، إن هي إلا شغب أطفال يخربون بيوتهم بأيديهم.
عن حبّ قديم: أين نوال يا ترى؟
وأخيراً قرر الرقص.. فتحلّلت أعضاؤه، فتحول إلى غيمة تطير في السماء".

تعبُر هذا النص بكائية قاتمة، رجل أو ربما قلنا بقايا رجل، يقتعد المقبرة معتزلاً كل الأرض كما يليق بمحارب قديم خسر حروبه المجيدة كلها تماماً كما يخرب الأطفال بيتاً رملياً قضوا نهارهم في تشييده!

وعن حالته يقول "كنت منبتاً وقصياً كناي سقط سهواً من جعبة راعٍ ذاهل فعلقته طفلة البراري على غصن متهتك فبحّ من فرط الحزن صوته.. يا الله"!

المقبرة خير من معاشرة القبور المتحركة (البشر) الآثمة، البشر الملطخين بالمدنيّة، آثر التقوقع والتوحّد مع ذاته في عزلة عن العالم كما في خلوة صوفية، عزلة إلى الداخل كما يقول ريلكه في مفتتح الكتاب.

الشخصية المحورية في النصوص تدخل موجة من القلق الوجودي أيضاً، مشوباً بقدر غير قليل من السخط على الواقع الذي رمي في دركه الأسفل من غير ذنب جناه

العزلة القصية وفي مقابلها الخلوة الروحية والفكرية أفرزتا وعياً مضاعفاً بمكنونات الذات ومساربها، فيما ضاعفتا المسافة ما بينه وبين البشر من أبناء مدينة اليوم، بينما بقي هو برؤية ابن الصحراء ومفاهيمه، غريباً عنها جاهلاً بفرضياتها وقوانينها (كيف له أن يبرّر براغماتية الوجود وقد أضاع أجندته في دهليز تتلاشى فيه كل الوجوه)!

كلّ شيء هامد، و.. يبكي

"سنوات العزلة" بهذا العنوان جاء النص الثاني في كتاب السالم، متقصياً عالم العزلة المفروضة، حين لا تكون طواعية ومضجرة باختيار، كما لدى ريلكه "آه، هذه الرغبة في البدء بالكتابة، ودائما أمامي كل هذا الطريق المسدود، ماذا سيكون عملي؟ كل الصباحات أستيقظ من أجل هذا الأمل غير المفيد معكّراً ومرفوساً من عدم أهليتي".

حين لا تكون العزلة اختيارية، بل قسرية يصبح كل شيء في محيطها هامداً.. كالموت، ويبكي مثل ناي ألقاه راعٍ ذاهل.. "كانت نخلتنا بصمت تبكي، والمزاريب تُنتحب وتبكي، والشبابيك تنتحب وتبكي والحمام كان يطاردنا ويبكي، والأشجار من موشور دموعها توضأت لتصلي صلاة الغائب.. فتنتحب وتبكي".

وهو المعزول، الصامت، الأبكم المكمّم، رجل الظلّ.. الذي لا ظل له، ماذا سيفعل؟ يقول "إذن سيبكي وسيبكي وسيبكي". (ص 31)

فقد تنكرت له كل الوجوه في هذا العالم الموبوء، ولم يمدّ أحد منهم يد المساعدة أو يشرع جسراً للعبور فيما بين الذوات، حتى أقرب تلك الذوات إليه "الحبيبة".

لذا كلّ شيء هادئٌ.. هامد، كل شيء حزين "المطر يهمي بهدوء كهل أدركه الهرم، فيبعث في النفس حزناً عميقاً مما يؤكد الإحساس بالوحدة والحرمان".

أعشاش القصب، بوح العاجز!!

العجز مفردة قاتلة، تضاف إلى المفردات التي يدخلنا السالم في فضاءاتها، العجز عن مواجهة العالم والذات والبشر والحضارة المزيفة، عندما لا تكون قادراً على البوح والإفصاح فجدير بك الموت.

الشخصية المحورية في النصوص تدخل موجة من القلق الوجودي أيضاً، مشوباً بقدر غير قليل من السخط على الواقع الذي رمي في دركه الأسفل من غير ذنب جناه، على طريقة الشاعر القديم "هذا جناه أبي عليّ / وما جنيت على أحد".

مثل من غرق في حضوضا

"حضوضا: أرض رملية تبتلع الناس والدواب، تقع في الجزء المهجور من الشمال غامضة كمثلث برمودا". (ص 47)

الفضاء المكاني عبارة عن جزيئات رملية متحركة تلوي بأجساد من يقفون عليها كدوّامة في عمق المحيط، بيد أن أكوام التراب هي التي ستتولى تكميم وطمر فتحات الجسد وإعاقته عن أي محاولة للتعبير أو حتى الصراخ!

ويا لسوء حظه من يطيح في حضوضا "وش طيّحك بحضوضا يا مقرود؟" هذه الجملة التي تتكرر مرات عديدة في هذا النص المتميز تحيلنا إلى مدى الكارثة المحيطة بهذا المشؤوم / المقرود. أطنان الرمال في حضوضا ترميز عالي الفنية إلى قوى ضاغطة متوارثة وحديثة كذلك، قيود المجتمع والعشيرة والتقاليد القبلية، كما الأجهزة وأنظمة

القيم المستحدثة والديموقراطيات الهلامية. كل تلك القمعيات تمارس ضغطها على المثقف الذي يحاول جاهداً كسرها أو اختراقها باتجاه التنوير والحرية، لكن هيهات، فالدنيا "أضيق من خرم إبرة" كما يعبر الكاتب.

ها هم رسل العشيرة يعلنونها بوجه المثقف المسكين "قريت كم كتاب والآن تبي تتمرّد علينا؟ أنت مربوط بعشيرة يا غشيم !" (ص 46) نعم يا غشيم، وش طيحك بحضوضا يا.. مقرود؟! في هذا النص الذي يختم المجموعة توصّل الكاتب إلى فلسفة العزلة كحالة إنسانية فردية أو جمعية، لكنه توصيف يحمل دقته من كونه صادراً من داخل الحالة وليس خارجاً عنها، لنقرأ "في العزلة وحين تكون وحدك، تنمو معك كائنات متوحشة وجميلة، عالم غريب يقف حاجزاً صلداً بينك وبين البشر، علمتك قوقعة التوحّد كيف تمنع نفسك عن الأحلام". كم هي قاسية وظالمة، العزلة.

العزلة القصية وفي مقابلها الخلوة الروحية والفكرية أفرزتا وعياً مضاعفاً بمكنونات الذات ومساربها.. فيما ضاعفتا المسافة ما بينه وبين البشر من أبناء مدينة اليوم

الحق أن الكاتب لم يولِ حبكته القصصية اهتماماً كبيراً، ولعلّ حالته – في زمن الكتابة وفي زمن الحكاية على السواء – بها من اللوعة والذهول والتلاشي ما يبرر ذلك، بل ويستدعيه من وجهة نظر فنية، فجاءت النصوص تراتيل ناسك أضناه التوحد مع ذاته ومحت ملامحه العزلة. كما أن النصوص جاءت من داخلها مقطعة إلى فقرات تصلح كل فقرة منها أن تكون نصاً بذاته لو أراد الكاتب وزادها اشتغالاً وتنويعاً. وبالعودة إلى تمزق الذات الساردة والذوات المدلوقة على الورق ندرك مغزى ذلك التقطيع الذي بدا أشبه بمونولوجات داخلية ونجوى مع الذات والأشياء.

لغة زياد السالم لغة عالية، فيها سمتان رئيستان، الأولى: البساطة في التركيب وتحاشي التقعر أو الانتقاء الفجّ، كما أن صياغتها سلسة بحيث يطلب بعضها بعضاً. الثانية: استخدام اللهجة الشمالية الدارجة بتقنين واعٍ، حين لم يكن للفصحى أن تنجح في أداء ظلالٍ المشاهد القروية البسيطة التي تعرضها النصوص، خصوصا في الأغاني الشعبية القديمة مثلاً.

وللحقيقة فإن "وجوه تمحوها العزلة" هي واحدة من أبرز الإصدارات القصصية السعودية الجديدة، وكاتبها يقدم نفسه بوصفه واحداً من أولئك الذين قال عنهم نيتشة "من أجل الحقيقة يعانون الجوع في أرواحهم"! أولئك العائدين، ذوي القلوب المنطفئة، الرخويين الذين يعزّون أنفسهم بهذيانات الروح، رغم أن العقل يقدّم لهم الحجارة بدل الخبز ليقتاتوا على العواطف.





القاص زياد عبدالكريم السالم، ولد في دومة الجندل عام 1394هـ وتلقى تعليمه العام في مدارسها، إلى أن حصل على شهادة البكالوريوس من كلية المعلمين بمدينة الجوف ثم عيّن مدرساً إلى أن تم اختياره مشرفاً للنشاط الثقافي بوزارة التربية والتعليم بالجوف. له العديد من المشاركات في الصحافة، وأصدر مجموعته الأولى "رأسي قربانك يا وطني" في عام 1999م، كما أصدر المجموعة الأخيرة "وجوه تمحوها العزلة" في عام 2001م.

قصة قصيرة لـ: عبدالله السفر..

عطر في الممرات..!

المجمع الضخم.. مساءً

في الخارج. سخونة ثقيلة. رطوبة لزجة؛ لكثافتها تكاد تلمسها. لا تخشى أن تدفعها عن وجهك، إذْ الباب ينفتح من تلقائه؛ يسحبك من سخونة ثقيلة ورطوبة لزجة. من جهامة ليل أسود يسدّ المنافذ.

فيْ الدّاخل. تبغتك البرودة الرائقة. بهجة ربيعية قطعتْ ما بينها وبين عالم ما قبل الباب يحتجز وراءه ليلاً أسود تتمطى فيه ثعابين لزجة ساخنة.

في الداخل. يبغتك ضجيج مدينة الألعاب. صرخات تصدح بالضحك المتقطّع. ورنين القطع المعدنية تخشخش في الأكياس الصغيرة تبتلعها الآلات الجشعة. لا تكفّ عن الطّلب. والأقدام الصغيرة لا تكفّ عن خبط الأرض ترغب في المزيد. رغم اليد التي تجرجر تغري بوجبة عشاء تأتي مخفورة بالشيبس والكولا.

المجمع الضخم.. مساءً

في الداخل. مطرقة الضجيج الهائلة تنبعث من كل صوْب. جمعٌ يدخل في البهجة. يرفعه المصعد المكشوف. ترفعه السلالم إلى ذروة المسرّات؛ تبوح بها الوجوه السافرة والوجوه التي شفّ عنها الغطاء. الوجوه صحبةَ المصاعد والسلالم تلتقط رذاذ البهجة وتتبادله؛ مرة في اختطاف حثيث ومرة في تريّث وتؤدة "وثُقل". يترك للعين أن ترتوي ما طاب لها النبع وماؤه السُكر.

المجمع الضخم.. مساءً

ثمّة حياة أخرى تسري

حياة تسري في الممرات. أمام المحلات. نافورة عطر غير مرئية تنطلق من أجساد فتيّة؛ تمرّغت جيداً في زجاجة العطر وأحقاق الكريمات. تتأكّد الآن. وهي تخالس النظر متلهيَةً ببضائع الإغراء في واجهة العرض. تتأكّد الآن بتحديقة مليّة، ويد تسحب الخصل وتربّت بخفّة على قصّة الشعر المودرن. تتأكّد الآن. تعبَ الهواء ومناخ العطر المفلوت في الممرات.

المجمع الضخم.. مساءً

ثمّة حياة أخرى تسري

حياة تسري في مقاهي النعمة والأكتاف المائلة تحتضن بقيّة من كلام؛ رشفة من حكاية تطلّ من ورقة مدعوكة بأرقام مكتوبة على عجل وبخطٍ لاهث، يعيش لحظة مقبلة، يقلبُ عنها الرقم.. ينفض غيمة الأرقام.. الندى القليل الذي يبلّل أصابع متخمة بالمفاجأة وطيب الوعد الآتي؛ يناور ليلاً أسود تتمطى فيه ثعابين لزجة ساخنة.

قول آخر

تسلط أضواء متعددة من خلال المعرض الدولي للكتاب في فرانكفورت بألمانيا على ثقافتنا العربية؛ فشعار المعرض أعد هذا العام بشكل يعكس أهمية لغتنا العربية؛ وضرورة تقديمها بشكل مميز يؤكد تطورها وتجددها من خلال الثقافة والمعرفة والأدب.

سيكون لنا – في ما يبدو – حضور لافت بحجمه وشكله؛ لكن .. ما الذي سيكون عليه المضمون؟ .. وهل سيكون هذا الحدث الثقافي والمعرفي العالمي تحولاً نوعياً فيما سنطرحه أمام الأمة الألمانية التي لا تجامل كثيراً ولا تحابي بشكل مسرف؟ من المؤكد أنها ستقبل على ما سيقدمه المثقف والأديب العربي .. فإن كان ما سيقدمه العربي هو من قبيل مفاهيم "كان" فالأمر لن يثير شيئاً لأنهم اعتادوا أمراً كهذا؛ أما وإن اختلف الأمر عن سابقه من الطروحات فهي نقطة التحول بيننا بكل تأكيد .. بمعنى أننا مطالبون بأن نكون بحجم هذا التحول نحو الجديد المتطور الذي يستبعد فكرة "كان"، لنقدم العمل المعرفي المفيد، الذي يحقق طموحات المثقف العربي في مد جسور التواصل مع العالم من حوله .. فلعلهم يجدون أن لدينا – في هذا المعرض – ما يستحق الاهتمام والمتابعة.

فالغربي بشكل عام والألماني بشكل خاص لديه حساسية مفرطة تجاه الأشياء الجمالية، فإما أن

روايتنا العربية في فرانكفورت

عبدالحفيظ عبدالله الشمري
قاص وصحافي سعودي

تكون الواجهة الثقافية المقدمة متطورة في شكلها ومضمونها فيقبل عليها أو تكون ماضوية ونمطية تكرس ذلك المفهوم المعتاد عن سحر الشرق وغموضه الذي قد لا يضيف شيئاً إلى ما لديهم؛ بل نراهم يتناولونه بوصفه تراثاً قديماً لا يندرج في رؤيتهم الحالية ضمن ثقافة العرب.. التي لاتزال تثري التاريخ بمفهوم "كان".

الفرصة مناسبة لأن يقدم المثقف والأديب العربي رؤية معرفية متحولة نحو صياغة المفهوم الثقافي الجديد الذي يخاطب الأجيال الجديدة؛ ويقدم لهم ما هو مناسب ومتطور؛فمن غير العسير أن يقدم الأديب العربي من خلال هذا المعرض ما لديه من إبداع في الفكر والكتابة والفن الذي يعكس حجم التحول المتميز في لغة الإبداع لدينا؛ والمتمثل في كم لا بأس به من الإبداعات العربية التي لفتت الانتباه؛ لنرى بعضها وقد ترجم إلى أكثر من لغة؛ وكتب عنها في صحف كثيرة؛ وتحدث عنها النقاد وأساتذة الجامعات الغربية على أكثر من منبر. فرغم أن ثقافتنا العربية تتواصل مع الآخر إلا أنها لا تزال تعاني بعض المعوقات، من أهمها قلة الانتشار؛ وشح الأعمال المترجمة؛ وارتفاع سعر صناعة الكتاب الذي يؤدي إلى ارتفاع ثمنه حينما يصل إلى القارئ؛ وهي معوقات خطيرة تحتاج إلى علاج.

أود أن يكون هناك شعار آخر يوازي شعار المعرض الذي قدم بعناية متميزة؛ وليكن هذا الشعار الثقافي المعرفي الذي أتصوره هو "روايتنا العربية" .. فهو محور متطور جديد ثبت تفاعلنا معه؛ بل نراه وقد نهض نحو العالمية من خلال ما قدمه الأديب العربي المصري نجيب محفوظ؛ حينما حاز وبجدارة واستحقاق جائزة نوبل للآداب أواسط الثمانينيات.

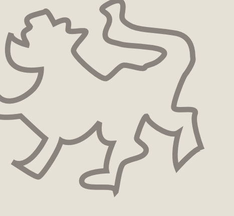
وإحقاقاً للحق فإن الأمر لم يقف عند حد الجائزة، إنما جاء هذا التتويج منعطفاً مهماً في التجربة الروائية في العالم العربي؛ بل نرى أن مشروعنا المحلي – على وجه التحديد – تأثر كثيراً بهذا التدفق الإبداعي؛ لنرى الكتَّاب والأدباء والمبدعين قد أخذوا على عواتق أقلامهم مهمة تغيير المفهوم النمطي لفن الرواية الذي ظل ولمدة عقود خلت مواظباً على محاكاة الآخر. فجهود التغيير أثمرت حينما تشكل لدينا مشروع إبداعي أسهم فيه العديد من الكتَّاب؛ منهم على سبيل المثال في المجال الروائي الدكتور غازي القصيبي؛ والدكتور تركي الحمد وعلي الدميني، ورجاء عالم، وأحمد أبو دهمان، وآخرون أثروا مشهدنا الثقافي المحلي والعربي بالإبداعات الجديدة من شعر وقصة ورواية وفنون أخرى.

لنعلن إذن شعارنا حول مفهوم "روايتنا العربية"؛ فهو ملمح مهم من ملامح تحول أدبنا وثقافتنا الحديثة؛ فالحديث عنها سيمنحنا الفرصة المناسبة لأن نشكل أفقاً جديداً يبعدنا عن نمطية ما يفكر فيه الغربي حينما يجعلنا في تفاصيل "فنون ومعارف ما كان" في وقت لا يقيم أي فكرة ولو بسيطة عن الطروحات الجديدة للأديب والمبدع والمفكر والفنان العربي في مجالات شتى.



لا يلحظ المرء تبدل أحوال العالم والحياة اليومية من حوله إلا عندما يستذكر ماضيه وطفولته، أو عندما يتطلع جيل معين إلى الجيل اللاحق به.
ويقال عموماً إن الحاضر مؤلم، وإن المستقبل مصدر قلق، وإن الماضي هو المرحلة الزمنية الوحيدة الخالية من الألم والقلق، ولذا فهو دائماً مثير للحنين. فهل الأمر صحيح؟ الزميل عبّود عطية اختار أن يرحل بنا في هذا الملف إلى الماضي.. إلى مرحلة زمنية تقع في منتصف عمر حضارتنا العربية والإسلامية.. اختار عشوائياً سنة محددة، وأعاد في هذه الصفحات رسم صورة العالم آنذاك بما فيه من قضايا وهموم وفرسان وشعراء وأسوار وقلاع وحياة يومية لم يصلنا منها سوى بعض الخرائب والأطلال وذكريات متفرقة في الكتب.

اضطراب الأحوال وتسلطن الظاهر



صباح يوم الثلاثاء الثامن عشر من ذي القعدة 658هـ (أكتوبر 1260م)، كانت شوارع القاهرة في أبهى حلة بعدما استكملت زينتها استعداداً لاستقبال السلطان المظفر قطز بطل معركة عين جالوت، الذي ردّ خطر المغول عن الديار المصرية وطاردهم حتى ما بعد حلب شمالاً وألحق أول هزيمة بهم. وفجأة، طاف المنادي في الشوارع وهو يصيح "ترحمّوا على الملك المظفر وادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس". فأصاب الناس الذهول والحزن. لأن بشرى الانتصار على المغول جاءت مقرونة باسم الملك المظفر.. فمن هو هذا الملك الجديد؟

لم يعرف الناس ما حصل في قلعة الجبل الليلة الفائتة. فقد وصلتها على عجل كوكبة من الفرسان تضم ستة أمراء هم فارس الدين الأتابك، وبدر الدين بيسري، وبيليك الخازندار، وقلاوون الألفي، وبلبان الرشيدي، وبيبرس البندقداري.

ولم يعرف الناس آنذاك أن القدر يخبئ لهم في تلك الكوكبة من الفرسان اثنين من أعظم سلاطينهم. أولهما بيبرس الذي سارع إلى تثبيت سلطانه بجلوسه على التخت في الإيوان واستدعاء كل من في القلعة ليحلفوا بالولاء له.

وكان من بين الذين حضروا حفل التنصيب المقام على عجل، الوزير زين الدين يعقوب بن الزبير، الذي أشار على بيبرس بتغيير لقبه القاهر، لأن ما من واحد تلقّب به فأفلح، فأبطل بيبرس لقبه وتلقب بـ "الظاهر". وما عرفه الناس هو أن المنادي عاد بعد الظهر إلى الشوارع ليطلب الدعاء إلى "الملك الظاهر".

سقنا هذه الواقعة التاريخية للدلالة على ما كان عليه اضطراب الأحوال في ذلك الزمن. اضطراب على كل الصعد، لا يكتفي بترك بصماته على معالم الحياة، بل يحيد بها عن مجراها ويعيد رسمها جملة وتفصيلاً، بدءاً بأسوار القلاع وانتهاء بالنقوش على الدنانير الذهبية، مروراً بالعادات والتقاليد ومعالم الحياة اليومية. وتلافياً للأحداث المثيرة التي يمكن أن تشدنا إلى زخارف وتفاصيل يضيق المجال بها، سنحاول حصر رحلتنا التاريخية هذه قدر الإمكان في العام التالي لموقعة عين جالوت، أي عام 659هـ (1261م).

العالم آنذاك

باستثناء الحجاز الذي كان مستقراً نسبياً آنذاك، كانت خارطة العالم الإسلامي تتبدّل من شهر إلى آخر. فقد كان الفرنجة يحتلون ساحل بلاد الشام بطوله من أنطاكية شمالاً حتى قيسارية وعكّا جنوباً. وكانت بغداد وحلب قاعاً صفصفاً على أيدي المغول الذين لن تثنيهم هزيمتهم في عين جالوت عن معاودة الكرّة هذا العام. فدفعت حلب الثمن مرتين إضافيتين: خلال اجتياحها وخلال تراجع المغول المهزومين في موقعة حمص.. وإضافة إلى توالي غارات الإسبان على المدن العربية في الأندلس التي صارت تحت رحمتهم، كانت الأوضاع الداخلية على درجة عالية من الاضطراب.

بويع في الثامن من شهر رجب في تلك السنة أبو القاسم أحمد العباسي بالخلافة في القاهرة، وتلقّب بالمستنصر بالله ليسد بذلك الفراغ في سدّة الخلافة منذ مقتل المستعصم بالله قبل ثلاث سنوات. غير أن الخليفة الجديد سيلقى حتفه لاحقاً في السنة نفسها وعلى أيدي المغول أيضاً.

ومن الأعلام الذين قتلوا في تلك السنة ثلاثة من ملوك الأيوبيين كانوا في مهمة عند هولاكو الذي ما إن بلغه نبأ هزيمة جيشه في حمص حتى أمر بقتلهم جميعاً، وهم: الملك الناصر يوسف الأيوبي صاحب مدينة دمشق "الشرعي"، وأخو الملك الظاهر سيف الدين غازي، والملك الصالح نور الدين اسماعيل صاحب حمص. وتقلّصت بقايا الدولة الأيوبية هذا العام لتقتصر على حمص وحماه. إضافة إلى قلعة الكرك (الأردن). وفي دمشق تمرد الأمير علم الدين سنجر الحلبي وهو من مماليك قطز، وسارع إلى إعلان سلطنته على المدينة، الأمر الذي استدعى من سلطان القاهرة الجديد تجريد حملة لإخراجه منها.



خارطة العالم الإسلامي عشية تسلطن الظاهر بيبرس

أطلس تاريخ الإسلام (الحقوق محفوظة)

وإذا أضفنا إلى ذلك أن القاهرة كانت قد عرفت خلال السنوات العشر الأخيرة (بعد نجم الدين أيوب) خمسة سلاطين قضوا كلهم قتلاً وهم: توران شاه، شجر الدر، المعز أيبك التركماني، المنصور علي بن أيبك والمظفر قطز، لاكتملت صورة الاضطراب الذي ساد الحياة ككل، واصطبغ به وجدان الناس. ولأن البقاء كان للأقوياء فقط، كان من الطبيعي أن "تتعسكر" معظم معالم الحياة، وأن تتسم بكل معالم الصراع من أجل البقاء.



كان وصول الإمام أحمد أبو العبّاس إلى القاهرة في التاسع من شهر رجب، وبويع بالخلافة في الثالث عشر منه. ثم جاء دور الخليفة في تثبيت سلطنة بيبرس شرعياً.

.. ولما كان يوم الاثنين الرابع من شعبان، ركب السلطان إلى خيمة ضربت له بالبستان الكبير بظاهر القاهرة، ولبس "الخلعة الخليفتي" وهي جبّة سوداء وعمامة بنفسجية وطوق ذهب وسيف بداوي وقيد ذهب. وجلس مجلساً عاماً حضره الخليفة والوزير والقضاة والأمراء والشهود، وصعد القاضي فخر الدين ابن لقمان منبراً نصب له، وقرأ التقليد وهو بخطه وإنشائه، ثم ركب السلطان بالخلعة والطوق والقيد ودخل من باب النصر وشقّ المدينة وقد زينت له، وحمل الصاحب بهاء الدين الوزير التقليد على رأسه قدامه راكباً والأمراء يمشون بين يديه، وكان يوماً مشهوداً تقصر الألسنة عن وصفه.

المدن والقلاع

على طول الجبال الساحلية في بلاد الشام كانت القلاع تحتل القمم، حتى زاد عددها على الثمانين. كانت جديدة ترفرف فوقها رايات مختلفة، منها ما هو باللون الأحمر وعليه صورة "الببر" (يشبه الأسد) شعار بيبرس، ومنها رايات الفرسان الفرنجة من داوية واسبتارية ونورمانديين وغيرهم..

كانت أبواب القلاع لا تقفل إلا في الليل وفي حالات الاستنفار، أما نهاراً، فقد كانت مشرعة، ومن حولها حركة لا تهدأ. فسكان الواحدة منها يعدون بالمئات، وربما تجاوزوا في أوقات المحن الألف أو الألفين. كانت قرى



المرقب.. واحدة من عشرات القلاع في ساحل الشام

قلاع وأسوار وناس من كل الأجناس


حصن الأكراد.. القلعة الجديدة التي تعجّ بالفرنجة


أسوار حلب.. تخريب وترميم ثم تخريب...

صغيرة لها مستلزمات الحياة اليومية. وعلى فرسانها التفاعل والتعاطي مع القرى والمزارع المجاورة، حتى ولو كانوا من أتباع أعدائهم.

وكانت لكل مدينة قلعتها، إضافة إلى السور الذي يحميها. ففي حال تداعى السور، تبقى القلعة الملاذ الآمن للنخبة أو لمن يستطيع الوصول إليها، خاصة في المدن التي كانت قد نمت وتوسعت خارج الأسوار كما هو حال دمشق وطرابلس.

وأشهر قلاع العالم في ذلك الوقت كان "حصن الأكراد" الذي بناه الفرنجة ولا يزالون فيه، وهو حصن عصى على صلاح الدين الأيوبي، لكنه سيسقط لاحقاً في أيدي بيبرس، وقلعة "المرقب" التي عصت على صلاح الدين وبيبرس، لكنها ستسقط لاحقاً في أيدي المنصور قلاوون. وقلعة حلب التي لم تؤخذ عنوة مرة واحدة في التاريخ، غير أنها سقطت في العام الفائت في أيدي المغول بالحيلة. وقلعة الجبل في القاهرة كانت بعيدة عن أيدي الأعداء، لكنها استمدت أهميتها من كونها مقر السلطان وحاشيته التي تضم إدارة الدولة بأسرها. أما قلعة دمشق فقد كانت في تلك السنة تعاني أضراراً في رؤوس أبراجها، فأمر علم الدين سنجر الحلبي بترميمها وإصلاحها، وانصرف الدمشقيون إلى هذه المهمة وسط الاحتفالات ابتهاجاً بالأمر.

وفي طليعة المشاريع الإعمارية التي بدأها بيبرس تلك السنة كان ترميم القلاع التي خرّبها هولاكو. وهي: بعلبك والصبيبة والصلط وصرخد وعجلون وبصرى وشيزر وحمص وشميميش.

وكانت المدن تؤتى من أبوابها. وبعض الأبواب كان أقرب إلى القلاع الصغيرة، يتعرج في الداخل لمنع الأعداء من اقتحامه بالكبش (وهو عامود خشبي طويل يحمل في طرفه رأس تيس ماعز من المعدن تدك به الأبواب عند اقتحامها). وكانت الأبواب تغلق ليلاً فقط. أما في النهار، فكانت تتحول إلى أسواق أو أماكن عامة تتجمع عندها طائفة معينة من التجار كما هو حال باب أنطاكية، أو طائفة من الحرفيين كما هو حال باب النصر في حلب، أو الباحثين عن اللهو والفساد كما هو حال باب زويلة في القاهرة.

السكان

كان النسيج السكاني لمعظم المدن يتبدل بسرعة ولا يستقر على حال. فانتصار الفرنجة على مدينة أو بلدة كان يعني قتل بعض السكان وتهجير الباقي أو معظمهم. أما انتصار المغول فكان يعني إنزال ما يشبه الإبادة بسكان هذه المدينة، كما هو حال حلب في العام الفائت وهذا العام. فقد تعرض سكانها إلى مذبحتين عملاقتين.. ولا بدّ من تشريع أبواب المدينة أمام سكان جدد. وكان المماليك في معظم الأحيان هم السكان الجدد.

كان يُؤتى بالمماليك بواحدة من طريقتين: إما الأسر خلال المعارك والحروب، وإما الشراء من تجار متخصصين في هذه المهنة.

وفي تلك السنة، وصل إلى مينائي الإسكندرية ودمياط ألفا مملوك. هذا عن طريق البحر ولمينائين مصريين فقط. ولمعرفة مدى تدفق هؤلاء على المدن العربية يجب أن نضيف ما كان يصل إلى القاهرة براً من بلاد النوبة والحبشة، وإلى بلاد الشام براً من آسيا الوسطى وأوروبا الشرقية.

ولأن الغاية الأساسية من استقدام هؤلاء كانت إعدادهم ليصبحوا عسكريين لما تتطلبه الحروب المستمرة من وقود، وأيضاً حماية الدولة وسلطانها من كيد المتآمرين، فإن أسعار المماليك كانت تتفاوت تبعاً لأجناسهم ومدى الحاجة إليهم وبنية الواحد منهم. في هذه السنة، تراوح سعر التتري ما بين 130 و 140 دوكاتو، والجركسي ما بين 110 و 120، أما اليوناني والألباني فحوالي 90، وكان أرخصهم ثمناً الصربي الذي تراوح سعره ما بين 70 و 80 دوكاتو.

غير أن الأسعار لم تكن ثابتة. فالمملوك سيف الدين قلاوون الذي تسلطن في وقت لاحق كان ثمنه ألف دينار، ولقب بسبب ذلك بالألفي. ولاحقاً سيشتري السلطان برسباي مملوكاً يُدعى قايتباي، سيصبح بدوره سلطاناً، بخمسين ديناراً فقط رغم أنه كان جركسي الجنس.

أفضل المماليك من كان في سن الفتوة وقوي البنية، إذ يبدأ تدريبه العسكري فوراً، ويسهل تطويعه وتطبيعه مع نمط الحياة، في واحد من مركزين رئيسين: إما في جزيرة الروضة على النيل (المماليك البحرية)، أو في القلعة (البرجية أو الجراكسة).

أما أسوأ أنواع المماليك فكانوا الذين يؤتى بهم كباراً في السن لقلّة الفتيان، ويدعى هؤلاء "الجلبان". إذ يصعب تطبيعهم، فيبقون على عاداتهم التي شبّوا عليها في أصقاع الأرض المختلفة يتصرفون مع العامة بأشكال همجية لا رحمة فيها.

وأعلى طبقات المماليك كانت الخاصكية، وهي النخبة منهم التي اشتراها السلطان بنفسه أو انتقاها مما ورثه عن سلفه. فمن هذه الطبقة كان يؤمّر الأمراء، وتدار الدولة ويقاد الجيش.

وإضافة إلى الأتراك والجركس والفرس والتتار وباقي أجناس المماليك، كان الأكراد قد تغلغلوا في المدن العربية وأصبحوا جزءاً ثابتاً في نسيجها على عهد الدولة الأيوبية، وسلاجقة الروم أيضاً، والتجار الأوروبيين، خاصة البنادقة والفلورنسيين.. الأمر الذي يكشف مدى تنوع الأجناس والأقوام التي كانت ترسم معالم الحياة في مدننا آنذاك.


مملوك عند تاجر أسلحة

جمعٌ في أحد الأسواق

الحياة اليومية في المدن

كانت الجندية أجزل المجالات عطاءً، والعسكريون يحتلون قمة الهرم الاجتماعي. كانت هناك رواتب ثابتة، ونفقات خاصة لمناسبات عديدة مثل الخروج إلى القتال أو النصر. ويمكن لنفقة النصر أن تصل إلى مئة دينار لكل جندي من المماليك، عدا ما يستولي عليه خلال الغزو. حتى أن صغار الجند من العرب الذين كانوا يكتفون تقريباً بالطعام والشراب خلال تجريد حملة على مكان معين، كانوا يعودون بثروات صغيرة إذا حالفهم النصر.

وعمل الرجال في البناء الذي كان ناشطاً جداً آنذاك: قصور ومنازل للأمراء الجدد، مساجد، قلاع وترميم أسوار. وكان العاملون في هذا الحقل يتدرجون على السلم الوظيفي من الصبي إلى الحرفي ثم المعلّم. غير أن أوسع مجالات العمل في المدن آنذاك كانت الحرف والصناعات اليدوية وتجارتها. ولكل حرفة وتجارة سوقها شبه الخاص بها، وينتظم الذين يتعاطونها في ما يسمى "طائفة" ذات نظام داخلي وتقاليد تنظم أصول المهنة، وتؤمن المساعدة لمن تتعثر حاله من أبنائها.. مثل طائفة السقائين، والحدادين، والنجارين، والمراوحين (صنّاع المراوح)، والأمشاطيين (صنّاع الأمشاط)، والفاخرانيين (صنّاع الفخار) والحلاقين الذين يمارسون إلى جانب حلاقة الرأس والذقن وظائف أخرى تخرج عن حدود التسمية مثل الختان وثقب الآذان وخلع الأسنان!!.

وكان المحتسب يراقب أداء هؤلاء الحرفيين ويمنعهم من الغش الذي تصل عقوبات بعض أشكاله إلى القتل، وإن كان معظمها يقتصر على التجريس، أي حمله بالمقلوب على ظهر حمار والطواف به في الشوارع والجرس في رقبته يرن باستمرار للفت نظر الناس إليه وإهانته.!

سكن المدن ومعالم الحياة فيها

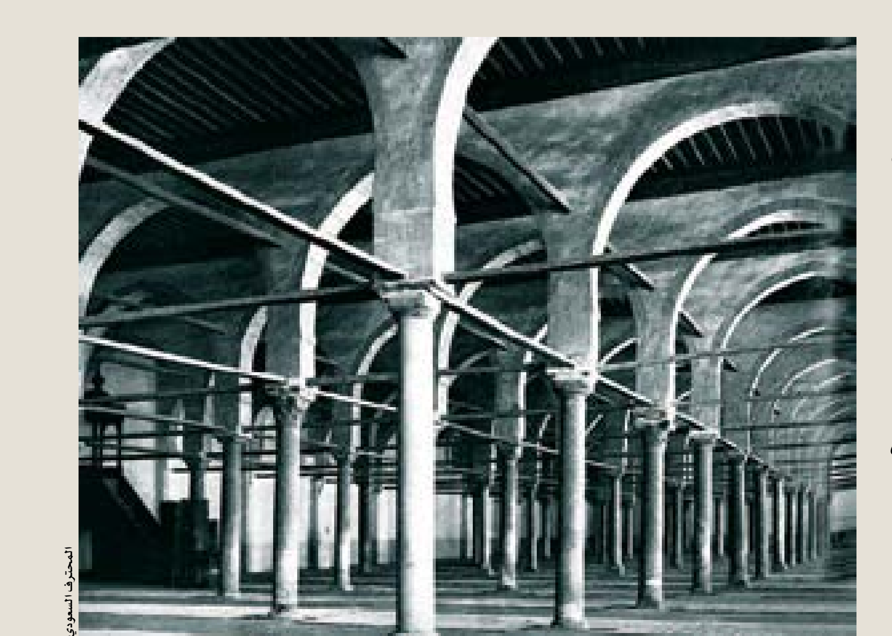
كان الحمار وسيلة التنقل الرئيسة في شوارع المدن. وهي أزقة ضيقة ومتعرجة تعلوها المشربيات الخشبية من الجهتين. أما الخيول فكانت من نصيب المماليك فقط. لا ينال العامة منها سوى السقوط تحت حوافرها عندما يجتاح السوق مملوك أو شلّة مماليك على صهوات جيادهم الراكضة بسرعة وسط الزحام.

ويقطن معظم التجار في دار أو "رباع" (مبنى سكني) يعلو متجرهم، أو على مقربة منه. وكان التاجر يمضي نهاره على مصطبة أمام دكانه يتحادث مع زواره وعابري السبيل، ولا يدخل متجره إلا إذا أتاه أحد الزبائن، ولا يذهب إلى منزله إلا للنوم.

وفي المدن الكبيرة فنادق وخانات لإقامة التجار والغرباء الوافدين من المناطق البعيدة. وأشهر الفنادق الناشطة في القاهرة في هذه الفترة كانت من منشآت العهد الأيوبي ومنها فندق ابن قريش وفندق طرنطاي وفندق القصب وفندق العسل وفندق دار الخضر.. (ومعظمها يضم حوانيت تبيع السلع التي يحملها إليها التجار). ولكن الفنادق والوكالات كانت حكراً على التجار والميسورين. أما الفلاحون والفرسان والعسكريون خارج خدمتهم، فإنهم كانوا يقضون حاجياتهم في المدينة نهاراً، ويخرجون منها ليلاً إلى البراري المجاورة للنوم.

وأكثر المناطق حيوية في المدن كانت في جوار مساجدها الكبيرة. في القاهرة، كان الأمراء وأعيان المدينة يؤمّون مسجد ابن طولون للصلاة، أما الفقراء فكانوا يصلّون في جامع عمرو بن العاص. ويعكس محيط المسجدين الانتماء الطبقي نفسه. وفي دمشق كان جامع بني أمية هو قبلة المصلين من كبار الموظفين والوجهاء.. أما الفقراء فكانوا يصلون في المساجد الأيوبية الصغيرة في حي الصالحية وغيره وفي المدارس والخانقوات. وفي جوار هذا المسجد قامت كل أسواق دمشق وتجمع كل حرفييها.

Sotheby's (d.r.)



المحترف السعودي



المحترف السعودي

الصورة في الأعلى: جامع عمرو بن العاص في القاهرة الذي كان يقصده الفقراء، وفي الصورة الثانية جامع أحمد بن طولون الذي كانت تقصده النخبة

كانت الخانقاوات من العمائر الدينية المهمة والكثيرة المخصصة لإيواء الصوفيين المنقطعين للعبادة. وقد ارتبطت وظيفة بعض الخانقوات في هذه الفترة ببعض المظاهر الدينية مثل إقامة خطبة الجمعة، ولذ أطلق عليها اسم "الجامع الخانقاه" تمييزاً لها عن المسجد الجامع الذي اقتصرت وظيفته على إقامة الصلاة.

وإضافة إلى الخانقاه كمؤسسة تعليمية دينية، كان هناك ما يشبهها ويدعى "الرباط" الذي يؤوي الصوفية والفقراء من دون أن يكونوا من أتباع أية طريقة، لا بل يمكنهم أن يكونوا أيضاً من صغار العسكريين القدامى الذين ضاقت بهم السبل.

عمل المرأة

تركت الحروب الكثيرة والاضطرابات الأمنية أعداداً كبيرة من العائلات من دون معيل، الأمر الذي دفع المرأة إلى ميدان العمل أكثر من أي وقت مضى.

كانت صناعة الغزل والحياكة والخياطة من أوسع المجالات التي عملت فيها المرأة آنذاك. وأيضاً صناعة الفخار التي وصلنا منها طبق يحمل في قاعه توقيعاً يقول "من عمل خديجة". ومن المهن النسائية الأخرى كان هناك: "البلّانة" التي تعمل في تحفيف النساء في الحمامات العامة، و"الماشطة" التي كانت تقوم بتجميل النساء في الحمامات أيضاً، و"الصانعة" التي كانت تمشي في الشوارع وتنادي "الصانعة يا بنات" وقد غرزت في عصابة رأسها الإبر التي تستعملها في وشم أيدي النساء ووجوههن بالحنّاء. و"الخاطبة" التي تدبّر الزيجات وترشد الشبّان أو ذويهم إلى بيوت يمكنهم أن يجدوا فيها العرائس المناسبات.

إضافة إلى ذلك، كانت هناك مهنة "الداية" أو "المولدة" كما هو الحال دائماً وأينما كان. غير أنه كانت لهذه المهنة في ذلك العصر سماتها الخاصة. فقد كانت الداية تحضر إلى البيت الذي ينتظر مولوداً قبل يومين أو ثلاثة أيام، حاملة معها الكرسي الخاص بالولادة، وهو ذو شكل فريد وخاص تجلس عليه المرأة أثناء الوضع. وكان الكرسي يغطى بشال أو ملاءة مطرزة خصيصاً للمناسبة، ويزين ببعض الورود أو الزهور ويوضع أمام منزل السيدة الحامل إعلاناً عن قرب وضع المولود. وفي منازل الأثرياء، كانت الأم ترتاح في سريرها بعد الولادة لفترة تتراوح بين ثلاثة وستة أيام. أما الفقيرات فلا ينقلن إلى السرير على الإطلاق، بل يعدن إلى ممارسة أعمالهن العادية في اليوم التالي إذا كانت لا تحتاج إلى مشقة جسدية كبيرة.

الطعام وألوانه

بسبب انهماك المرأة في العمل وأنماط التصاميم الداخلية للبيوت، خاصة الصغيرة، كان سكان المدن، لا سيما أبناء الطبقات الشعبية منهم يأكلون في "المطابخ".

في القاهرة وحدها فاق عدد المطابخ تلك السنة العشرة آلاف.. منها ما يطبخ ويبيع الطعام لروّاده، ومنها ما يطبخ للمنازل. إذ كانت العائلات تشتري حاجيات الطبخة التي تريدها وترسلها إلى المطبخ، وقرابة الظهر أو عند المساء، يأتيها الطعام جاهزاً على صينية يحملها أحد الصبية.

المحترف السعودي

وكانت المرأة تعمل، خاصة من لا معيل لها

أفضل أنواع الخبز المرافق للطعام هو "الحواري" المصنوع من الدقيق المنخول جيداً وناصع البياض، وهو بطبيعة الحال ليس من نصيب الفقراء والطبقات الشعبية. فعلى هؤلاء القبول بخبز الذرة، أو بـ "الكماج" الذي يعجن من دون خميرة. أما الخباز الذي يضبط وهو يبيع خبزاً ناقص الوزن فيعاقب بتسمير إحدى أذنيه بعارضة باب مخبزه.

الخضار والفاكهة في أسواق القاهرة. أمّا في حلب...



المحترف السعودي

وكانت أسعار المواد الغذائية تختلف من مكان إلى آخر. غير أن الغلاء بلغ ذروته هذه السنة في حلب التي خرّبها المغول وضربتها المجاعة. فبلغ ثمن رطل اللحم سبعة عشر درهماً، ورطل اللبن خمسة عشر درهماً، ورطل السكر خمسين درهماً، وبلغ ثمن الدجاجة خمسة دراهم، والبيضة درهماً ونصف الدرهم، والبصلة نصف درهم، وحزمة البقل درهماً، والتفاحة خمسة دراهم.

في مصر، كان الفول هو الطبق الرئيس في مطابخ الفقراء.. أما في بلاد الشام فكانت المعجنات المقلية بالسمن والزيت هي الأكثر شعبية. ولكن هذا لا ينفي وجود مطابخ متخصصة في طبخ الحبوب واللحوم والطيور على أنواعها. ومن فئات الطباخين هناك النقانقيون (الذين يبيعون النقانق)، والكبوديون (باعة كبدة الأغنام والدجاج) والرواسون (باعة رؤوس الماعز المطبوخة)، والبقلانيون (باعة البقلاء).. وقد ورد في الأدب الشعبي الذي وصلنا من تلك الفترة حديث عن الكباب، والكبابجي، والاوز المحشي بالأرز.. دون أن ننسى الحلوانيين.

الأغنياء والفقراء والنقد الذي عرفوه



الحرافيش

المحترف السعودي



مشهد من أحد الأسواق كما تخيله فنّان

المحترف السعودي

كانت طرابلس أشهر المدن في صناعة الحلوى منذ زمن بعيد. حتى أن الفرنجة الذين احتلوا المدينة أخذوا عن سكانها عادة تناول الحلوى بعد الطعام ونقلوها من هناك إلى أوروبا بأسرها. ومنذ احتلال المدينة فرّ عدد كبير من معلمي صناعة الحلويات، وانتقلوا بفنهم إلى دمشق.

كان عسل النحل هو المادة الأساس في صناعة الحلوى، تغمس فيه المعجنات المختلفة المقلية بالسمن البقري. وكان بعض الحلوانية يغش الحلوى بصناعتها بعصير الليمون بدلاً من عسل النحل، أو قد يستعملون "القند" وهو عسل قصب السكر بدلاً من عسل النحل في المشبك والقاهرية. كما كانوا يغشون الخبايص الناعمة التي يجب أن تصنع من دقيق القمح أو السميد أو دقيق الأرز، بالنشا الزائد عن الحد. وكان المحتسب بالمرصاد لهؤلاء. ومن الحلويات الشعبية هناك الميمونية المصنوعة من السميد المقلي بالسمن البقري والممزوج بالعسل، وتؤكل مع الخبز لتخفيف حلاوتها الجارحة. وفضلاً عن تناول الحلوى يومياً، ارتبط استهلاك الفاخر منها بالمناسبات. ففي ختان أولاد أحد القضاة، استطاع أحد الحلوانيين ويدعى ابن الزيبق الحلواني أن يبيع المتفرجين حلوى بمبلغ مئة وعشرين ديناراً.

الدينار الجديد الذي ضربه بيبرس في الإسكندرية عام 659هـ

صور العملات: كتاب متحف العملات (الحقوق محفوظة)

الطبقات الشعبية

كان الأمراء المماليك يشكلون النخبة الاجتماعية في كل شيء، يليهم الأشراف الذين كانوا ينتظمون في كل مدينة ضمن "نقابة". وكان لنقيبهم كلمة مسموعة عند السلطان أو نائبه.. ولكن دوره كان يقتصر في معظم الأحيان على نقل الشكاوى من تعسف بعض المماليك وظلمهم للناس. وتوزع التجار على مختلف الطبقات، وعاشوا أنماطاً مختلفة من الحياة. فكبارهم عاشوا كالأمراء في منازل كبيرة مفروشة بأفخر أنواع الأثاث، وانضم صغارهم إلى أدنى الطبقات الشعبية.

من هذه الطبقات الدنيا كان هناك الزعر أو الزعّار. ولكل حي في كل مدينة حصته منهم. وينقسم الزعر إلى قسمين: العيّارون والشطّار. والعيارون هم جماعة من صغار الباعة في الأسواق والفقراء والعاطلين عن العمل. كان لهم نظام كالجند، فعلى كل عشرة منهم عريف وعلى كل عشرة عرفاء نقيب، وعلى كل عشرة نقباء قائد، وعلى كل عشرة قواد أمير. وكانوا يعرفون بـ "جلاجل" من الصوف الأحمر والأصفر يلفّون بها أعناقهم. وكانوا يقاتلون في المعارك شبه عراة، وفي أوساطهم المآزر، وعلى رؤوسهم أكياس من الخوص أسموها الخوذ.

أما الشطّار فهم الجماعات العاملة في اللصوصية والنهب وفرض الخوات. وكان لهم زيهم الخاص، ويئتزرون بمئزر خاص يعرف بـ "إزار الشطّار". وبالنسبة لأخلاق هؤلاء فقد اتصفوا بالصبر على الشهوات وتحمل الأذى كالضرب وتقطيع الأعضاء والصلب والسمل. كما كانوا أمناء على أسرار أصدقائهم ويحافظون على المحارم ولا يتعرضون للنسوة (بخلاف المماليك) ويقدسون شرف الكلمة ويتجنبون الكذب. وكان يحصل في كثير من الأحيان أن تندلع مواجهات دموية بين الزعر في هذه الحارة وآخرين من حارة أخرى، مثل المعركة التي نشبت بين زعر باب الجابية وزعر الصالحية في دمشق ودوّنها المؤرخون.

ومن الفئات الشعبية واسعة الانتشار كان هناك الحرافيش. وهم من الفقراء المعدمين العاطلين عن العمل، ويعتاشون من صدقات التجار والأثرياء، أو من التسول، وسيزداد لاحقاً عدد هؤلاء لينتظموا في ما يشبه الجيش الشعبي وينصبوا عليهم سلطانهم الخاص، الذي سيكون بدوره في خدمة سلطان مصر والشام.

المال والنقد

تتألف العملة السارية من الدنانير الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية. وكان كل من تسلطن قبل سنوات قد ضرب كميات قليلة من النقود التي تحمل اسمه. ولكن أكثرها تداولاً بين الناس كان لا يزال دينار الملك الكامل الأيوبي الذي سكّ قبل نحو نصف قرن. وهذا "عيب" سيسعى بيبرس إلى معالجته بدءاً من هذا العام بسك دينار جديد يحمل اسمه وشعاره في داري الضرب في القاهرة والإسكندرية إضافة إلى دمشق وحلب.

وإلى جانب دنانير السلطنة، كانت المدن الساحلية تتعامل أيضاً بالدوكاتو البندقي الذي كان يصل إلى أيدي المسلمين إما عن طريق التجار، أو عن طريق تحرير إحدى المستعمرات التي





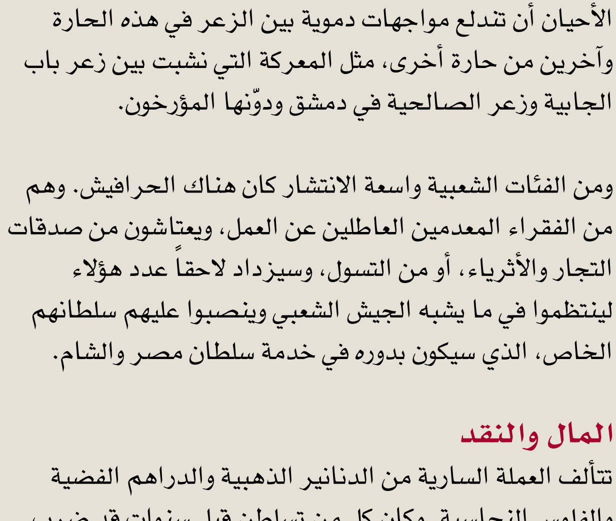


ظلت العملات الأيوبية ودينار الكامل الأكثر رواجاً حتى في السنوات اللاحقة



محراب المدرسة الظاهرية (دار القصيفي) في دمشق

المحترف السعودي



المحترف السعودي

الحج في تلك السنة

أدى الغزو المغولي إلى قطع كل الطرق البرية أمام الحجاج المسلمين من أبناء كل الدول الآسيوية الواقعة شرق الفرات وحتى حدود الصين. وإلى ذلك أدت أحداث السنة الفائتة إلى انفلات عقال الأمن في بادية الشام التي أصبحت مرتعاً للصوص وقطاع الطرق، فانخفض عدد الحجاج بشكل لم يسبق له مثيل من قبل حتى قال بعض المؤرخين "وفي تلك السنة لم يحج أحد من الناس".

أما هذه السنة، فسيبدأ الاعتماد على طريق قديم- جديد يقضي بتوجّه الحجاج من معظم أصقاع الأرض إلى ميناء عيذاب المصري على البحر الأحمر، والانتقال من هناك بحراً إلى جدة التي راح ميناؤها يكبر، حتى وصفه ابن تغري بردي لاحقاً بأنه "أعظم ميناء في الدنيا".

وكان موعد انطلاق الحجاج من مصر إلى الديار المقدسة مناسبة لإطلاق سلسلة من الاحتفالات الشعبية تبلغ ذروتها عندما ينتهي إعداد كسوة الكعبة الشريفة، فتوضع على محمل، يطاف به في شوارع القاهرة وسط مظاهر احتفالية ينتظرها الناس من عام إلى عام.

الفنون حيثما يتوفر المال والمهارات

فن الزخرفة الأيوبية التي تبنّاها المماليك



(أرامكو وورلد)

يحتلها الفرنجة. وقد تميّز الدوكاتو بوزنه الثابت ودقة السكة وعياره البندقي المرتفع، فكان موضع ثقة، وسيتحول خلال سنوات قليلة إلى عملة عالمية بسبب عبث المماليك بالدنانير التي كانوا يسكونها من جهة عيار الذهب والوزن.

أما في الحجاز، فقد كان على التجار في جدة ومكة المكرمة والمدينة المنورة التعامل مع سلّة عملات ذهبية وفضية لا حصر لتنوعها في جيوب الحجاج، وتبدأ بالمسكوكات الهندية شرقاً وتنتهي بالحفصية والأندلسية غرباً. وكان التجار يعرفون قيمة هذه العملات مقارنة ببعضها غيباً.. ومن لا يعرف، فهناك الميزان لمساعدته.

إلى ذلك، كان هناك ما يعرف باسم "الدينار الجيشي"، وهو ليس عملة حقيقية، بل كان ديناراً وهمياً أو وحدة قياس، تقاس به قيمة الإقطاعات والأراضي ومواردها خلال توزيعها على كبار الجند من الأمراء والمماليك.

الفنون والحرف

وسط هذا الخليط الفريد من الأجناس البشرية وطبقاتها المختلفة، لا بد أن نتساءل عمّ كانت عليه الحياة الفنية والثقافية عموماً.

والخط بلغ شأواً عظيماً




بعيداً عن الأضواء، كان ابن النفيس في تلك السنة قابعاً في بيته يدوّن موسوعته الطبية الكبرى التي ستضعه في مصاف أعظم أطباء العرب على مر العصور. ولكن لماذا بعيداً عن الأضواء؟ والجواب هو لأن الاهتمام كل الاهتمام هو بما يستجيب للتحديات السياسية والعسكرية بالدرجة الأولى، ويوطد دعائم مشروع الدولة الجديدة، ويضفي شرعية على انقلاب المماليك على سادتهم الأيوبيين. وهذا ما يفسر الانفصام الكبير الذي عرفته الحياة الثقافية آنذاك. فمقابل إهمال (وقمع) لكل ما هو نشاط فكري، كان هناك ازدهار وتشجيع للفنون الحرفية بشكل لم يسبق له مثيل.

فقد أدى اجتياح المغول لبلاد فارس والعراق إلى تدفق آلاف الحرفيين على دمشق والقاهرة. وحمل هؤلاء معهم مهاراتهم المختلفة ليضيفوها إلى مهارات الدمشقيين والمصريين. وشكّل الأمراء المماليك الجدد أفضل أنواع الزبائن بالنسبة لهؤلاء. فقد احتاجت القصور الجديدة إلى المفروشات، واحتاج الأمراء إلى أسلحة وحلي وأقمشة وأدوات يستعملونها في حياتهم اليومية وتزيد من التشابه بينهم وبين سادتهم القدامى.

في العمارة، بقيت الأسس الجمالية في تلك الفترة قريبة جداً من تلك التي كانت في الصروح الأيوبية من مساجد وقصور. ولكن فن تعشيق الحجر الأبيض بآخر ملون سيتطور بسرعة، وستزداد التصاميم والزخارف الهندسية تعقيداً. والثروات الهائلة في أيدي السلاطين والأمراء تفتح الأبواب على مصراعيها أمام المشاريع الأكثر تكلفة من غيرها، والأصعب من حيث التنفيذ.

وانتعشت صناعة المفروشات الخشبية وحفرها بأشكال هندسية تتلاءم والصرامة العسكرية التي ميّزت طابع الطبقة الحاكمة. ولأن المال والوقت متوفران عند الزبون والحرفي، وصل فن الزخرفة إلى مستويات من الإتقان لم يعرفها الأيوبيون، خاصة في مجال تعشيق المعادن ببعضها، وتكفيت الفولاذ بالذهب والفضة. وهذا ما اشتهرت به دمشق بفضل الوافدين عليها من حرفيين. فازدهرت فيها صناعة "الجوهر" وهو أقوى أنواع الفولاذ، وتفنن الحرفيون بتكفيته بالذهب والفضة، حتى أن أفضل أسلحة السلاطين والأمراء أينما كان في العالم الإسلامي صارت تصنع في هذه المدينة. الأمر نفسه ينطبق على الصناعات الزجاجية المطلية بالذهب والميناء الملونة، واتخذت أشكال قوارير وأطباق ومشكاوات وغيرها. ومن بين كل فنون الخط، سينتصر العصر المملوكي لخط الثلث دون غيره، وسيصبح سمة مميزة لكل الفنون في ذلك العصر.

وبشكل عام يمكن القول إن كل الفنون القائمة على الزخرفة والمهارة اليدوية وصلت في هذه المرحلة إلى مستوى سيجعلها تدخل التاريخ كواحدة من القمم التي وصلها الفن الإسلامي على مر العصور، وتحت اسم "الفن المملوكي".



كتاب دمشق (الحقوق محفوظة)

جامع الأقصاب الأيوبي في دمشق ومحرابه الذي يعتبر تحفة الزخرفة الأيوبية (626هـ)

فنون الصياغة

في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، كانت فنون صياغة المعادن قد بلغت ذروة الإتقان عند سلاجقة الروم كما يبدو من مجموعة الحلي الظاهرة في الصورة. وفي بلاد فارس حيث صنعت علبة الأقلام هذه من النحاس المطعّم بالفضة والذهب.

وإن كانت الفنون المملوكية قد عرفت لاحقاً ازدهاراً مماثلاً في فنون صياغة المعادن بحيث صار لكل سلطان أو وزير علبة أقلام مثل هذه، فالفضل يعود أساساً إلى ما شهدته هذه السنة والسنوات القريبة منها من نزوح الفنانين والحرفيين صوب دمشق والقاهرة هرباً من المغول.



Sotheby's (d.r.)

Sotheby's (d.r.)

الشعر والأدب بعيداً عن التجني

على الرغم من أن شعر تلك الفترة يوصم عادة بـ "الانحطاط"، وليس في الأمر كثيراً من التجني، وقبل إعطاء بعض الأمثلة عمّا آل إليه الشعر آنذاك، نشير إلى أنه كانت هناك دائماً حفنة من المثقفين المحيطين بالسلطان أو من أصحاب النفوذ الذين قرضوا الشعر وفق الأصول.

نذكر من هؤلاء الذين كانوا في أوج عطائهم عام 659هـ (1201م) الإمام العلاّمة كمال الدين أبو القاسم عمر العقيلي الحلبي المعروف بابن العديم المتوفى في السنة التالية، وكان شهيراً بشعره وخطه الحسن، ويقال إنه هو الذي اخترع خط الحواشي، وقال فيه:

بوجهِ معذبي آيات حسن
فقل ما شئتَ فيه ولا تحاشي
ونسخة حسنه قُرِئَت وصحّت
وها خطُّ الكمالِ على الحواشي

ومما قاله أيضاً في مدح ديوان الشيخ أَيْدَمُر مولى وزير الجزيرة:

وكنت أظن الترك تُختصُّ أعينٌ
لهم إن رنت بالسحر منها وأجفانُ
إلى أن أتاني من بديع قريضهم
قوافٍ هي السحرُ الحلالُ وديوانُ



Sotheby's (d.r.)

فأيقنت أن السحر أجمعه لهم
يُقرُّ لهم هاروتُ فيه وسَحْبانُ

والملك الناصر صلاح الدين يوسف حاكم دمشق الذي قُتل في تلك السنة على يد هولاكو، كان شاعراً وصلنا بعض شعره ومنه:

البدر يجنحُ للغروب ومُهجَتي
لفراق مشبهه أسىً تتقطَّعُ
و«القَوْمُ» قد خاطَ النعاسُ جَفونَهُمْ
والصبحُ من جِلبابه يتطلّعُ

ومن شعر الملك الشهيد لدى مروره بحلب وكانت تحترق على أيدي المغول:

سَقى حَلَبَ الشهباءَ في كُلِّ لَزْبة
سحابةُ غيث نوؤها ليس يُقْلَعِ
فتلك دياري لا العقيقُ ولا الغَضا
وتلك ربوعي لا زَرُودُ ولَعْلَعُ

وهناك الشاعر والمحدث عز الدين أبو محمد عبدالرزاق الذي توفي عام 661هـ، ومن شعره:

ولو أن إنساناً يُبَلِّغُ لَوْعتي
وشوقي وأشجاني إلى ذلك الرَشا
لأسكنتهُ عيني ولم أرضَها له
فلولا لهيب القلب أسكنته الحَشَا

والشاعر كمال الدين أبو يوسف أحمد المعروف بابن العجمي، توفي عام 666هـ بظاهر مدينة صور ودُفن في دمشق. ومن شعره في خالٍ مليحٍ:

وما خالُه ذاكَ الذي خالَه الوَرَى
على خده نَقْطاً من المسكِ في وردِ
ولكن نارَ الخدّ للقلب أحرقت
فصار سوادُ القلب خالاً على الخدِّ

ومن أشهر الشعراء رسمياً آنذاك القاضي والكاتب محي الدين بن عبد الظاهر الذي كان مقرباً جداً من السلطان بيبرس وكتب سيرته كاملة، ورثاه حين وفاته بقصيدة طويلة جداً، من أبياتها:

ما مثل هذا الرّزء رزءٌ يُحْمَلُ
كلّا ولا صبرٌ جميلٌ يَجمُلُ
الله أكبر إنها لمصيبةٌ
فيها الرواسي خفّةً تتزلزَل
ما للوجود عَلَت عليه كآبةٌ
أتُرى القيامَة عن قريبٍ تُقْبلُ!
ما للجياد كئيبةٌ محزونةٌ
أفَذا الحنينُ أنينها إذ تَصهُلُ!
ما للقسيّ تئنُ أنَّةَ فاقد
إن القسيَّ لَفيه أيضاً ثُكَّلُ!
ما للسيُوف قد انحنَت أتُرى دَرَتْ
أنّ المنون لحدّها ستفلّلُ!
ما للرماح تَخَوّلتها رعدةٌ
ألَتَرْكها أنْ ليس تُعقَل تَعقِلُ!
الخطبُ أعظَمُ أن يُقال فجيعةٌ
إن الفجايع رُبّما تتسهّل

ولكن إضافة إلى هؤلاء، كان الشعر في تلك الأيام مورد رزق للكثيرين ممن لم يحصلوا من الثقافة ما يتجاوز القراءة والكتابة. فقد كان يطيب للأمراء المماليك والأثرياء الجدد الذين راحوا ينبتون فجأة أن يسمعوا قصائد تمتدحهم، حتى ولو كان هؤلاء من الأتراك أو الجراكسة الذين لا يعرفون العربية، وبعضهم لم يكن يفهمها على الإطلاق. إنحطّ الشعر، وأصبح مجرد سجع في أبيات ركيكة، ولا أحد ينتقد حتى افتقادها إلى الأوزان الصحيحة.

معظم ذلك الشعر الشعبي ضاع في غياهب الزمن، لكن عينات كثيرة منه وصلتنا عن طريق الأدب الشعبي. ومن السيرة الشعبية للظاهر بيبرس نختار عشوائياً هذه النماذج وننشرها كما وصلتنا حرفياً من دون أي تدخل من قبلنا:

ففي الفخر يقول أحد الشعراء الفرسان:

لا أبالي بأهل الارض جمعا
لو أتونى من جميع كل الجهات
ستعلموا من المغلوب منا
ومن يكون من الفائزات
وتعلموا اني قرما عنيدا
بامثالي في الورى ضاربات
انا ابراهيم فارس كل قرم
انا ابراهيم طبعى في ثبات

وفي فراق الأحبّة والشوق إليهم يقول آخر:

فراق الأحبا أطلق النار في الحشا
وحرمني لذيذ المنام
واسهر مقلتى وأجري دموعى
ومن فارق الاحباب كيف ينام
فرق الدهر حبي وابتلاني بما
لم أطيق دون الانام
ومن بعد عزى وارتفاع القباب
سكنت المحابس في دجاء الظلام

وانقسام المجتمع ثقافياً إلى طبقتين عليا ودنيا لا وسطى بينهما، ينطبق أيضاً على حال اللغة. ففي حين أن كتّاب الإنشاء والقضاة، والذين تلقوا قدراً معقولاً من العلوم الدينية كانوا يكتبون بلغة فصحى وسليمة، فإن حال العامة كان مختلفاً تماماً: يكتبون كما يتكلمون، ويتكلمون بلسان نصفه عربي ونصفه الآخر أعجمي.!!

ومن السيرة الشعبية للظاهر بيبرس ننتقي مثالاً معبراً عن الأمر. ففي الحديث عن تسلق بعض "الفداوية" (الفدائيين) لسور إحدى القلاع كتب الراوي ما يأتي:
"وقفوا الاثنين وأخرجوا من أوساطهم السرياقات، وكل واحد منهم أرمى مفرده ودور شككه بعدما طرح الكلاليت على صور الخان وشد رحاياته، وتعلق كل واحد منهم على مفرده، وبعدما كانوا تحت الجدار بقوا فوق الأصوار..."..!!

وفي تلك الفترة كانت تصاغ وتعاد صياغة الكليشهات الأدبية الشعبية القائمة على السجع شكلاً والمبالغة مضموناً، كما هو الحال في وصف المعارك، إذ احتلت البطولات العسكرية مكانة في الأدب لم تعرفها في أي عصر آخر: "وغنّا البتار وقلّ الأنصار ولحق الجبان الانبهار والنذل ولّى وحار، لا ترى إلا دماغ طائر ودماء فائر وجواد بصاحبه غائر، تفرقعت المرائر، كانت وقعة يا لها من وقعة تجلى عليها الملك الظاهر..."

ولكن لا بد للمنصف من أن يعترف بأن هذا الأدب الشعبي رغم ركاكته اللغوية لا يخلو من التشابيه والصور الجميلة التي تكشف عن أحاسيس أدبية راقية، وتنقل بأمانة في بعض المواضع صوراً مختلفة عن ذلك العصر.

ففي وصف بعض الأبطال من فرسان المسلمين يمكننا أن نقرأ: "لبس عدته وتقلد شاكريته، وخرج إلى حومة الميدان كأنه جلة من الجلل، أو قطعة من جبل، أو قضاء الله إذا نزل...". وأيضاً: "وإذا بالغبار قد غبر، وعلا إلى السماء وتكدر، وانكشف وبان عن حجرة دهما كأنها ليلة ظلما، مكسية بجلد النمورة وعلى ظهرها فارس شديد كأنه برج مشيد".

وفي وصف أحد ساسة الخيل: "..وإذا به غلام جميل الصورة، أبيض اللون، يمدغ اللوبان وعليه من الملابس ألوان، باللباس الدندكي والدكة المزركشة السائلة إلى الأرض وعلى رأسه شال أحمر وكأنه البدر ليلة أربعة عشر.."

قاموس مملوكي - عربي غير مكتوب

بسبب انتماء المماليك إلى شعوب وأجناس مختلفة، وازدحام المدن العربية آنذاك بموزاييك بشري يستحيل حصره، دخلت على اللغة العربية المكتوبة والمحكية مجموعة هائلة من التعابير والمفردات الأعجمية، وراجت على ألسنة العامة كما في الكتب المدونة بالفصحى. بحيث أنه بات يستحيل اليوم على قارئ مؤلفات ذلك العصر، خاصة قارئ الأدب الشعبي، أن يفهم صفحة كاملة أو حتى فقرة من دون أن يكون مطلعاً على ما كانت تعنيه هذه المفردات آنذاك، رغم أن بعضها عربي فصيح، لكنه خرج اليوم من التداول. ومن المفردات التي كانت رائجة آنذاك نختار العينة التالية التي يكشف استعمالها ما يتجاوز المسألة اللغوية ليصل إلى معالم الحياة اليومية أيضاً.





- **الشابردي:** المغني.
- **غندار:** الشاب، أو الشاب الوسيم، للمناداة تحبباً.
- **ياسرجي:** تاجر الرقيق بالعامية (وردت أيضاً يسرجي).
- **الخوند:** السيد الكبير. وكان الأمراء ينادون السلطان بهذا اللقب. والخدم ينادون سادتهم والأمراء به أيضاً.
- **الكخيا أو الكيخية:** نقلها الترك عن الفارسية كتخدا، وهي بمعنى صاحب مزرعة أو قيّم عليها، وجمعها كواخي، وبالعامية تعني أتباع الخوند.
- **العرضي:** تعبير عامي للإشارة إلى الجيش.

- **الزرد:** كلمة عربية فصحى تعني اللباس العسكري المؤلف من حلقات معدنية صغيرة، يغطي جسم المقاتل أو بعضاً منه.
- **الزردكاش:** المسؤول عن صناعة السلاح وصيانته.
- **الزردخانة:** المكان الذي يحفظ فيه السلاح. وأيضاً السجن المخصص للمجرمين من الأمراء وأصحاب المقامات العالية.
- **صاري عسكر:** قائد عسكري، أو قائد الجيش ككل، أو قائد فرقة كاملة.
- **الجامكية:** الراتب الذي يصرف للعسكري.
- **الرنك:** شعار يتخذه السلطان وكبار الأمراء. ويكون رسمه مستوحى إما من الوظيفة التي يشغلها الأمير، أو رمزاً يتشبه به السلطان، وجمعها رنوك.

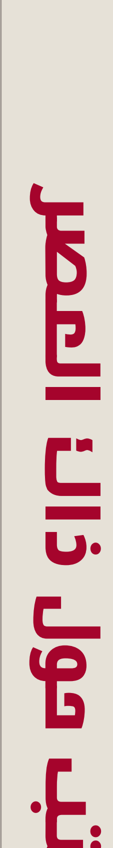
- **الخازندار:** المسؤول عن الخزينة.
- **السلاحدار:** المسؤول عن سلاح السلطان.
- **شاه بندر تجار:** نقيب أصحاب المتاجر.
- **الطواشي:** المملوك المخصي المعني بخدمة السلطان وحريمه، وجمعها الطواشية.
- **الأوشاقي:** الذي يتولى أمور الخيل. وفي بلاد الشام بالعامية الوجاقي.
- **باشت كواخين:** القائم بأعمال القلعة في غياب سيدها.
- **التاسومة:** فصحى قديمة وتعني الحذاء.

- **الطرحة:** رداء مشرشر يوضع على المناكب ويشبه الطيلسان.
- **الفرجية:** ثوب واسع من الصوف طويل الكمين.
- **الأتك:** كلمة تركية تعني ذيل الرداء. وكان يتم تقبيل ذيل رداء السلطان للتوسل والصفح.
- **الجوسق:** القصر.
- **الطبر:** الفأس.
- **الشاكرية:** سيف قصير ذو نصل غليظ.
- **الانجرشية:** نوع من السهام الصغيرة تطلق من القوس.
- **التوسيط:** طريقة إعدام شائعة تقضي بقطع المحكوم إلى نصفين من وسطه بواسطة منشار أو سيف.
- **حلقم:** خنق شخص بواسطة زج جسم كبير في بلعومه (حلقه).

- **التسمير:** شكل من أشكال الإعدام تدق فيه أطراف المحكوم بالمسامير إلى الخشب، ويعلق لساعات أو لأيام حتى يموت.
- **أولاد الناس:** فرقة في الجيش المملوكي ضمّت أبناء الأمراء المماليك الذين لم تمسهم العبودية، أي أن آباءهم مسهم الرق ثم أعتقوا. معظمهم لم يكن يعمل، بل يعيش حياة مترفة بسبب الميراث الذي وصله عن أبيه. لهم تربية وأدب، ومنهم على سبيل المثال المؤرخ المشهور ابن تغري بردي.
- **الصحنجي:** الذي يرصف الصحون على المائدة.

- **دقاقة:** العملة الذهبية المضروبة في البندقية وأصلها باللاتينية دوكاتو.
- **الزر والمحبوب:** من التعابير العامية للإشارة إلى الدينار.
- **البزّاز:** تاجر الأقمشة.
- **السماط:** ما يبسط على الأرض لوضع الطعام فوقه وجلوس الآكلين. ويطلق التعبير أيضاً على المآدب الكبيرة.
- **التخت:** المكان الذي يجلس عليه السلطان وهو مرتفع نسبياً حتى لا يتساوى مع غيره من جلسائه.
- **التختروان:** المحمل المرفوع على جملين من الأمام وجملين من الخلف لتنقل الملوك وأسرهم في أسفارهم.
- **شوطية:** زورق صغير.
- **الشنَك:** كلمة تركية تعني البهيج، وشنلك تعني البهجة. وراجت للإشارة إلى الاحتفالات التي تطلق فيها الألعاب النارية، ولاحقاً نيران المدافع من دون كلة.
- **المهتار:** لقب فارسي الأصل يطلق على كبير طائفة من غلمان البيوت مثل مهتار الشراب خانة ومهتار الركاب خانة.
- **الركبدار:** المكان الذي تحفظ فيه أسرجة الخيول وعدتها. والعاملون فيه يدعون الركبدارية.
- **خشداش:** رابطة الزمالة التي تجمع مملوكين عند سيد واحد. فيقال مثلاً إن بيبرس كان خشداش قلاوون لأن الإثنين كانا مملوكين عند الملك الصالح نجم الدين أيوب.

وبسبب الحروب المستمرة مع الفرنجة كان ولا بد للعامة من أن تتحدث في شؤون السياسة وتتناقل أخبار الأعداء. ويكشف الأدب الشعبي المدى الذي حُرّفت فيه الأسماء الأجنبية على ألسنة العامة. فملك فرنسا آنذاك لويس التاسع كان عند المؤرخين الرسميين والعامة "الريدفرانس"، وملكا طليطلة وبرشلونة حملا الاسم نفسه "الفنش" (على الأرجح من الفونسو)، وامبراطور القسطنطينية الذي كان على علاقة طيبة بسلطنة بيبرس أسماه العامة "البب رومان" أو "البب" فقط. أما كلمة "البرنز" التي تعني "الأمير" فكانت على ألسنة العامة اسم حاكم طرابلس الإفرنجي أياً كان اسمه الحقيقي! أما القائد المغولي هولاكو فقد عرف عند الكثيرين باسم "هلاوون"..



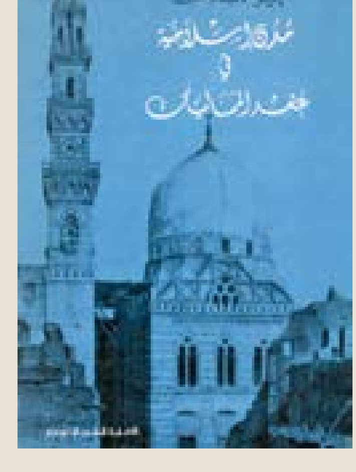
كتب حول ذاك العصر

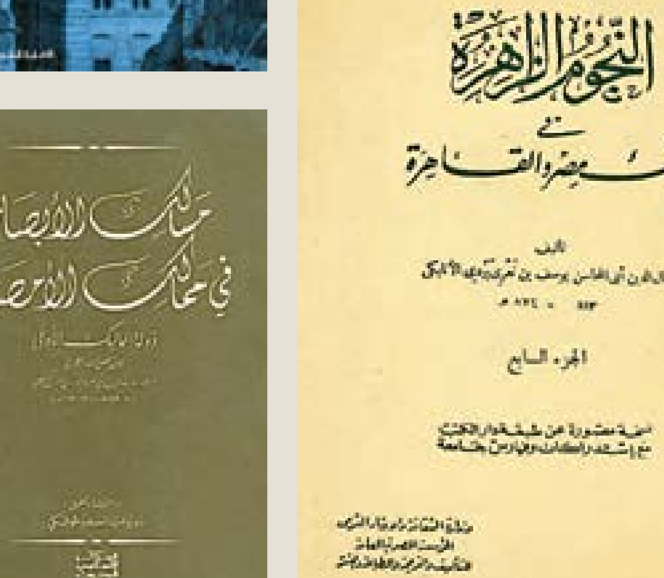
الفترة الزمنية التي تناولها هذا الملف هي من الأهمية التاريخية إلى درجة أنه يصعب تعداد المصادر والمراجع التي يمكن للقارئ أن يعود إليها إذا رغب بالغوص أكثر في هذا الموضوع.

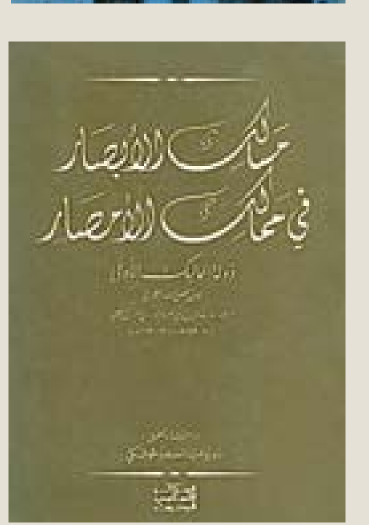
هناك أولاً الأعمال الموسوعية الكبرى التي وضعها مؤرخو العصر الوسيط مثل المقريزي صاحب كتاب "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" و"السلوك في معرفة دول الملوك"، وهناك أيضاً كتاب "نهاية الأرب في فنون الأدب" للنويري. وكتاب الحوليات الدقيقة الذي وضعه أبو المحاسن ابن تغري بردي بعنوان "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" وكان خير معين لنا على إعداد هذا الملف. كل هذه الكتب حققت وطبعت في العصر الحديث وهي متوافرة في معظم المكتبات.

وإضافة إلى المجموعة الكبيرة من الكتب التي تتناول فترة زوال الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك وأيضاً الحروب الصليبية، يجد القارئ في المكتبات مجموعة كبيرة من الدراسات التي تركز على شؤون وتفاصيل وعناوين محددة بدقة أكبر، ومليئة بالزخارف الممتعة. منها "تاريخ الملك الظاهر" لعز الدين محمد بن شداد (تحقيق الدكتور أحمد حطيط)، و"الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية" للدكتورة محاسن محمد الوقاد، و"النظم المالية في مصر والشام زمن السلاطين المماليك" للدكتور البيومي اسماعيل، والكتابان الأخيران صدرا عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ولا بد لفهم روح ذلك العصر ومزاجه الاجتماعي من المرور بأدبه الشعبي. والعمل الأكبر في هذا المجال هو "السيرة الشعبية للظاهر بيبرس" التي تقع في خمسين جزءاً جمعت في خمسة مجلدات، وتضم نحو 3200 صفحة. صدرت مطبوعة للمرة الأولى عام 1923م، وأعادت الهيئة المصرية العامة للكتاب مؤخراً تصويرها ونشرها.











القافلة

مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
عن أرامكو السعودية
يوليو - أغسطس 2004
المجلد 53 العدد 4

ص . ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
www.saudiaramco.com